الجزءان الثالث والرابع المجلد الثاني والتسعون

ISBN 978-9933-0-0494-1

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق

«مجلّة المجمع العلميّ العربيّ سابقًا»

مجلّة محكّمة فصليّة

شوّال ١٤٤٠هـ والمحرّم ١٤٤١هـ

تمّوز وتشرين الأوّل ٢٠١٩م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

«مجلَّة المجمع العِلميّ العَربيّ سابقًا»

أُنشئَت سنة ١٣٣٩هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمود السيِّد «رئيس التحرير»

الدكتور مكي الحسني الجزائري — الدكتور مازن المبارك

الدكتور ممدوح خسارة «المقرر» — الدكتورة لبانة مشوِّح

الدكتور وهب رومية — الدكتور عبد الناصر عسَّاف

أمينة المجلة: ريم الملَّاح

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية وأبرزها:

المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمة لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

البحوث والمقالات المنشورة في المجلة تعبّر عن آراء أصحابها،
ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجمع باستثناء القرارات المجمعيّة

قواعد النشر:

١- أن يتسم البحث بالجدَّة والأصالة والموضوعية.

٢- أن يُرفق البحث بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني.

٣- ألَّا يقلَّ البحث عن عشر صفحات وألَّا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة (٧٠٠٠ كلمة)، أما المقالات والتعريف بالكتب فيُقبَل منها ما يقلُّ عن عشر صفحات.

٤- أن تكتب في بداية البحث مقدمة تبين الغرض منه والبنود الرئيسية التي سيتناولها بالتفصيل.

٥- أن يخلو البحثُ من أي إساءة إلى الكُتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.

٦- أن يُعِدَّ الباحث - إذا رغب في ذلك - ملخصاً لبحثه بالإنكليزية أو الفرنسية.

٧- أن يلتزم الباحث المنهجَ العلميَّ في التوثيق، فتُعطى الحواشي أرقاماً متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي:

أ- «اسم المؤلف أو الكاتب – اسم الكتاب أو المجلة - رقم الصفحة»، **وفي المصادر والمراجع** يكتب:

ب- «اسم الكتاب - اسم المؤلف - اسم دار النشر ومكانها - رقم الطبعة وتاريخها».

ويمكن للكاتب أن يتخيّر أحد البندين (أ) أو (ب) على أن يجري على نسق واحد في توثيق المصادر والمراجع والحواشي.

٨- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة بالحرف (Mylotus) أو (Traditional Arabic) قياس (١٦)، وأن تشفع بقرص مدمج مسجلٍ عليه عنوان البحث، أو ترسل بالبريد الإلكتروني.

٩- على الباحث أن يلتزم مصطلحاً واحداً في بحثه إذا تعددت المقابلات العربية للأصل الأجنبي والأولى أن يكون مما جاء في المعاجم المتخصصة.

١٠- أن تُوضع الكلمات العربية أو المُعرَّبة **قبل** مقابلها الأجنبي عند ورودها **أول مرة فقط**، نحو: تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).

١١- أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، الفاصلة المنقوطة، ...إلخ.

١٢- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد عليها بعد أن تخضع للتقويم السِّرّي.

١٣- ألّا يكون البحث منشوراً أو مرسلاً للنشر في مجلة أخرى أو مستلًّا من رسالة، ويتعهد الباحث بذلك خطيّاً.

١٤- تُرتَّب البحوث والمقالات وَفق اعتبارات فنية.

١٥- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردُّ إلى أصحابها.

١٦- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان الآتي:

دمشق ص. ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: E – mail: mla@net.sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشابكة (الإنترنت):

www.arbacademy.gov.sy

* * *

فهرس الجزأين الثالث والرابع

من المجلد الثاني والتسعين

البحوث والدراسات

- تكملة مادة لغوية
  دَفَع، شَحَن، وَلَد — د. ممدوح خسارة — ٢٩٩
- الحركة وخصائص التلفظ — د. أحمد قدور — ٣١٧
- الترجمة وواقع المصطلح اللساني العربي — د. لبانة مشوح — ٣٤٥
- من جماليات الكلام — د. سمير معلوف — ٣٦٩
- جهود مجمع اللغة العربية بدمشق في علم
  التعمية واستخراج المعمى عند العرب — د. يحيى مير علم — ٤٠٥
- الدلالة التلميحية للإطناب
  دراسة تطبيقية في التعبير القرآني — د. عبير عبد الستار
  ود. خالد عباس — ٤٣٥

المقالات والآراء

- اتحاد المجامع ومؤتمرات التعريب — د. مازن المبارك — ٤٦٧
- ويغيب نجم — د. محمود السيد — ٤٧٩

- ما ولا النافيتان د. مكي الحسني ٤٩١
- الرسالة البدع في التعبير عن المتكلم
المفرد بصيغة الجمع د. رضوان الداية ٤٩٩
- عبد المعين الملوحي المجمعي المعطاء أ. عيسى فتوح ٥٢١
- الدكتور ممدوح خسارة
وعنايته بالعربية الراهنة د. عبد النبي اصطيف ٥٢٧

المحاضرات والمدارسات

- التطور اللغوي في العربية المعاصرة د. عبد الناصر عساف ٥٣٧

أنباء مجمعية وثقافية

- نعي فاضل
- من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب ٥٥٩
- الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع ٥٧٧
- فهرس المجلد الثاني والتسعين ٥٧٩

* * *

البحوث والدراسات

تكملة مادة لغوية

أ. د. ممدوح محمد خسارة(*)

(١٥)(**)

دَفَع

«الدال والفاء والعين أصل واحد مشهور يدلُّ على تنحية الشيء» بحسب معجم (مقاييس اللغة). وقد ورد من مادة (دفع) في المعاجم القديمة نحو ثلاثين مدخلاً اشتملَتْ على نحو أربعين معنى، منها:

- دَفَع: أزال بقوَّة.
- دَفَع عنه: حماهُ.
- دَفَعه: أَعْطاه.
- دَفَع قوسَهُ: سوَّاها.
- دَفَع ناقته: حمَلها على السير.
- دفع إليه: [أدَّى]. جاء: «إذا عُدِّي الدَّفْع بإلى اقتضى معنى الأمانة».
- دَفَع مِن المكان: ابْتَدأ السَّيْرَ منه.
- دَفَع إلى مكان كذا: انتهى إليه.
- الاندفاع: المُضِيّ.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(**) سلسلة دراسات تبحث في الكلمات المستجدَّة في العربية، بناء أو دلالة أو هما معاً، وتقترح إضافتها إلى المعجم العربي المُحَدَّث.

- الدَّافع: الراعي.
- الدَّفْعَةُ والدُّفْعة: الدَّفْقَةُ من المَطَر.
- المِدْفاع: الناقة التي تدفع اللبن على رأس ولدها.
- الدَّوافع: أسافل المَيْث تَدْفَع بين الأدوية.
- دافَع فلاناً: ماطَلَه.
- المُدَفَّع: المُهَان الضعيف. والضيف يتدافعه القوم.

وكلها ممَّا كانت تتطلَّبه حاجة الناس التعبيرية في ذلك العصر.

وورد من هذه المادة في المعاجم الحديثة (المعجم الكبير)، نحو(١٧) سبعة عشر مدْخلاً، اشتملت على نحو (٤٠) أربعين معنى، ومنها:

- دَفَع فلاناً على الشيء: اضطره إليه.
- دافَع فلانٌ أَمْر كذا: أُوْلع به.
- دافَعَ فلاناً حاجته: زاحَمَه.
- استدفع اللهَ السوءَ: سأله أن يدفعه عنه.
- الاندفاع: مَيْل تلقائي إلى العمل.
- الدَّفع: وسيلة يَتَذرَّع بها المتَّهم لدحض الاتهام الموجَّه إليه.
- الدِّفاع: (في القضاء): إجراءات تصدر عن المتَّهم أو ممثِّله دحضاً للاتهام.

على أن ثمة مداخل جديدة متداولة لم تذكرها المعاجم القديمة ممثَّلة بتاج العروس ولا الحديثة ممثلة بالمعجم الوسيط أو الكبير لمجمع القاهرة.

وهذه المداخل الجديدة مما أشارت إليه بعض المعاجم اللغوية المعاصرة، أو أدَّى إليه النظر في المفردات والعبارات الاصطلاحية المتداولة.

وجاءت هذه التكملة في سبعة عشر مدخلاً تضمَّنت نحو أربعين معنى جديداً، وهي:

١ – دَفَع: بمعانٍ متفَرِّعة عما أوردته المعاجم، وهي:

- دَفَع: سدَّد الثَّمن أو الأجرة أو التكلفة. يقال (دَفَع له ثمن البضاعة، أو دَفَع أُجْرةَ السيارة).
- دَفَع: أَعْطى. يقال: (دَفَع المحاسبُ الرواتبَ). وإذا كانت المعاجم قد أوردت(دَفَع فلاناً: أعطاه)، فإن المعاصرين أوقعوا الفعل على الأشياء لا الأشخاص.
- دَفَع: قدَّم. يقال: (دَفَع إليه بحاجته أو بمعروضه).
- دَفَع عن فُلان: سدَّد ما يُستَحقُّ عليه من مالٍ. يقال: (دَفَع عنِّي في المَطْعَم). وجعله معجم اللغة العربية المعاصرة بمعنى: سَلَّف فلاناً ما يؤدي به دينه لآخر.
- دفَعَ إلى العمل: حَثَّ عَلَيْه. وهو قريب من قول القدماء: دفع ناقته: حَمَلها على السَّيْر. يقال: (دَفَع الأب ابنه إلى الدراسة).
- دَفَع إلى التَّهْلُكة: أَوْقع في الشرِّ. يقال: (أغراه بالمال فدفعه إلى التهلكة).
- دَفَع الثمن غالياً: هو تعبير مجازي يعني: لاقَى الصعاب فيما حاول وأَعْطى أكثر مما أخذ، أو نال عقاباً شديداً على خطئه. كما في بعض المعاجم المعاصرة.

٢ – دافَع عنه: حامَى عنه وانتصر له.

٣ – انْدَفع: ورد في المعاجم: «اندفع في الأمر: مضى فيه». ويقترح إضافة المعنيين الآتيَيْن:

- انْدَفع: مضى في الأمر متحمِّساً. يقال: (انْدفع الجندي إلى القتال).
- انْدَفع: تَسَرَّع. يقال:(اندفع في جوابه).

٤ – تدافعوا الشيءَ: تناقلوه فيما بينهم. يقال: (تدافعوا الكرة).

٥- الدَّافع: الحافِز والسَّبَب، ويجمع على (دوافع). يقال: (الطموح أهمّ دوافع النجاح) أو (هاجر من بلده بدافع الفَقْر).

٦- الدافعيَّة: الرَّغبة المحفِّزة، وهي مصدر صناعي، يقال: (فَقَد الطالب الدافِعيَّة إلى متابعة الدراسة).

٧- المُنْدَفِع: المُتَّصف بالحماسة الشديدة في تصرُّفه ودون رَوِيَّة.

٨- الاندفاعة: قوة حيوية أصيلة تنتقل في الكائنات الحيَّة من جيل إلى آخر، وهو مصدر الحياة وتطورها في الكائنات الحية من جيل لآخر، كما ورد في بعض المعاجم المعاصرة. ولعلّها تعني مفهوم (الطَّفْرة النَّوعيَّة).

٩- الدَّفِّيع: الذي لا يُماطِل في أداء ما عليه، أو الذي يدفع كثيراً من المال، وهو كما يُرى صفة مشبَّهة، وقياسه (فِعِّيل) بكسر الفاء والعين المشدَّدة، ولكن الشائع في نطقها (فَعِّيل) بفتح الفاء، وهو مما لا تأباه الأذن العربية، وشاعت على هذا البناء كلمات مثل (الشَّغِّيل)، وهو العامل بجهد عضليٍّ غالباً، وكان مجمع القاهرة قد أَقَرّ (فِعِّيل) للمبالغة، وذكر - إذ ذاك - الدكتور إبراهيم أنيس أنه سيَّان عنده (فِعِّيل وفَعِّيل)[1].

١٠- الدِّفاع: ذُكر أنه ما يُتَّخذ في الحروب من أساليب لردِّ العدوِّ. ويفرَّع عليه حقيقةً أو مجازاً:

- وزارة الدفاع: واحدة من وزارات الدولة مهمتها حماية الوطن من العدوان الخارجيّ، وتضمُّ الجيش والقوات المسلحة.
- الدِّفاع المَدَنيّ: هيئة أو إدارة مهمتها حماية المواطنين المدنيِّين في حالات الكوارث كالحرائق والبراكين والفيضانات..

(١) مجمع القاهرة - في أصول اللغة. ١: ٣٤-٣٨.

- الدِّفاع الاجتماعي: حماية المجتمع من المشكلات الاجتماعية، كمكافحة التشرُّد والتسول والبطالة والتفكك الأسري وانحراف الأحداث.
- الدِّفاع الشَّعبِيّ: مقاومة العدو بمجموعات من المواطنين المتطوِّعين بوسائل شَتَّى، دَعْماً للجيش والقُوَّات المُسَلّحة.
- الدِّفاع الجوِّي: وسائل رَدّ هجوم طائرات العدوّ وصواريخه، بمدافع أو صواريخ يقال: (أسقط دفاعنا الجوِّي طائرة معادية).
- الدِّفاع السَّلبي: وسائل الحماية من الغارات الجوية، من ملاجئ أو تحصينات أو تمويه.
- الدِّفاع الذاتي: يعني:

أ- الدفاع عن منطقة أو بلدة بالاعتماد على أبنائها من دون ارتباط أو تنسيق مع السُّلْطة الشَّرعِيَّة.

ب- دفاع الجسم عُضويّاً وذاتيّاً ضد الأمراض، من دون أدوية أو معالجة.

- الدِّفاع عن النفس: حماية الشخص نَفْسَه المهدَّدة بالخطر أو القتل بأي وسيلة، وأيّاً كانت النتيجة، وهي من أسباب تخفيف العقوبة الجرميَّة.
- الدِّفاع الوطنيّ: مجموعات تطوُّعية شبه عسكرية تنتدب نفسها لحماية البلاد والأمن، أيام الفتن والحروب.

١١- السياسة الدفاعيَّة: الخطط والطرائق التي تتبعها الدولة لحماية الوطن ورَدْع العدو، وتتضمن طرائق الدفاع والهجوم وأنواع الأسلحة والعقيدة القتالية.

١٢- المِدْفَع: ذكرت المعاجم المعاصرة مدخل المدفع، وأنَّه آلة الحرب المعروفة التي تُرْمَى بها القذائف. ويتفرع عليه:

- مِدْفع الإفطار أو مِدْفع رمضان: مِدْفَع يُطْلِق قذائف خُلَّبيَّة صوتية مدوِّية للتنبيه على وقت الإفطار والسَّحور.
- مِدْفع المياه: مِضَخَّة قوية وأُنبوب، تُسَلَّط على حواجز لإزالتها، أو على حشودٍ لتفريقها.

١٣- سلاح المدفعية: وحدات من الجيش سلاحها الأساسي المدافع، عملها دَكُّ مواقع العدو بقذائفها، تمهيداً أو دَعْماً لعمل جنود المشاة، يقال: (مهَّد سلاح المدفعية للهجوم البرِّيّ).

١٤- الأنا الدفاعية: (فلسفة): الحفاظ التعويضي على تقدير الذات في الظروف التي تُهَدَّد فيها، بحسب ما أوردته بعض المعاجم المعاصرة.

١٥- الدَّفْع: هو تَسْديد الثمن أو الأجرة أو التكلفة، ويتفرَّع عليه:

- الدَّفْع مقدَّماً: أداء ثمن الشيء قبل تسَلُّمه، أو أداء الأجر قبل تقديم الخدمة.
- ضِدّ الدَّفْع: يقال: (طردٌ بريدي ضد الدَّفْع)، وهو أن يتسلم المُرْسَلُ إليه البعيثة المُرْسَلَة دون أداء أجرة البريد أو الناقل.
- دَفْع الرواتب أو التعويضات: تسديدها لمستحقّيها.
- الدَّفع الذَّاتيّ: تحريك الصاروخ في الفضاء بطاقة داخلية مُخَزَّنة.
- الدَّفع من عَرفات: النُّزول من جبل عرفات بعد مغيب شمس يوم عرفة، والتوجُّه إلى المزدلفة، وهو من شعائر الحَجّ عند المسلمين. وذكرت المعاجم القديمة (دَفَع من عرفات) بمعنى: ابتدأ السَّيْر منه.

١٦- الدَّفعَة هي: الدَّفْقة ويتفرَّع عليها:

- الدُّفْعة والدَّفْعَة: جزء من المبلغ الكامل لثمن الشيء أو أجرِ الخدمة. يقال: (اشترى السيَّارة وسدَّد قيمتها على دفَعَات).
- الدُّفْعَة من الطلاب وغيرهم: المجموعة المتخرِّجة في سنة واحدة من كلية أو معهد. يقال: (فلان من دُفْعتي في الكلية الحربية).
- دَفْعةٌ على الحساب: مبلغ يؤدِّيه المشتري إلى البائع جزءاً من ثمن البضاعة.

١٧- المَدْفوعات: جمع اسم المفعول (مَدْفوع). ويتفرع عليها:

- ميزان المَدْفوعات: المُوازَنة بين المبالغ التي تدخل إلى ميزانية دولةٍ أو مؤسَّسةٍ وبين المبالغ التي تخرج منها.
- نسبة المَدْفوعات: نسبة ما تعوِّضه شركةُ تأمين أو ضمان للمتضرِّرين من المشتركين، بالقياس إلى مجموع المبالغ التي سدَّدها للشركة؛ أو بالقياس إلى ما يتكلَّفه المشترك، وهي نسبة تحَمُّل الشركة، كأنْ تتحمل شركة الضمان الصِّحي ٨٠٪ من تكلفة العمليات الجراحية و٥٠٪ من قيمة الوصفات الطبيَّة.

* * *

(١٦)

شحَنَ

«الشين والحاء والنون أصلان متباينان، أحدهما يدلُّ على المَلْء والآخر على البعد»، كما يقول ابن فارس في مقاييس اللغة.

وقد أوردت المعاجم العربية القديمة والحديثة من هذا الجذر نحو (٢٥) خمسة وعشرين مَدْخلاً، تَضَمَّنت أكثر من (٣٠) ثلاثين معنى.

ومما ورد منها في تاج العروس:

- شَحَن السفينة: مَلأها.
- شَحَن المدينة بالخيل: مَلأها، كأشحنها.
- شحَن شخصاً: أبعده.
- الشَّاحِن: الكلب الذي يُبْعِد الصَّيْد ولا يَصِيدُه.
- الشِّحْنة: ما يكفي الدابَّة من العَلَف. والعَداوة.
- الشَّحْن: العَدْو الشديد.
- الشِّيحان: الطويل.
- المُشْحَئِنُّ: المُتَغَضِّب.
- شَحِن عليه: حَقِد.

ومما ورد في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة:

- شاحَنَه: باغَضَهُ وعاداه.
- الشَّاحِن: المَشْحون، يقال: مَرْكَبٌ شاحِن: مَشْحون.
- الشِّحْنة: الجماعة يقيمها السلطان في بلدٍ لضَبْطِه، [الشُّرطة].
- الشِّحْنة الكهربائية: ما تَحَمَّله جسمٌ ما من الكهرباء.

ونرى أن ثمة خمسة عشر مدخلاً بدلالات جديدة يقترح إضافتها إلى المعجم العربي المُحَدَّث، وهي:

١- شَحَن: نَقَل البضاعة عَبْر البرّ أو البحر أو الجوّ.

٢- شَحَن المُدَّخِرة [البطَّارية]: ملأها بطاقةٍ كهربائية تُسْتَمَدُّ منها عند الحاجة.

٣- الشُّحْنة: تعني نوعيَّة الطاقة الكهربائية يقال: شُحْنةٌ سالِبة، وشُحْنةٌ موجِبة.

وواضحٌ أن المعاجم ضبطَتْها بكسر الشين. ولا نرى مانعاً من ضمِّ شينها على ما هو متداوَل، يقوِّي ذلك أن بناء (فُعْلة) يدل - فيما يدل - على

الكمية والمقدار نحو: الشُّعبة: الطائفة من الشيء، الفُسْحة: السِّعة، الغُرْفة من المَرق ونحوه. ويُفَرَّع على هذا المدخل:

- الشُّحنة العاطفية: وهي تراكُم أهواءٍ ومُيولٍ سلبيَّة أو إيجابية، يقال: في كلامه شُحنةٌ عاطفية زائدة.

٤- شَحَن الجَوَّال أو الهاتف الخلويّ: عَبَّأه بوِحدات اتصال تمكِّن من التَّكلُّم والمحادثة ونقل الرسائل عَبْر شركة اتصالات رقميَّة.

٥- شحَنَه بالحِقْد: ورد في المعجم الوسيط: شَحِنَ - لازماً - بمعنى (حَقَد). وما نقترحه هو شحَن متعدِّياً، بمعنى: أَوْغَر صدرَه بالكراهية تجاه أحدهم، يقال: (شحَن الخطيب المستمعين بالحِقد على الظالِم).

٦- شاحَن: جادَل مخاصِماً. وما ورد في المعجم هو: شاحَنَه: باغضَه وعاداه. ويلحظ أن دلالة هذا البناء مالَتْ حديثاً نحو اللِّين قليلاً.

٧- انْشَحَنَ: وهو كما يُرى مطاوع فعل (شحَن) المتعدي، يقال: (انْشَحَنت البضاعةُ أَمْسِ)، ولا مانع من تعدية هذا الفعل ببناء (انْفَعَل)؛ إذْ من قرارات مجمع القاهرة «قياسية جميع أفعال المطاوعة»[٢].

٨- تشاحَنَ الرجلان: أي شاحنَ كلٌّ منهما الآخر، أو تشاحَن القوم: إذا تجادَلوا مخاصِمين. وهذه الدلالة أَلْيَن مما ورد في المعاجم من معنى المباغَضة والمعاداة كما ذكرنا، والتَّشاحُن مصدرُه.

٩- الشَّحْن: النَّقْل من مكان إلى آخر بواسطة السيارة أو الباخرة أو الطائرة. يقال: (طائرة شحن وباخرة شَحْن)، وهي ما لم تخَصَّص لنقل الأشخاص، بل البضائع. ويُفرَّع عليه:

- مكتب الشحن: وهو مَركَز يعمل فيه أشخاص مهمتهم تيسير

(٢) عباس حسن- النحو الوافي ٢: ١٠٠.

معاملات شَحْن البضائع ومتابعتها مع الدوائر الرسميَّة وشركات النَّقْل.

١٠- الشاحن: وله ثلاثة معانٍ، هي:

- المؤسَّسة أو الشركة التي تقوم بعمليَّة نقل البضائع بإحدى وسائط النقل برّاً أو بَحْراً أو جوّاً. يقال: (الشاحِن غير مسؤول عن العطب الناجم عن سوء التغليف).
- جهاز كهربائي صغير يحوِّل الطاقة الكهربائية ذات التيار المتناوب إلى طاقة كهربائية ذات تيار متواصل، ويخزِّنها في بطاريّة، تستخدم عند الحاجة. يقال: (شاحن البطَّارية ضعيف) أو (اشتريت الهاتف الجوال مع شاحنه).
- جهاز كهربائي صغير يُحَوِّل الطاقة الكهربائية ذات التيار المتناوب إلى طاقة كهربائية ذات تيَّار متواصل، ويُخَزِّنها في المدَّخرة (البطاريّة)، ويعيد إطلاقها عند الحاجة. يقال: (استضأنا بنور الشاحِن عند انقطاع الكهرباء)، والشاحن هنا بمعنى المشحون، ويجمع على (شواحن)، أي: هو مصباح ذو بطارية قابلة للشحن والتَّعبئة.

١١- الشاحنة: هي سيّارة معدَّة لنقل البضائع.

١٢- مقطورة الشَّحْن: هي عربة في القطار، معدَّة لوضع البضائع فيها ونَقْلها.

١٣- الشَّحْنيَّة: كمية البضاعة المشحونة ونوعها. يقال: (كانت شحنيَّتُنا ثلاثة أطنان من الأرز).

١٤- الشَّحِّين: مَنْ حِرْفَتُه نقل البضائع. والكلمة في الأصل مبالغة اسم فاعل سماعية مثل: قِدِّيس وزِمِّيت. والغالب في كلام الناس في مثل هذا البناء (فَعِّيل) بفتح الفاء، ولا أرى في ذلك بأساً، كما ذهب بعض اللغويين المعاصرين.

١٥- الشَّحِن: وهو ثقيل الظلّ والدَّم والمِلْحاح. والكلمة في الأصل - على ما أرجِّح- صفة مشبهة باسم الفاعل من الفعل اللازم (شَحِن عليه) بمعنى حَقَد، أو (شَحِن الإناءُ): إذا تغيَّرت رائحته. وينطقها الناس (شِحِن) بكسر الشين. على أن الصفات على وزن (فِعِل) نادرة في العربية كقولهم: (أتانٌ إِبِدٌ): إذا كانت تلد كُلَّ عام.

ويلحظ أن كل ما أوردنا من الدلالات والمعاني لايخرج عن الدلالتين الأصليّتين للجذر (شحن)، وهما المَلْء والإبعاد.

* * *

(١٧)
وَلَدَ

«الواو واللام والدال أصل صحيح، وهو دليل النَّجْل والنَّسْل، ثم يقاس عليه غيره»، كما ورد في مقاييس اللغة لابن فارس.

وما ورد من هذه المادة في المعاجم وفير، يربو على (٣٢) اثنين وثلاثين مدخلاً، اشتملت على نحو (٤٠) أربعين معنًى.

ومما ورد منها في تاج العروس:

- الوَلِيد: المولود حين يُولَد.
: الصَّبيّ ما دام صغيراً.
: الخادِم الشاب.
: العَبْد.
- الوليدة: الأمَةُ.

- الوُلُوديَّة والوَليديَّة: الصِّغَر، والجفاء وقِلَّة الرِّفق والعلم بالأمور، والأُمِّيَّة. وهي بحسب تاج العروس «من المصادر التي لا أفعال لها، كأنه بناه على أصل (الوليد)».
- الوَلُود: الكثيرة الولادة.
- المولَّد: العربيّ غير المَحْض. وكلامٌ مُوَلَّد: ليس من أصل لغتهم.
- شاة والدةٌ ووَلُود: حامِل.
- الوِلادُ: الحَمْل، يقال عن الشاة: (إنها لبيِّنة الوِلاد).
- الوُلْد والوِلْد والوَلَدُ: [كُلُّ ما وُلِد]، يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى.

وممَّا ورد منها في المعجم الوسيط:

- وَلَدت الأنثى: وضعَتْ حَمْلَها.
- أوْلَدت المرأة: حان وِلادها.
- ولَّد المرأةَ: حَضَر ولادتها فعالجها حين يبين الولدُ منها.
- ولَّد الشيءَ من الشيء: أنْشأهُ منه.
- المَوْلِد: مَوْضع الوِلادة.
  : وقت الولادة.
- المولَّد: المُحْدَث من كل شيء.
  : كُلُّ كلام كان عربي الأصل، ثم تغيَّر بالاستعمال.
- المُوَلِّد: طبيبٌ يتولَّى توليد المرأة.
- الموَلِّدة: القابلة.
- اللِّدةُ: التِّرْب، وهو الذي وُلِد يوم وِلادك.

ومع ذلك ثمة نحو (١٦) ستة عشر مدخلاً يُقترح إضافتها إلى المعجم

العربي المحدَّث، وكثيرٌ منها ورد في معاجم معاصرة رصينة.

والمداخل المقترحة هي:

١) وَلَّد: أهم المعاني الجديدة المقترحة لهذا الفعل:

- ولَّد الكلمات: أحدَثَها، ولم تكن قد وردت في اللغة من قبل على هذا البناء أو هذه الدلالة. وإذا كان بعض اللغويين قد خصُّوا الكلام المولَّد بما استعمله العرب بعد عصر الاحتجاج، أي بعد سنة (١٥٠هـ)، وأنَّه مما لا يُعْتدُّ به في كلام العرب، فإن الذي نراه أنه عربي صحيح، ما دام قد وضع من جذر عربي وعلى بناء عربي، وبدلالة قريبة من دلالة الجذر، كما في قولنا: جمهورية، حاسوب، مدير، جامعة، دوَّل المسألة، عَصْرَن، شَخْصَن، تَمَتْرَسَ.

ويلاحظ أن معظم كلامنا اليوم هو كلام مولَّد بمعنى: أنَّه مغيَّر البناء والدلالة.

- ولَّد الشيءَ من الشيء: أنشأه و استخرجه منه، كما ورد في المعاجم الحديثة. ويفرَّع عليه:

١- ولَّد الكهرباء: أنتجها بواسطة الآلات، يقال: (هذه المحطَّة تولِّد كفاية المدينة من الكهرباء).

٢- وَلَّد الطَّاقة: أنتجها وأعطاها، يقال: (هذا الشراب يولِّد طاقة بدنية عالية) أو (السُّكريَّات والنشويَّات تولِّد الطاقة اللازمة للجسم).

٣- وَلَّد المُشكِلة أو الظاهرة: سَبَّبَها وأوجدها، يقال: (الفقر والجهل يولِّدان الجريمة).

ومن هذا المدخل تُصاغ المصادر التي يُحتاج إليها مثل: (التوليد اللغويّ، تَوْليد الأفكار...)، وكذا سائر مشتقاتها.

٢) تَوَلْدَنَ: ويعني: فَعَل أَفْعالَ الأولاد التي تتَّسم بالصِّغر وقلَّة الرِّفق والعِلْم بالأمور. يقال: (لا تَتَوَلْدنْ يا رَجُل)، وهو نظير ما وَرد في المعاجم: «شَيْطَنَ وتَشَيْطَن: صار كالشيطان أو فَعَل فِعْلَه»، وهو اشتقاق من الاسم (شيطان).

٣) الوَلْدَنة: هي مصدر الفعل (وَلْدَن)، أو اسم مصدر من الفعل (تَوَلْدنَ). وتعني: فِعْل الأولاد وهيئتهم وسلوكهم المتَّسم بالخفَّة وقلَّة الرفق والعلم بالأمور. وهي بمعنى (الوُلوديَّة أو الوَليدية) اللتين ذكرهما المعجم الوسيط، واللتين قال عنهما تاج العروس: إنها من المصادر التي لا أفعالَ لها، كأنه بُنيت على لفظ (الوليد).

٤) الوِلادة: هي وضع الحامل طفلها كما في المعاجم. ويتفرَّع على هذه الدلالة العامة بضعة مداخل مخصَّصة هي:

- تاريخ الولادة: الوقت الذي وُلِدَ فيه الشخص ونحوه.
- مكان الولادة: الموضع الذي ولد فيه الشخص ونحوه.
- محلّ الوِلادة: مكان الوِلادة: بلدةً، أو مدينةً، أو دَوْلةً.
- الولادة المبكِّرة: خروج الطفل من بطن أمِّه قبل استكمال مدَّة الحَمْل. ومن كلام العرب: (الولادة لتمامٍ): أي لتمام مدَّة الحَمْل.
- الولادة المُبْتَسَرة: الوِلادة المبكِّرة.
- الوِلادة القَيْصَريَّة: إخراج الطفل من بطن أمِّه بمداخلة جراحية.

٥) التَّوْليد: هي – في المعاجم – حضُور ولادة الأنثى ومعالجتها حين يبين الوَلَد. ويفرَّع عليها:

- دار التوليد: مَشْفى تتم فيه وِلادة المرأة، طبيعيَّةً كانت أم جراحية.

٦) المُوَلِّد: هو – في المعاجم – من يُخْرِج الطفل من بطن أمِّه، ومن تُخرجه: مُوَلِّدة. ويمكن أن يضاف إليه الدلالات الآتية:

- المادَّة التي تَتَسبَّب في شيء أو أمْرٍ. يقال: (مُوَلِّد الحمُوضة).
- مَنْ يضع كلمة جديدة في اللغة وفق قواعدها. يقال: (الشِّدْياق مُوَلِّد كلمة الدَّرَّاجة)
- مَنْ يبتكر أسلوباً أدبيّاً جديداً أو صوراً فنية لم يُسْبق إليها. يقال: (أبو تمام مولِّد للصور البيانية).
- الآلة التي تُنتج مادَّة أو ظاهرة فيزيائية ونحوهما. يقال:(مُوَلِّد الكهرباء) أو (مُوَلِّد البُرودة). وتستعمل الكلمة بالتاء أيضاً فيقال: (مُوَلِّدة كهرباء).

٧) المُوَلَّد: هو من وُلِّد. ويقترح أن يضاف إلى هذا المعنى: الكلام الموضوع أو المبتكر من الألفاظ أو الأساليب أو الصور الأدبية ونحوها.

٨) التّوَلُّد: تاريخ الولادة وزمنها. يقال: (هو تَوَلُّد سنة ١٩٦٠). ويفرَّع عليه:

- محلّ التَّوَلُّد: مكان الولادة: بلدة أو مدينة أو دولة. يقال: (هو تَوَلُّد حَلَب).
- التولُّد الذاتي: النموّ المفتَرض لكائن عضوي من مادة ليس فيها خصائص الحياة.

٩) المَوْلِد: هو – في المعجم – موضع الولادة. ويقتَرح إضافة:

- المَوْلِد: حَفْل إنشاد ديني وخطابة، بمناسبة إسلامية أو اجتماعية، يقال: (دعانا إلى مَوْلد بمناسبة زفاف ابنه).
- عيد المَوْلِد: اليوم الموافق لولادة النبي محمد ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام.

١٠) المِيلاد: هو وقت الولادة ومكانها كما في المعجم، ويفرَّع عليه:

- عيد الميلاد: اليوم الذي يوافق اليوم الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام. وهو الخامس والعشرون من شهر كانون الأوَّل من كل عام.
- ليلة الميلاد: اللَّيلة التي وُلِد فيها السيد المسيح.
- شَجَرة المِيلاد: شَجَرة طبيعيّة أو صُنعية تُزَيَّن بأشكال متنوِّعة، احتفاء بميلاد السيد المسيح، تُنْصَب في البيوت أو المُدُن.
- السنة الميلادية: السَّنة الشمسيَّة، وهي مدة (٣٦٥) يوماً وبضع ساعات، تبدأ في اليوم الأوَّل من شهر كانون الثاني وتنتهي في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول.
- رأس السنة الميلادية: اليوم الأول من السنة الميلادية، يحتفل فيه العاملون بالتقويم الميلادي الغريغوري.
- قَبْل الميلاد: تاريخ حَدَث قبل التقويم الميلادي الغريغوري الذي يبدأ بولادة السيد المسيح. يقال: (اكتشفت الكتابة في نحو سنة (٣٠٠٠) قبل الميلاد).

١١) المَوْلود: هو - في المعاجم - الصَّغير لقُرب عهده من الولادة. ويتفرَّع عليه مايلي:

- المَواليد: جمع مولود، وهم الذين وُلِدوا في مكان أو زمان معيَّنين، يقال: (هو من مواليد دمشق لسنة ١٩٧٠).
- سِجلّ المواليد: قُيُود رسميَّة يُسَجَّل فيها: اسم المولود وتاريخ ولادته ومكانها، واسم أبيه وأمِّه ونسبه وجنسيَّته.
- مُعَدَّل المواليد: هو نسبة مجموع المولودين إلى مجموع

السكّان في منطقة معيَّنة وزمن محدّد. يقال: (كان معدل المواليد في العام الفائت٢٪).

١٢) الوَليد: هو المولود حين يولد، كما في المعجم. ويقترح إضافة:

- وَليد الشيء: نتيجته أو ثمرته، يقال: (هذا الخطأ وليد السُرْعة) بمعنى: المُتَوَلِّد من السُّرْعة.
- وليد المصادَفة أو الصُّدْفة[٣]: أي دون وَعْد أو اتّفاق.
- وليد السّاعة: أي مُرْتَجل لم يُعَدَّ مسبقاً، يقال: (كان الخصام وَليد ساعته). وقد تؤنَّث الكلمة فيقال: وليدة السرعة أو وليدة الساعة: إذا كان المخبر عنه أو الموصوف مؤنَّثاً.

١٣) الوَلَّادة: هي مبالغة اسم فاعل، وتعني: كثيرة الِولادة. ولكن هذه الكلمة متداوَلة في المشافي ودور التوليد بمعنى: المرأة التي في المخاضِ أو التي وَلَدت لساعتها أو يومها، وهي ما زالت في المَشْفى، وذلك للتفريق بينها وبين (الوالدة) بمعنى الأم عامَّةً.

١٤) الوَلُودة: هي الكثيرة الولد كما في المعجم، ويقترح إضافة:

- الحيوانات الوَلُودة: الحيوانات التي تتكاثر بالوِلادة لا بالبيض وهي الثدييَّات غالباً.

١٥) التَّوْليديّة: نظرية لغوية تَفْتَرض وجود تركيب باطنيّ و آخر ظاهريّ لكل جملة، وتُنَظَّم العلاقة بين التراكيب بطريق قوانين تحويلية، كما عرَّفتها بعض المعاجم المعاصِرة.

١٦) المَوْلوديَّة: هي نسبة إلى (المَوْلود)، أو مصدر صناعي منه، وتعني

(٣) أجاز مجمع القاهرة كلمة (الصدفة) بمعنى المصادفة، ينظر: كتاب الألفاظ والأساليب ٢/ ١٠٩.

– في المغرب العربي – مَنْ هُم منْ مواليد بلدٍ أو مدينة ما. يقال: (مولودية الجزائر)، أي أبناؤها الذين ولدوا فيها.

وقد وردت هذه الكلمة عند الفخر الرازي في تفسيره (٢٢/ ١٦٩) جاء: «هل في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] فائدة أَزْيَد من نَفْي الوَلَديَّة ونَفْي المَوْلوديَّة؟ قلنا: فيه فوائد كثيرة...». وواضح أنَّ دلالة الكلمة عند من يستعملها من أهل المغرب اليوم مغايرة لما هي عند الرازي، وإن كان البناء واحداً.

* * *

الحركة وخصائص التلفظ

أ. د. أحمد محمَّد قدّور(*)

بنى النّحاة القدامى تحليلهم الصّوتيّ في التّشكيل - كما تأكد لنا - على حالة الإدراج والوصل، وألحّوا على تداخل العناصر وتـأثّر بعضـها بـبعض. ولا شكّ في أنّ ذلك متأتٍّ من تقديم حالة التّركيـب علـى الإفـراد، أي نطـق الحروف مفردة. ويدلّ هذا دلالةً واضحةً على اعتبار المعيار النّطقيّ الشّفهيّ لا الكتابيّ أساساً للتّحليل الصّوتي. ولذلك ينبغي أن يؤخـذ أيّ رأيٍ يـذهب إلى أثر الكتابة في هذا الصّدد بمزيدٍ من الاحتياط، مع أنّهم لجؤوا أحياناً إلى الاستعانة بالخطّ على سبيل الإيضاح والتّقريب.

١- الحركة وعناصر الكلام:

الحركة مصطلحٌ عربيٌّ خالص، وهي حرفٌ صغير، فالحركـاتُ أبعـاضٌ لحروفٍ أخرى هي حروف المدّ التّـوامّ بحسـب مصـطلح النُّحـاة القـدامى. ولذلك تُسمّى الضّمّة الواوَ الصغيرة، والكسرةُ الياءَ الصّغيرة، والفتحةُ الألفَ الصغيرة[١]. وقـد سـبق سـيبويه إلـى ملاحظـاتٍ كثيـرةٍ تتّصـل بالعلاقـة بـين الحركات وحروف المدّ، وكثرتها في الكلام[٢]. ونقل عن شيخه الخليـل أنّ

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٤/ ٧/ ٢٠١٨م.

(١) سرّ صناعة الإعراب، ١/ ١٧، والخصائص ٢/ ٣١٥-٣١٦.

(٢) الكتاب لسيبويه، ٤/ ٣١٨، وشرح الأستراباذي، ٣/ ٦٨.

الفتحة والكسرة والضّمّة زوائد، وهنّ يلحقن الحرف ليُوصَلَ على(*) التّكلُّم به، والبناء هو السّاكن الذي لا زيادة فيه(٣). ويمثّل هذا المفهوم جوهر مفهوم (التّحريك) الذي تولّده الحركة، ثمّ لا تعتدّ من باب الزّوائد الصّرفيّة، لأنّها تشكّل مع الحرف المنطوق بها شيئاً واحداً هو (المتحرّك) في مقابل الحرف الآخر الذي لا تدخله الحركة فلا يتحرّك بها، وهو (السّاكن). وللحركة أهمّيّةٌ أخرى في التّشكيل هي إجهار الكلام، فالحركات مجهورةٌ كما هو معروف، فإذا لحقت الحروفَ المهموسةَ قرَّبَتْها من الجهر والوضوح السّمعي، لأنّ المهموسة -كما نُقل عن سيبويه- يخرج صوتُها من الفم ضعيفاً، وإذا تبِعَها صوت الصّدر قَوِيَتْ وفُهِمَتْ(٤). أمّا وظيفتُها في الرّبط بين الحروف فهي الأساس الصّوتيّ للإدراج و(سيلان) الكلام. والحركةُ عنصرٌ من عناصر الكلام، وإن كان الخطّ لا يلتزم تدوينه اتّكاءً على المشافهة التي هي أساس اللُّغة. وللحركة أثرٌ في تشكيل الأبنية، فلولاها ما اختلفت أوزان الكلمات وتعدّدت معانيها ووظائفُها الصّرفيّة، كالبناء للمجهول، ونحوه، كاختلاف دلالة البناء على اسم المفعول أو الفاعل من فوق الثّلاثيّ وغير ذلك كثير جدّاً؛ ويشكّل توالي المتحرّك والسّاكن أساس الميزان الصّرفيّ. وكذلك الإعراب فهو للحركات، أمّا الإعراب بالحروف فمن باب النّيابة عن الأصل(٥). والمهمّ أنّه بات مفهوماً تماماً لدى القدامى أنّ الكلام العربيّ مبنيٌّ على متحرّكٍ وساكن، «إذ لو التزموا الإسكان في

(*) كذا وردت والصواب: إلى التكلُّم = [المجلة].

(٣) الكتاب لسيبويه، ٤/ ٢٤١-٢٤٢، وشرح الأستراباذي، ٢/ ٢١١.

(٤) الأصوات اللّغويّة لإبراهيم أنيس، ص ٢٢، والنّصّ رواه السّيرافيّ عن سيبويه أو الخليل. وانظر شرحاً للموضوع نفسه في شرح الشافية للأستراباذي، ٣/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٥) كتاب الإيضاح في علل النّحو للزّجّاجي، ص ٧٢-٧٥، والخصائص ٣/ ١٣٥.

الوقف والوصل ما أمكنهم الإدراج، فلمّا وصلوا بالحركات جعلوا التّحريكَ معاقِباً للإسكان، ليعتدل الكلام. ألا تراهم بنَوا كلامَهم على متحرّك وساكن، ومتحرّكَين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنَين في حشو الكلمة، ولا في حشو بيت، ولا بين أربعة أحرف متحرّكة، لأنّهم في اجتماع السّاكنَين يُبطئون، وفي كثرة الحروف المتحرّكة يستعجلون وتذهب المُهلة في كلامهم، فجعلوا الحركة عقبَ الإسكان»(٦).

ويُشار في هذا الصّدد إلى أنّ سيبويه جعل من أسباب الإدغام تجنُّبَ التّلفّظ بخمسة متحرّكات «ألا ترى أنّ بنات الخمسة، وما كانت عدّته خمسة، لا تتوالى حروفُها متحرّكة، استثقالاً للمتحرّكات مع هذه العِدّة، ولا بدّ من ساكنٍ. وقد تتوالى الأربعة متحرّكة... وممّا يدلُّك على أنّ الإدغام فيما ذكرت لك أحسنُ أنّه لا يتوالى في تأليف الشّعر خمسة أحرفٍ متحرّكة»(٧). ولذلك كان توالي المتحرّكات سبباً للّجوء إلى الإدغام، لِما فيه من الإسكان الذي يحقّق توفيراً في بذل الجهد، وتوليداً للإيقاع. وهناك من هذا الباب أمثلة تجنَّبَ فيها العربُ النُّطقَ بأربعة متحرّكاتٍ فيما هو كالكلمة الواحدة(٨).

والحركات التي تُعَدُّ حروفاً، أي التي يؤدّي استبدالها إلى تغيير المعنى، ثلاث، وكذلك حروف المدّ التي هي حركات مَمطولة أو طويلة. فالحركات متى مُطِلَتْ أنشأت حرفاً من جنسها، فتُنشئُ بعد الفتحة الألف، وبعد الكسرة

(٦) الإيضاح في علل النّحو للزّجّاجي، ص ٧٠-٧١، والرّأي لقطرب في تعليله دخول الإعراب على الكلام (بتصرّف قليل).

(٧) الكتاب لسيبويه، ٤/ ٤٣٧.

(٨) إيجاز التّعريف بعلم التّصريف لابن مالك، ص ٢٧، والممتع لابن عصفور، ٢/ ٦٥١، وشرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢٥٩، ٢٦١-٢٦٢، وشرح الشافية لليزدي، ٢/ ٣٢٩، ٨٣٠، ٩١٦.

الياء، وبعد الضّمّة الواو. وهذا ذائعٌ في درسِنا، وقد توسّع فيه ابن جنّي بما هو معروفٌ في كتبه[٩]، لكنّه ذكر في موضعٍ من كتابه (الخصائص) أنّ محصولها ستّ، لأنّ بين كلّ حركتَين حركةً كالفتحة المُمالة، والفتحة المفخّمة، والكسرة المُشَمَّة أو الضّمّة المُشَمّة (لأنّهما نوعٌ واحدٌ لديه)، ورأى أنّها مُعتَدّاتٌ كالفروع التي ذكرها سيبويه[١٠]. لكنّ ما ذكره ابن جنّي لا يمكن عدُّهُ حركةً مستقلّةً ذات وظيفةٍ تمييزيّة، فهذه من نوع (الفروع) أو الصّور النّطقيّة التي يعبَّر عنها في اللّسانيّات بمصطلح (الألوفون Allophone)[١١].

ويُذكر في هذا الصّدد أنّ بعض الدّارسين الأجانب والعرب استشكلوا موضوع (الحركة)، منهم المستشرق (هنري فليش) الذي اهتمّ بالتّفكير الصّوتي في (سرّ صناعة الإعراب)، ورأى أنّ كلمة (حركة) هي من خلق العرب وحدهم، لكنّه أخذ عليهم نقص تعريفهم لها، لأنّها من أبسط الأمور التي يدركها الإنسان كما قدّر نيابة عنهم. ثمّ توهّم أنّ مفهوم الحركة مرتبط بالخطّ، لذلك عدّها القدامى حرفاً ناقصاً لا بُدَّ من حرف آخر يحملها[١٢]. والغريب أنّ بيان ما غمض على (فليش) متضمّن في كتاب (سرّ الصّناعة) الذي درسه، كما تقدّمت الإشارة. فابن جنّي جعلَ في تحليله للحركات

(٩) سرّ الصّناعة، ١/ ١٧-٣٣، والخصائص ٢/ ٣١٥-٣٢١-٣٢٧، ٣٢٨-٣٤٢، ٣/ ١٢٠-١٢٤-١٣٣، ١٥٤-١٥٧. وانظر كتابنا بحوث في علم أصوات العربيّة وتشكيلها، ص ٣٢-٤١.

(١٠) الخصائص ٣/ ٢١، وقارن بسرّ الصّناعة، ١/ ١٧.

(١١) كتابنا مبادئ اللّسانيّات، ط. أولى، ص ١٠٥.

(١٢) بحث هنري فليش (التفكير الصّوتي عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي)، تعريب وتحقيق عبد الصّبور شاهين، مجلة مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، المجلد (٢٣)، لعام ١٩٦٨م.

وحروف المدّ، الألفَ والواوَ والياءَ حروفاً كواملَ وتوامَّ وحروفاً كبيرةً ومصوّتة وممطولة. لذلك رأى أنّ الحركة قياساً على ذلك هي حرفٌ صغير لا يبلغ مدى الحرف في طولِهِ وتمام صوته والتّوقّف عنه. وكلّ الأوصاف التي ذكرها ابن جنّي للحركات كانت بالمقارنة بحروف المدّ أصلاً.. ولذلك عدّها صغاراً وناقصةً وأبعاضاً لتلك الحروف وأوائلَ لها وأجزاءً منها. وليس في هذه الأوصاف تشكيكٌ في وجودها أو ضَعْفِها، بل إنَّها جوهر حروف المدّ، لأنّ الحركة فيها متصاعدة ولا تفتُرُ إلّا حين بلوغ المدّ الذي عدّوه ساكناً، لانتهاء أثر الحركة عنده(١٣).

وليس هناك ما هو أوضح من كلام ابن جنّي عن الحركات التي فهم أنّها تقترن بالحرف الصّحيح وتقلقه وتجذبه إلى الحروف التي هي منها. فأول شيءٍ هو أنّها (تقلق) أي تحرّك السّاكن وتنقله (أي تجتذبه) إلى المخرج التالي. ولأنّها جزء من حرف المدّ صارت حركةً متلوّةً بسكون. «وإنَّما سُمِّيَتْ هذه الأصوات الناقصة حركات، لأنّها تقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضُها، فالفتحة تجتذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجتذبه نحو الياء، والضّمّة تجتذبه نحو الواو. ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضُها، فإن بلغ بها مداها تكمّلت الحركات حروفاً، أعني ألفاً وياءً وواواً»(١٤). وابن جنّي يُلِحُّ على الطّبيعة الشّفهيّة للّغة قبل الخطّ، فجميع الحروف موجودة في اللّفظ الذي هو قبل

(١٣) سرّ الصّناعة، ١/ ١٧-٣٣، وبحوث ودراسات في اللسانيّات العربيّة للحاجّ صالح، ٢/ ١٧٩، ١٩٤-١٩٥.

(١٤) سرّ الصّناعة، ١/ ٢٦-٢٧. ويقول الأستراباذي: «لأن الحركة تخرج الحرف عن جوهره». انظر: شرح الشافية، ٣/ ٢٥٦.

الخطّ... واللّفظ أصلٌ للخطّ، والخطّ فرعٌ على اللّفظ[١٥]. واللغة عنده - كما هو ذائعٌ- أصواتٌ يعبّر بها كلّ قومٍ عن أغراضهم[١٦].

ويؤكّد الدكتور عبد الرحمن الحاجّ صالح أنّ المستشرقين لم يستطيعوا فهمَ الحركة وعلاقتها بحرف المدّ، وينقل عن (فليش) قوله: «إنّ مفهوم الحركة هو أبعدُ مفهومٍ إلى تصوّرنا الحديث»[١٧]. ثمّ راح الحاجّ صالح يفنّد المفهوم اللّسانيّ لحروف المدّ، أي ما يسمّونه بالصّائت الطّويل (long Vowel)، مستعيناً بنتائج البحوث المخبريّة. والحقّ أنّ مبعث هذا الإشكال هو انطلاق التّحليل اللّسانيّ من التّقطيع، أي من النّظر إلى الحروف (الفونيمات) على أنّها متجاورة فقط. وهذا ما ينقضه الدّرس الحديث الذي رأينا شيئاً من نتائجه وآراء روّاده، فالحركة التي تقلق الحرف، أي تمكّن من نطقه، تنقله إلى موضعٍ آخر هو أقرب إلى جنسها، ولذلك صار المدّ إطالةً للصّوت تنتهي عندها الحركة بتلاشٍ وَصَفُوهُ بالسُّكون. فالمدّ لا يُعدّ حركةً في التّحليل العربيّ، لأنّه تابعٌ للحركة وغير مستقلّ عنها نطقيّاً، وهذا ما يؤدّي إلى تواصل الكلام بين متحرّك وساكن. ولا يتناقض هذا مع الوظائف الأخرى لحروف المدّ التي أُلحقت بالحروف التّوامّ الكاملة، فالألف تُعَدُّ (كلمة)، أي حرفاً يمثّل ضميراً للتّثنية، وعلامةً للرّفع في الاسم والصّفة إن كانا مثنَّيَيْن، كما تكون الواو ضميراً متّصلاً، وعلامةً للرّفع في الجمع السالم والأسماء السّتّة، وتكون الياء ضميراً للمؤنّثة المخاطَبة، وللمتكلّم، وعلامةً

(١٥) سرّ الصّناعة، ١/ ٤٣-٤٤.

(١٦) الخصائص ١/ ٣٣.

(١٧) بحوث ودراسات في اللسانيّات العربيّة للحاجّ صالح، ٢/ ١٧٩، والحاشية رقم (١١) منه، وقارِن بما جاء في مقدّمة كتاب فليش (العربية الفصحى) بقلم د. عبد الصّبور شاهين، ص ١٨.

للجرّ في المثنّى والجمع السالم والأسماء السّتّة، ونحو ذلك كثير مستفيضٌ في لغتنا وموصوفٌ في علومِنا. وينقل الدكتور الحاجّ صالح عن (تروبتسكوي Trubetskoy) وغيرِه أنّه ثبت أنّ المصوّت القصير، أي: الحركة عندنا – ذو قسمٍ واحد (Monoparti)، على حين أنّ المصوّت أو الصّائت الطّويل هو ذو قسمَين (Biparti)، لأنّ التّلفّظ بالمصوّت الطويل يختلف في بدايته عن نهايته كمّاً وكيفاً، إذ يتّصف قسمه الأخير بتناقصٍ لقوّة اللّفظ. وأمّا المصوّت القصير فلا يكون إلا بتزايد هذه القوّة(١٨).

ورأى النُّحاة أنّ هذه الحروف اللّيّنة التي تَرِدُ مدوداً لا تقبل الحركة بحال، لأنّ سكونها ميّت، أي منتهٍ غير قابل للتّحريك. لكنّ الواو والياء قد تردان مَتْلُوَّتَيْنِ بالحركةِ على نحو الحروف الصِّحاح، فتقوى إلى حدٍّ بعيد. أمّا الألف فلا تقبل ذلك، كما تقدّم لدى الخليل الذي رأى أنّها جَرْسُ مَدَّةٍ بعد فتحة، ولا صَرْفَ لها. وقد تردُ الياء والواو ساكنتين بعد حركة الفتح فتقعانِ موقعَ الحروف الصّحاح. وتشكّل هذه الحالة، وتلك التي تتحرّك فيها الواو والياء شكلاً من عناصر الكلام يتّصف باللّين دون أن يكون عريقاً في المدّ. لكنّ الواو والألف والياء –كما أكّد القدامى– فيها روائح الحركة نظراً إلى طولها، ولذلك كانت مانعاً من الإدغام، مثلها ههنا مثل الحرف المتحرّك الذي يمنع الإدغام ما لَم يسكّن. أمّا حالة اللِّيْن التي وصفناها آنفاً، وهي ورود الياء والواو ساكنَيْنِ بعدَ فتح، فقد أجازوا الإدغام معها، لأنّ مدَّها ليس مانعاً من اتّصالها بما بعدها(١٩). أمّا الألف التي لا تقبلُ الحركة

(١٨) السّابق، ٢/ ١٩٤.

(١٩) الكتاب لسيبويه، ٤/ ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤١–٤٤٢، وإيجاز التّعريف لابن مالك، ص ١٧٤، وكتابنا بحوث في علم أصوات العربيّة وتشكيلها، ص ١٦٧–١٧٢.

على طريقة الحروف الصّحاح، كما هي الحال في الواو والياء، إذ تتلوهما الحركة، فإنّ مدّها قابلٌ للمَطْل، أو للاستئناف إذا وَلِيَها ساكن مدغمٌ حشواً، نحو (شابَّة)، «فحينئذٍ ما ينهضون بالألف بقوّة الاعتماد عليها فيجعلون طولَها ووفاء الصّوت بها عوضاً ممّا كان يجب لالتقاء السّاكنَين من تحريكها إذا لم يجدوا عليه تطرّقاً ولا بالاستراحة إليه تعلّقاً»[٢٠]. فالألف في (شابّة) أوفى صوتاً وأنعم جَرْساً من أختَيها. ويُفهم من كلام ابن جنّي أنّ مطل الحروف اللّيّنة الممدودة إذا وقعت بعدها الهمزة أو الحرف المشدّد، أو وُقِفَ عليها عند التّذكُّر، يُفضي إلى أن يصِرْنَ لَدِناتٍ وناعماتٍ ووافياتٍ ومستطيلات[٢١]؛ لأنّ المطل يهوّن من التقاء السّاكنَين حشواً، ويتيح نُطق الهمزة بالانتقال من الانفتاح التّامّ إلى الانغلاق التّامّ كما يبدو.

أمّا ما يتّصل بمكان الحركة من الحرف المتحرّك بها فقد أخذ الكثير من اهتمام ابن جنّي الذي مال إلى رأي سيبويه الذي رأى أنّها تلي الحرف المتحرّك بها، وأنكر رأي شيخه أبي عليٍّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ) الذي نقل عنه أنّه يجعلها مع الحرف لا قبله ولا بعده، وذكر أنّ ناساً يزعمون أنّ الحركة تكون قبل الحرف المُحرَّكِ بها[٢٢]. لكنّ ابن جنّي ذكر في كتابه (المحتسب) أنّ الحركة تحدث مع الحرف من غير أن يشير إلى آرائه السّابقة[٢٣]. ويبدو أنّ هناك لبساً بين (مكان) الحركة مع الحرف المحرَّك بها من جهة، وبين (أثر) الحركة من جهةٍ أخرى. فمكان الحركة بالنّظر إلى

(٢٠) الخصائص ٣/ ١٢٦.

(٢١) السّابق، ٣/ ١٢١-١٣٠.

(٢٢) السّابق، ٢/ ٣٢١ وما يليها، وسرّ الصّناعة، ١/ ٢٨-٣٣.

(٢٣) المحتسب لابن جنّي، ٢/ ١٤٩.

الحرف المتحرّك بها هو التّالي له حتماً، وهذا هو المقصود من كلام سيبويه. أمّا أثر الحركة فيمكن أن يمتدّ إلى السّاكن بعد المتحرّك، وهو بديهيّ، لأنّ اجتلاب همزة الوصل - مثلاً - المتحرّكة أصلاً كان لإمكان النُّطق بالسّاكن بعدها، فلولا أثرها فيه ما أمكن نُطقُهُ. وكذلك تؤثّر الحركة المتضمّنة في المتحرّك فيما يسبقها من سكون، وهو الذي رأيناه في موضوع سابق بخصوص إدراج السّاكن إلى المتحرّك بعده(*). أمّا أثر الحركة في الحرف المتحرّك بها فأوضحُ ممّا سبق، لأنّها هي التي تبعث فيه قوّة التّحرُّك وتشارك في إحداثه ثمّ في وصلِهِ بما بعده. ثمّ تستقرّ الحركة بعد ذلك على هيئة (صائت قصير) متّصل بالحرف المتحرّك به اتّصالاً جعلهما لدى القدامى حرفاً واحداً. أمّا إذا مُطلت الحركة فينشأ عنها حرف المدّ، كما بيّنّا في مواضع سابقة. ولذلك أرى تصديق الأقوال السّابقة جميعِها إذا فصلنا بين مكان الحركة حيث تستقرّ حرفاً، وأثرها في الحرف المتحرِّك بها، والذي يسبقها أو الذي يليها، ولا سيّما إذا كانا ساكنَين. فمكان الحركة إذَنْ، إذا نظرنا إلى السّلسلة الكلاميّة هو التّالي للحرف الذي تحرّك بها، فهي متعقّبة له. وهناك ما يؤيّد (إحداث) الحركة مع الحرف المتحرّك من غير تقدُّمٍ عليه أو تأخُّرٍ عنه. ويدلّ هذا على شدّة اتّصال الحركة بالحرف بحيث إنّ أعضاء النّطق - كما يقول الدكتور غانم الحمد - تبدأ بالتّهيُّؤ للصّوت الثّاني قبل الفراغ من نطق الصّوت الأوّل، وذلك لأنّ عمليّة النّطق الاعتياديّة سريعة جدّاً بحيث لا تدع فرصةً لنطق الصّوت مستقلًّا، ثمّ البدء بنطق الصّوت الذي يأتي بعده، وذلك لشدّة اتّصال الأصوات المتجاورة. ولولا ذلك التّداخل وشدّة الاتّصال ما حدث تأثّر الأصواتِ بعضِها ببعض بحيث

(*) نُشر في مجلة المجمع (المجلد ٩٢ ج١).

يؤثّر الصّوت الثّاني في الأوّل[٢٤]، كما يؤثّر الصّوت الأوّل في الثّاني بداهةً. وواضحٌ أنّ هذا الرّأي تفسيرٌ حديثٌ لنصٍّ قديم، على أن يُفْهَمَ منه أنّ المقصودَ هو (أثر) الحركة لا مكانها الذي تقدّم تحديده.

ومن أوضح الأمثلة على ما تقدّم أنّ الحركة في العربيّة تتأثَّر بالحرف الصّحيح الذي تُنْطَقُ معه. فالفتحة والضّمّة والكسرة تكتسب التّفخيم مع حروف الإطباق، وتكتسب تفخيماً وسطاً مع حروف الاستعلاء الثّلاثة (ق، غ، خ)، وتكون مرقّقة مع سائر الحروف. كذلك ميّز القدامى بين ترقيق الرّاء وتفخيمها وترقيق اللّام وتفخيمها، نظراً لِما تُنْطَقُ معه من الحركات أو ما يجاورها من حروف الإطباق أو الحركات. وهذا ينفي تماماً مقولة أنَّ الحرف يُنطَقُ منفرداً ثُمَّ يُنْطَقُ بالآخر كذلك من غير تأثيرٍ أو تداخل. أمّا التّقطيع فحالةٌ تُخالِفُ الوصل ولا يتشكّل منها كلامٌ مفهوم.

على أنَّ الدكتور عبد الرّحمن الحاجّ صالح رأى أنّ المقصود من الحركة أمران، هما: الحركة، وصوت الحركة. فالحركة من حيث هي حركة سبب نطقِ الحرفِ والخروجِ أو الانتقالِ إلى موضعِ حرفٍ آخر. أمّا الحركة من حيث هي صوت فهي مصوّت قصيرٍ، وهو امتدادٌ للحركة نفسها. ويفرّق الحاجّ صالح بين حركة العضو النّاطق في أيّ حرفٍ من جهة، وبين الحركة التي تباشر الحرف فيُنطَقُ بها ويُدْرَجُ إلى ما بعده من جهةٍ أخرى. فحركة العضو النّاطق في السّاكن لا بُدَّ منها لنُطْقِهِ، وهي تأتي بتأثيرٍ من حركةٍ سابقةٍ له. فإنِ انتهى النُّطْقُ وقَرَّ الهواء قراراً تامّاً ولم يضطرب كان الحرف ساكناً، أمّا إذا دخلت الحركة في حرفها المتحرّك بها واضطرب

(٢٤) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم الحمد، ص ٤٩٤-٤٩٥، والنّصّ الذي علّق عليه الحمد هو لعبد الوهاب القرطبي (ت ٤٦٢هـ) من كتابه (الموضّح في التّجويد).

الهواءُ وانفصل عن الحيّز، واتّجه إلى موضع حرفٍ تالٍ كان الحرف متحرّكاً. فالحركة المولّدة للتّحرّك تختلف عن حركة العضو النّاطق، لأنّ الأولى حركة نقلٍ وإطلاق، والثّانية حركةٌ في حيّزٍ محدّدٍ لا يتّصل بما بعدَه إلّا بشيءٍ من الإدراج الذي يتكفَّل بوصله، كما تكرَّر ذكرُهُ في البحث[٢٥].

أمّا الحروف المتحرّكة المدرَجَة فتتوالى وتتداخل من غير انقطاع، بل تتدفّق كأنّها تيّارٌ مستمرّ. فقوّة المتحرّكات أمرٌ لا شَكَّ فيه، ولذلك عَدَلَ العربُ عن كثرتِها لِما فيها من جهدٍ وكلفةٍ، ومالوا إلى إسكان بعضِها طلباً للاستراحة ووصولاً إلى التَّنوُّع. وإذا نظرنا إلى علاقة الحركات بحروف اللّين لاشتراكهما في الجوهر التّصويتيّ فإنّنا نلاحظ أنَّ حالات الإعلال تسبّبها الحركات المتتالية، أو الحركات المتباينة، وكلّ هذا مدروسٌ بالتّفصيل في علم الصّرف عندنا. والخلاصة أنَّ تحرّك حرف اللِّين محفوفٌ بالاستكراه غالباً، لأنَّ الياء والواو يعدّ كلٌّ منهما من جنس الحركات، بل إنّ الياء تُحسَبُ كسرتَينِ والواوَ تُحسَبُ ضمَّتَين، ثمّ إذا جاءت الحركة تكاثرت الحركات أو استثقلت فاتّجهتِ السّليقة اللّغويّةُ إلى إحداث سكونٍ هو في الحقيقة حرف مدٍّ ولِيْن (أي صائت طويل)[٢٦]. ويتجلّى ذلك في أمثلة قلبِ الواو والياء أَلِفاً، كما يتجلّى في إسكان الياء والواو إذا وقَعَتا طرفاً، وفي قلب الواو المتطرّفة بعد كسرٍ ياءً، وقلب الياء المتطرّفةِ واواً بعد ضمّ، وفي قلب الواو السّاكنة بعد كسرٍ ياءً، أو العكس، أي قلب الياء السّاكنة بعد ضمٍّ واواً. وتُفضي كلّ هذه الحالات إلى الوصول إلى الحالة المستحبّة في نُطق حرف المدّ متّصلاً بحركتِه المناسِبة المتقدّمة عليه، أي الألف المسبوقة بفتحٍ

(٢٥) بحوث ودراسات في اللسانيّات العربيّة للحاجّ صالح، ٢/ ١٨٠-١٨٥ بتصرّف.

(٢٦) سرّ الصّناعة، ١/ ٢٢، والممتع، ٢/ ٤٣٨.

والواو المسبوقة بضمٍّ والياء المسبوقة بكسر[٢٧]. ولذلك أرى أنّ الحالة الاعتلاليّة الصِّرْفَ للياء والواو هي الأصل، أمّا الحالة الأخرى التي تتحرّك فيها الياء والواو فالغالب أنَّها غيرُ ثابتةٍ ومستكرهةٌ إذا تجاورت مع حركاتٍ أخرى، أو ظهر ثقلٌ حين إدراجها.

وتتعرّض الحركات نفسُها إلى التّغيّر من جهة (المدى)، أي الطّول، أو من جهة العنصر التّصويتيّ فيها. فابن جنّي يرى أنّ العرب تصرّفوا في الحركات فاختلسوها اختلاساً، وأخفَوْها فلم يمكّنوها ولَم يُشبِعُوها. «ألا ترى إلى مصارفتهم أنفسهم في الحركة على قلّتها ولُطفِها حتّى يُخرجها تارةً مختلسةً غيرَ مشبَعةٍ وأخرى مُشَمَّةً للعين لا للأذن... وقد أفضى بهم ذلك إلى أن أضعفوها واختلسوها ثمّ تجاوزوا ذلك إلى أن انتهكوا حُرمتَها فحذفوها»[٢٨]. وذكر ابن جنّي كما تقدّمت الإشارة أنواعاً من الحركات التي دخلها شيءٌ من المزج، كالضّمّة المُشَمَّة كسراً مراعاةً لكسرٍ بعدها، والكسرةِ المُشَمَّةِ ضمّاً للدّلالة على أصل البناء[٢٩]. ويُعَدُّ من هذا الباب إمالة الفتحة باتّجاه الكسرة، ونحو ذلك من صورٍ سياقيّة.

ومن حديث التّصرُّفِ بالحركات اختلاساً وإخفاءً ورَوْماً وإشراباً أنّ ابن جنّي وصف صورةً من إشمام السّاكن حركةً ضعيفةً هي دون رَوْمِ الحركة،

(٢٧) شرح الشّافية لليزدي، ٢/ ٨٢٨، والحاشية رقم (١) منه، ٢/ ٨٢٩ والحاشية رقم (١) منه أيضاً. ويرى اليزدي أنّ علّة القلب التحرّك والانفتاح، أمّا ما يخالف ذلك فأغلبه شاذّ يتّبع فيه بالسّماع. انظر: ٢/ ٨٣٤. وكذلك تؤدّي حالات نقل الحركة إلى الحالة الاعتلاليّة المستحبّة، نحو (يَقْوُل) و(استِقْوَام) و(مَقْوُول) التي تُصبح (يقُول) و(استِقامة) و(مَقُول).

(٢٨) الخصائص ١/ ٧٢-٧٣، ٧٥، ٧٨.

(٢٩) السّابق، ٣/ ١٢١.

والحرف الذي هي فيه ساكنٌ أو كالسّاكن، وأنَّها أقلُّ في النّسبة والزِّنَةِ من الحركة المُخفاة في همزة بينَ بينَ وغيرها[٣٠]. ويدلُّ هذا -وهو غيضٌ من فيضٍ- على أنَّ القدامى درسوا الحركات دراسةً قَلَّ نظيرُها في علوم اللُّغات الأخرى. ولذلك يبدو غريباً أن يذهب (كانتينو) إلى القول: «وقد اكتفى النُّحاة العرب بملاحظة طروء الظّواهر التّعامليّة على الحركات ولم ينظّموا تلك الظّواهر في نظريّةٍ عامّةٍ شبيهةٍ بنظريّتهم في الإدغام المتعلّق بالحروف»[٣١]. والحقُّ أنَّ كلّ تغيُّرٍ ملحوظٍ وُصِفَ في علم الصّرف عندنا كان يُعوّل على الحركة أو السّكون، سواء أكان التّغيُّر بالإدغام أم بالإبدال أو بالإعلال، أو غير ذلك كالوقف والابتداء والحذف.

والخلاصة أنَّ الحركات مهما تعدّدت صورُها النُّطقيَّة في السّياقات المختلفة تُرَدُّ إلى أصولِها الثّلاثة، وهي ثابتةٌ في الكلام العربيّ بعددِها وصفاتِها، وإليها ترجع خصائص الكلام العربيّ المبنيّ على توالي المتحرّك والسّاكن، وهو ما بُني عليه العَروض مستخلصاً من كلام العرب. ولذلك صار معياراً لدى النُّحاة في ضبط حالاتٍ كثيرةٍ تتّصل بالسّكون أو تتّكئ على مصطلحاتِ العروض كالأسباب والأوتاد[٣٢]. «فهذه الحركات القليلة العدد ظاهرةٌ بارزةٌ تستحقّ النّظر والتّأمُّل إذا قيست بما يُناظرها في اللّغات الأخرى... إذ تفوقُها وتمتاز منها في بعض الوجوه»[٣٣]. على أنَّ هناك آراءً قديمةً ذهبت إلى معالجةٍ غريبةٍ عن اللّغة عرضت لمفهوم الحرف والحركة

(٣٠) سرّ الصّناعة، ١/ ٥٩.

(٣١) دروس في علم أصوات العربية لجان كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، ص ١٤٩.

(٣٢) انظر مثلاً: شرح الشّافية للخضر اليزدي، ٢/ ٧٧٤-٧٧٥، إضافة إلى ما تقدّم من أمثلة لدى ابن جنّي.

(٣٣) دراسات في علم اللغة، لكمال بشر، دار غريب بالقاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٩٩-٢٠٠.

من جهة الجسم والعَرَض ونحو ذلك من مصطلحات المنطق التي لا يُعوَّلُ عليها في الدّرس اللّغويّ[٣٤]. وينتهي مكّي القيسيّ (ت ٤٣٧هـ) إلى أنَّ السّاكن يحتاج إلى حركة، والحركة لا توجد إلّا مع الحرف (أي الصّحيح)، ومن حيث المرتبة لا يتقدّم أحدهما الآخرَ، وبالحركات واختلافها تُفْهَمُ المعاني المَنوطة بالكلام[٣٥].

٣- خصائص التّلفُّظ:

ذكرنا فيما تقدّم أنّ النّحاة القدامى درسوا الظّواهر التّشكيلية للأصوات لرصد التّغيُّر الطّارئ أصلاً، واستخلاص طرقه، وبيان أحكامه. لكنّ ذلك كان مترافقاً مع بيان خصائص كلام العرب ومذاهِبِهم في الاستخفاف ونبذ الاستثقال ونحو ذلك ممّا يُدْعَى بقواعد التّلفُّظ. وهي في الحقيقة خصائص الذّوق العربيّ الذي يتّجه نحو كراهية توالي الأضداد، وكراهية توالي الأمثال. وقد بيّن الدكتور تمّام حسّان أنّ الظّواهر التّشكيليّة التي دعاها بالظّواهر السّياقيّة يُمكِنُ أن ترجع إلى هذا الاتّجاه. وعلى هذا الأساس رأى أنّ ظواهر التّأليف بالنّظر إلى المخارج، والوقف، والمناسبة، والإعلال، والإبدال، تُرَدُّ إلى كراهية توالي الأضداد. أمّا ظواهر الإدغام، والتّخلُّص من التقاء السّاكنَين، والحذف، ونحو ذلك، فيُمكن أن تُرَدَّ إلى كراهية توالي الأمثال. وينتهي الدكتور حسّان إلى أنَّ النّظام اللُّغويّ والاستعمال السّياقيّ يحرصان على التّخالف، ويكرهان التّنافُر والتّماثل[٣٦].

---

(٣٤) انظر مثلاً على ذلك كلام مكّي القيسي في كتابه: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ٧٨.

(٣٥) السابق، ص ٨٠.

(٣٦) اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢٦٣-٢٦٤.

وهذا استنتاجٌ جيّدٌ في عمومه، غير أنَّ بعض الظّواهر التي أوردها الدّكتور حسّان لها أكثر من سببٍ يُفضي إلى إدراجِها في كراهية الأضداد وكراهية الأمثال معاً، كالإعلال مثلاً. فالتّنافُر بين الواو والياء يؤدّي إلى قلب إحداهما إلى الأخرى، وكثرة الأمثال المتوالية من الحركات وحروف اللِّيْنِ تُفضي إلى قلب الواو أو الياء ألفاً لكثرة المتحرّكات. وأظنّ أنَّ هذا الموضوع ما يزال بحاجةٍ إلى درسٍ تفصيليٍّ تُجمَعُ له بدايةً آراءُ القدامى وملحوظاتُهم الجمّة، ولا سيّما ما يتعلّق بالتّلفّظ الذي لا نجد له ظاهرةً خاصّةً به كالظّواهر الأخرى التي عُني بها القدامى عنايةً بالغةً كالإدغام والإعلال. على أنَّ أقرب الظّواهر التي درسها هؤلاء إلى خصائص التّلفّظ هي الابتداء والوقف والتّخلّص من التقاء السّاكنَين. ومن حديث هذه الخصائص أنَّ الخليل بن أحمد لاحظ أنّ اللّسان لا ينطلق بالسّاكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل. وإنَّما أُدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام (اقشعرّ، اسحَنْكَكَ...) لتكون الألف عماداً وسلّماً للّسان إلى حرف البناء. إلّا أنّ (دحرجَ... ونحوه) لم يُحْتَجْ فيهنّ إلى الألف لتكون السّلّم. ولذلك لم يحتسب الخليل هذه الألف وعَدَّ ما بعدَها فقط، فنحو (اقشعرّ، واسحَنْكَكَ...) مبنيٌّ على خمسة أحرف[٣٧]. أمّا سيبويه فقد خصّ هذه الألف بباب مستقلٍّ شرح فيه ما تقدّم لدى الخليل[٣٨]. وعلى هذا النّحو عالَجَ ابن جنّي مسألة الابتداء، إذ لا بُدَّ من أن يكون الحرف الأوّل متحرّكاً، فإن لم يكن كان لا بُدَّ من الإتيان بهمزةٍ يُتبلّغ بها في حال الابتداء، ثمّ يسقطها الإدراج الذي عليه مدار الكلام ومتصرَّفُه. وأكّد ابن جنّي أنّ

(٣٧) كتاب العين للخليل، ١/ ٤٨-٤٩.

(٣٨) الكتاب لسيبويه، ٤/ ١٤٤-١٥٢.

الابتداء بالسّاكن ليس في هذه اللّغة العربيّة[٣٩].

وينقل ابن جنّي عن شيخه أبي عليٍّ الفارسيّ أنّه لم يكن مستوحشاً من الابتداء بالسّاكن في كلام العجم، لكنّه لم يصرّح بإجازته، غير أنّه لم يتشدّد فيه تشدُّدَهُ في إفساد إجازة ابتداء العرب بالسّاكن. ويلاحظ ابن جنّي أنّ بعض الفرس وغيرهم من العجم ينطقون بما لا يبلغ السّكون، وبحركة جدّ مضعّفة حتّى إنّها ليخفى حالُها عليه[٤٠]. وعلى هذا النّحو فهم الأستراباذي من كلام ابن جنّي أنّ الابتداء بالسّاكن متعسّر لا متعذّر. لكنّه بيّن أنّ ما يُظَنُّ أنّه ابتداء بالسّاكن لا يُتوصّل إليه إلّا بحركةٍ هي في غاية الخفاء حتّى كأنّها من جملة حديث النّفس فلا يُدرِكُها السّامع. ولذلك الظّاهر أنَّ الابتداء بالسّاكن على حقيقته مستحيل، ولا بدّ من الابتداء بمتحرّك، فما ظُنَّ أنّه ابتداءٌ بالسّاكن في نحو (سْطام وشْتاب) كان معتمداً قبل السّاكن على حرفٍ قريبٍ من الهمزة مكسور، كما يحسُّ في نحو (عَمْرو) وقفاً بتحريك السّاكن الأوّل بكسرةٍ خفيّة، ولِلُطْفِ الاعتمادِ لا يتبيَّنُ. ويرى الأستراباذي - وهو من أصحاب الآراء الفذّة - أنَّ هذا النّحو من التّوصّل إلى النّطق بالسّاكن باجتلاب حركةٍ خفيّة يُمكن أن يُلاحَظَ في السّاكن في أوّل الكلمة أو في آخرها أو في وسطها، لأنّه من طبيعة النّفس وسجيّتها إذا خلّيتَها وشأنها[٤١]. ولذلك تقرّر لدى القدامى أنّ الابتداء بالسّاكن على حقيقة السّكون محال، أمّا ما يُظَنّ - كما تقدّم - أنّه من هذا النّحو فليس على حقيقته لوجود شيءٍ يُشبِهُ همزة الوصل يُتَوَصَّلُ بنُطقِهِ مهما كان خفيّاً. ومن هنا يأتي الاستثقال

(٣٩) الخصائص ١/ ٦٠، ٧١. وكتاب المنصف شرح تصريف المازني لابن جنّي، ١/ ٥٣.

(٤٠) الخصائص ١/ ٩١-٩٢.

(٤١) شرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢١١، ٢٥١.

الملحوظ في نُطق الأعاجم. فالابتداء بالمتحرّك أو اجتلاب همزة الوصل المتحرّكة قبل السّاكن هو من صميم خصائص العربية. «ولَمّا كان كلام العرب أشرف اللّغات وخير الألسنة ناسَبَ أن يكون مشتملاً على التّناسب التّامّ واللّطافة الكاملة، ومن جملة ذلك ألّا يكون ابتداءُ الكلام إلّا بمتحرّك، فإنّ الابتداء بالسّاكن متعذّر أو متعسّرٌ محتوٍ على بشاعة»(٤٢).

لكنّ هذه الهمزة التي يقع الابتداءُ بها دون غيرِها قابلةٌ للحذف إذا وقعت في دَرجِ الكلام، «فإثباتُها في الدَّرْجِ خروجٌ عن كلام العرب ولحنٌ فاحش... فإذا كان وصل الكلام أعني بكون السّاكن أوّله مسبوقاً بكلمة ما كان الإتيان بالهمزة زيادةً بلا فائدة، فيكون لحناً»(٤٣). وهذا من مقتضى الوصل كما بيّنّا في مواضع سابقة، لأنّ الإدراج يمنع التّوقّف، فيُوصلُ آخر الكلمة بأوّل ما يليها، فإن كان مسبوقاً بهمزة الوصل سقطت إذا تقدّمها متحرّك، أمّا إذا سبقها ساكن فلا بُدّ من تحريكه ليُوصَلَ بما بعدها بعد حذفِها كذلك. أمّا سببُ عدم النّطق بالسّاكن ابتداءً فهو أنّ الحرف السّاكن يحصل بحبس الهواء والعضو جزئيّاً أو كلّيّاً في حيّزٍ معيّن، ولذلك اقتضى أن تكون قبله حركةٌ لحرفٍ سابقٍ تمكّن من الوصول إلى النّطق بالسّاكن، فيتهيّأ العضو للنّطق معتمداً على أثر الحركة السّابقة، وهذا ما أثبتته الدّراسات المخبريّة الحديثة. أمّا تعذُّر الابتداء بحركةٍ صِرْفٍ، فلأنّ المصوّت يحدث باهتزاز الوترَيْنِ الصّوتيَّيْنِ، وهذا يقتضي أن يبدأ بإغلاقهما. وكذلك لا يُوقَفُ على الحركة، لأنّ الأعضاء النّاطقة تتهيّأ في أثناء الحركة للنّطق بحرفٍ آخر، وهذا عينُ الإدراج(٤٤).

(٤٢) شرح الشافية للخضر اليزدي، ١/ ٤٩٧.

(٤٣) السابق، ١/ ٥٠١-٥٠٣.

(٤٤) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية للدكتور الحاج صالح، ٢/ ١٨٠، ١٩٥.

ويلخّص سيبويه ما يتّصل بلفظ الحرف الواحد ابتداءً نقلاً عن شيخه الخليل الذي قرّر أنّه لا يُلفَظُ بحرف، فإن كان متحرّكاً ألحقْتَ به ألفاً أو هاءً، فتقول: (كَهْ و بَهْ أو كا و با)، فهذه طريقة كلّ حرفٍ كان متحرّكاً وأُريد نطقُهُ منفرداً. فإن وصلتَ قُلْتَ: (كَ و بَ فاعلَم يا فتى، كما قالوا: ع يا فتى). أمّا التّلفّظ بالحرف السّاكن منفرداً فلا يمكن إلّا إذا أُتِيَ بالألف موصولة، فقلت: (اِبْ و اِدْ و اِيْ)، وهذا شأنُ النُّطقِ بالسّاكن في أوّل الكلمة، إذ لا تصلُ إلى اللّفظ به إلّا بعد هذه الألف، نحو (اِضْرب و اِسْم، و اِبْن)[٤٥]. أمّا في الدَّرْجِ فلا بُدّ من أن يكون المتحرّك متلوّاً بمتحرّك مثلِهِ أو بساكن، فيحدثُ الوصلُ الذي هو الأساس الذي يُحْتَكَمُ إليه في التّشكيل الصّوتي.

أمّا الوقفُ فهو قطعٌ وسكوتٌ على آخر الكلمة، ويكون بالإسكان المجرّد، أي بالإسكان المحض بلا رَوْمٍ ولا إشمام ولا تضعيف، وهو الأكثر في كلامهم. والكلمةُ في الوقف أخفُّ منها في الوصل، لأنّ الوقف للاستراحة، ومحلّ التّخفيف الأواخر. ولأنّ الوقف يكون على الحرف الأخير، أي لام الكلمة، اهتمّوا به، لأنه آخر حروف الأصل. أمّا عين الكلمة فأقلُّ تأثّراً بما يحدُثُ من تغيير في الكلمة، وكان لذلك إعلالُ الآخِرِ أولى، بل ذهبوا إلى أنَّ لام الكلمة هي (محلّ) التّغيير لتأخّرها وضعفها. ولأنّ الطّرف أو لام الكلمة مورد للحركات اعتدّ عريقاً في الحركة. وقد تقدّم في هذا البحث أنّ الوقف يعطي الحرف الموقوف عليه صفاتِهِ الجَرْسيّة تامّةً لعدم إدراجه إلى ما بعده، ولذلك صار بما توفّر له من النّفخ أو القلقلة كأنّه محرّك، وهو في ميزان العَروض ساكن. وإذا استثنينا حالة الوقف بالتّضعيف، لأنّها أقلّ استعمالاً وأكثر كلفةً في النّطق، فإنّ حالة نقل الحركة

(٤٥) الكتاب لسيبويه، ٣/ ٣٢٠-٣٢١.

إلى ما سبقها إن كان ساكناً تبدو مسوّغة، لأنّها تؤدّي إلى الفرار من السّاكنَين، وتحفظ الحركة الإعرابيّة التي يُضَنُّ بها غالباً[٤٦]. ورأى بعضُ النّحاة أنّ الوقف على المتحرّك ممكنٌ لكنّه مستثقل[٤٧]. وتؤكّد الدّراسات الحديثة أنَّ السّاكن في كلّ اللّغات لا يُبتدأ به، ولا بُدّ من حرف متحرّكٍ يأتي قبله، كما أنّ الوقف لا يقع إلّا عليه، لأنّ الوقف انقطاع الكلام. ويُمكن أن تدرس جميع الظّواهر الصّوتيّة باللّجوء إليهما[٤٨]. ويذكر في هذا الصّدد أنّ الباحثين المختصّين بالصّوتيّات التّجريبيّة اختبروا السّاكن والمتحرّك وما يبدو من حالات التقاء السّاكنَيْنِ حشواً، وانتهَوْا إلى أنّ مفهوم المتحرّك والسّاكن الذي انطلق منه التّحليل التّشكيليّ للّغة العربيّة صار واضحاً لديهم. على أنّ أساس ذلك مستقًى من محاضرات اللّسانيّ (دوسوسير) الذي لاحَظَ أنّ هناك نوعَين من النّطق، هما المنغلق، والمنفتح؛ ويقابلان السّاكن، أي الصّحيح الذي لا تتلوه حركة، والمتحرّك الذي يتشكّل من ساكن مع حركة. وحاوَلَ (دوسوسير) - كما يقول الدكتور الحاجّ صالح - أن يفسّر أيضاً تعاقُبَ الحروف في مدرج الكلام بناءً على ما تقدّم[٤٩].

---

(٤٦) الخصائص ١/ ٨٤، والممتع لابن عصفور، ١/ ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٤، ٢/ ٤٤٨، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٩٨، ٥٤٢-٥٤٣، ٥٤٦-٥٤٧، وإيجاز التّعريف لابن مالك، ص ٦٤، ٧٢، ٨٧، ٨٩، ١٣١، ١٣٦، وشرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢٢٩-٢٣٠، ٢٧١-٢٧٤، ٣١١، ٣١٥، ٣٢١، ٣/ ٦٨، ١٦٨، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٢، وهناك مواضع كثيرة جدّاً ذُكِرَ فيها أنّ الطرف هو محلّ التّغيير. وانظر: شرح الشافية للخضر اليزدي، ١/ ٥١٣، ٢/ ٧٨٥، ٧٩٢، ٨٣٥-٨٣٧، ٨٥٩، ٩٠٠، ٩٠٢-٩٠٥، ٩٣١.

(٤٧) شرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢٥١، وشرح الشافية للخضر اليزدي، ١/ ٥٣٨.

(٤٨) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية للحاجّ صالح، ٢/ ١٨٨، ١٩٨، وانظر للتّوسّع في موضوع الوقف كتاب الوقف في العربيّة في ضوء اللّسانيّات، للدكتور عبد البديع النيرباني.

(٤٩) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية للحاجّ صالح، ٢/ ١٩٢، ١٩٣، وقارن بمحاضرات في الألسنيّة العامّة لدوسوسير، ص ٧١-٧٨.

وقد يتسبّب الوقف بالتقاءِ للسّاكنَين إذا كان ما قبل الآخِر ساكناً صحيحاً، ولكنْ لا عبرةَ بهذا الالتقاء، لأنّ حالة الوقف طارئة. وقد وقفنا على أمثلةٍ من هذا النّحو ورأينا أنّ هناك طرقاً تؤدّي إلى التّخفيف من هذه الحالة خاصّة. أمّا التقاء السّاكنَين بين كلمتَين فالتّخلّص منه أسهل، ويكون باجتلاب حركةٍ يغلب أن تكون الكسرة، وقد تكون غيرها. وهذا التّخلّص يفضي إلى إدراج الأنساق ووصل الكلمات بعضِها ببعض. وقد يكون الإبدالُ طريقاً إلى التّخلّص من التقاء السّاكنَين، نحو (شأَبّة) و(ولا الضّأَلّين). وقد وصفه الخضر اليزدي (كان حيّاً سنة ٧٢٠هـ) بأنّه مبالغةٌ في الهرب من السّاكنين(٥٠). وقد تفضي حالات الالتقاء بين كلمتين إلى حذف السّاكن الأوّل، وهو حرف مدٍّ لفظاً، وإبقائه خطّاً، نحو (خافا الله)، و(خافوا الله)، و(خافي الله)(٥١). وهذا ما يحقّق الإدراج تماماً. وقد يلتقي الساكنان حشواً، أي من غير أن يكون الثّاني موقوفاً عليه. من ذلك امتناع التقاء الواوَين والتقاء الألفَين، فلا بُدّ من النّقل والحذف، أو القلب وحده. وإذا تقدّمت الألف على الواو فالتقاؤهما جائز؛ لأنّ مدّ الألف يهوّن من ذلك. ويلاحظ ابن جنّي أنّ العرب قد تتخطّى ما هو سائغ عزوفاً عنه وتحامياً لتجشّم الكلفة فيه، ونحو ذلك ممّا يوجِبُهُ القياس(٥٢). ويطول بنا المقام جدّاً لو

(٥٠) شرح الشافية للخضر اليزدي، ١/ ٤٩٥، ويشار هنا إلى أنّ قلب الألف همزة أريد به البيان، لأنّ الألف خفيفة -كما يقول الخضر اليزدي- والهمزة قريبة من الألف فقُلبت الألف إيّاها. وقال سيبويه: هو لقرب الألف من الهمزة، وقد سمعناهم يقولون: هو يضربهأ، فيَهْمِزُ كلّ ألفٍ في الوقف. وعن الخليل: هذه حبلأ ورأيتُ حبلأ. انظر: اليزدي، ١/ ٥٢٧. ونسب ابنُ جنّي في (المحتسب) قراءة «ولا الضّألين» إلى أيّوب السّختياني الذي قال: إنَّ هذه الهمزة بدلٌ من المدّة لالتقاء السّاكنَين. انظر: المحتسب، ١/ ٤٦.

(٥١) شرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢١٣.

(٥٢) الخصائص ٢/ ٤٩٣-٤٩٧.

أنّنا تتبّعنا الحالات التي لاحظها القدامى من هذا النّحو، لكنّ ما يُستخلص من ذلك عامّة هو النّفور من الثّقل وتحقيق الوصل، لأنّ مدار الكلام عليه، سواء أكان ذلك باجتلاب الحركة أم بالحذف أو النقل أو الإبدال أو المطل أو الإشمام باحتساب حركةٍ مختلسة. فلا بدّ إذَن من التّحريك الذي تولّده السّجيّة، كما قال الأستراباذي(٥٣)؛ أو المَيْل لِما في الحرف الموقوفِ عليه من روائح الحركة كالنّفخ والقلقلة.

لكنّ أهمّ شيءٍ من هذا النحو هو أنّ النّحاة القدامى أقرّوا بأنّ المدّ في حرف المدّ قائم مقام الحركة، ويدلّ هذا على الفرق بين السّاكن الصحيح، والسّاكن المعتلّ، أي حرف المدّ. ولذلك عُدّ المدّ كالمتحرّك في جواز الإدغام إذا تقدّم المِثل الأول، نحو (إنَّ المال لك، ويظلموني)، وكذلك إذا كان الحرف حرف لِين، نحو (ثَوب بكر، وجيب بشير). وإنَّما جاز هذا الاجتماع لِما في السّاكن الأوّل من استمرار الصّوت -كما يقول الخضر اليزدي- وحصول الخفّة في الإدغام؛ لأنّ اللّسان يندفع بالمثلَين في الإدغام دفعة واحدة(٥٤)، أو لِما في الحرف المشدّد من التّشبُّث بالحركة(٥٥). وكذلك سوّى القدامى بين إدغام المتحرّك وإدغام الممدود خاصّة، إذ لا بُدَّ من زوال الحركة أو المدّ توصُّلاً إلى إدغام المتّصل، فلا يجوز الإدغام في نحو (يُعطي ياسر، ويغزو واقد)، لأنّ المدّ الذي في حرف المدّ قائمٌ مقام الحركة. ومن هذا النّحو أيضاً جاز التقاء السّاكنَينِ إذا كان أوّلهُما ممدوداً باطّراد في نحو (دابّة)، وبغير

(٥٣) شرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢١٠-٢١١. وهناك مسائل كثيرة من هذا النّحو تُطلب من كتب الصّرف ولا سيّما من شروح الشّافية.

(٥٤) شرح الشافية للخضر اليزدي، ١/ ٤٧٢، ٢/ ٨٤٢ الحاشية رقم (٣).

(٥٥) الممتع لابن عصفور، ٢/ ٦٥١.

اطّرادٍ في نحو (اِلْتَقَتْ حَلَقَتا الْبِطان)، و(اِضْرِبْنانْ زيداً)[٥٦]. فالسّاكن الثّاني المُدرَجُ إلى المتحرّك في الإدغام له حكم المتحرّك لشدّة التصاقه به، فإنّ اللّسان يرتفع بالمدغم والمدغم فيه ارتفاعةً واحدة، فيصيران كأنّهما حرفٌ واحد[٥٧]. وللمدغم من الحروف أهمّيّة لدى النّحاة، لأنّه تغييرٌ لحالة التّضعيف (أو التّكرير) المستثقلة لكثرة مواقع اجتماع المثلَين، ولأن الحاجة تدعو إليه في جميع الحروف إلّا الألف، ولأنّ التّغيير اللّازم مع الإدغام أقلّ من التّغيير اللّازم مع الإعلال؛ إذ لا يعرض للمدغم ما يُوجب حذفه، بل إنّه يقوّي ما يدخل فيه وإن كان معتلًّا[٥٨]. فالتّغيير المطلوب للتّخلّص من هذه الحالة هو إشباع مدّ الألف، لأنّ إشباع مدّها يصير كالحركة فيها، أمّا المدغم فلا يعتريه أيّ تغيير. ويشبه ذلك ما كان السّاكن الثّاني فيه نوناً، فالنّون -كما يقول ابن جنّي- حرفٌ خفيّ، فجَرَتْ لذلك نحواً من الحرف المدغم، مثلها مثل الياء المتحرّكة بعد الألف، فتحتاج إلى فضل اعتمادٍ وإبانة. وكذلك الشّأن في قولهم: (التَقَتْ حَلَقَتا الْبِطان)، بإثبات الألف ساكنةً في اللّفظ قبل اللام، وكأنّ ذلك إنّما جاز لمضارعة اللّام النّون، ألا ترى أنّ في مقطع اللّام غنّة كالنّون، وهي أيضاً تقترب من الياء حتّى يجعلها بعضُهم في اللّفظ ياء، فحُملت اللّام في هذا على النون[٥٩].

---

(٥٦) إيجاز التّعريف بعلم التصريف لابن مالك، ص ١٧٤. وقولهم: (اِلْتَقَتْ حَلَقَتا الْبِطان) مَثَلٌ يُضرَبُ للأمر إذا اشتدّ وبلغ غايته. والبِطان: الحزامُ الذي يكون تحت بطن البعير، وفيه حلقتان، متى الْتقتا فقد بلغ الشّدّ غايته. انظر: شرح الشّافية للخضر اليزدي، ١/ ٤٧٥.

(٥٧) شرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢١٢.

(٥٨) الممتع لابن عصفور، ٢/ ٦٥٠، وإيجاز التّعريف بعلم التصريف لابن مالك، ص ١٨٣-١٨٤، وشرح الشّافية للأستراباذي، ٣/ ١٤٣، ١٩٢.

(٥٩) الخصائص ١/ ٩٢-٩٣.

وللنّون خاصّة من القرب والمشابهة والمضارعة لحروف اللِّين ما قد شاع وذاع – كما يقول ابن جنّي – فالنون حرفٌ من حروف الزّيادة أغن، فأُلحِقَ بالحروف اللّيّنة الزّائدة، وحُملت النّون على الواو والألف في أمثلةٍ كثيرة. وإنّما يقوى شبهها بها إذا كانت غنّاء، وإنّما تكون كذلك إذا وقعت قبل حروف الفم. فإذا وقع بعدها حرفٌ حلقيٌّ سقطت غنّتها، وإذا سقطت غنّتها زال شبهُها بحرفَيِ المدّ: الواو والألف، وكذلك إن كانت مدغمة، لأنّ إدغامها يخرجها من مشابهة الألف، إذ تصير إلى لفظ المتحرّكة بعدها في الإدغام[٦٠]. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الحروف المتوسّطة (ل، ن، ر، م) تتّصف بصفاتٍ خاصّةٍ تجعلها سهلة النّطق، لأنّ درجات الانفتاح الفمويّ معها واسعة، فيجري فيها الهواء على نحو حروف المدّ. وقد سبق للخليل أن أشار إلى عددٍ من هذه الحروف وغيرِها، ودعاها بحروف الذّلاقة (ل، ن، ر، ف، ب، م)، ولاحظ سهولة نطقها وذلاقتها وكثرتها في الأبنية، ممّا أثبتته الدّراسات الحاسوبيّة الحديثة[٦١]. وكذلك يشار إلى أنّ الفارابي ذكر بعض هذه الحروف وعزا لها امتداداً، فاللام تمتدّ وإن لم يسلك الهواء في مقعّر الأنف، والميم والنّون لا يمتدّان إلّا أن يسلك الهواء في الأنف، وهما أغنّان. ويقول: إنّ هذه الحروف الثّلاثة الممتدّة لا يَعرى منها لسانٌ أصلاً[٦٢].

ويُفضي هذا الاستخلاص المطوّل إلى أمرَين، أوّلهما أنّه لا بُدَّ من الإتيان بحركةٍ تتقدّم السّاكن الواقع أوّلاً، أيّاً كانت هذه الحركة، وبدونها يغدو النّطق أشبَهَ بالمستحيل. وثانيهما أنّ التقاء السّاكنَين الصّحيحَين لا

(٦٠) السابق، ١/ ٣٦٣-٣٦٥.

(٦١) مبادئ اللّسانيّات، ص ١٢٨-١٣٠.

(٦٢) بحوث في علم أصوات العربيّة وتشكيلها، ص ٩٩.

يستقيم إلّا بوجود أثارةٍ من الحركة المجاورة، سواء أحسَّ بها النّاطق والسّامع أم لا. وتشبه هذه الحالة ما ندعوه باختلاس الحركة، أي تقصيرها وإخفائها وهي موجودة على ضعفِها ونقصها. ويبدو أن وجود الحروف الممتدّة في دَرْجِ الكلام يساعد على إخراج الحروف وإن خلت من الحركة لاتّساع مجرى الهواء معها، وهذا ما لاحظه الدّكتور عبد الرحمن الحاجّ صالح من خلال تحليله للتّجارب المخبريّة الحديثة. أمّا وجود النّون السّاكنة خاصّة فيُغني عن الحركة لِما فيها من تيّار الهواء، وإن لم يكن مجهوراً كحروف المدّ(٦٣). ويؤكّد هذا أنّ ما أسفرت عنه التجارب الحديثة لا يؤيّد مبادئ التّشكيل الصّوتي التي أذاعتها اللّسانيّات معتمدةً على الإرث اليونانيّ، بل يكاد يثبت تماماً ما وصفه أجدادنا في هذا المجال، وما استخلصوه من خصائص كلام العرب. ويتّفق هذا مع استنباطهم للعَروض بوصفه القوالب النّغميّة للشّعر انطلاقاً من مفهوم المتحرّك والسّاكن. على أنّ كثيراً ممّا ذهب إليه قدامى النّحاة ما يزال محتاجاً إلى جمعٍ ودراسةٍ وتحليلٍ يُستعان له بما جدّ من تقانة اللّغة في هذا العصر من غير إهدارٍ لقيم الأصالة التي تمتاز بها علوم اللّغة عندنا، أو تشكيكٍ بأهمّيّتها وحاجتنا إليها في حياتنا العلميّة والتّعليميّة المتجدّدة.

* * *

(٦٣) بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربية، ٢/ ١٨٩-١٩٨. والكلام على تحليل اللّغات الأجنبيّة التي تبيّن أنّ النّون فيها تساعد على الإدراج، وتقوم مقام الحركة.

المصادر والمراجع

- الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. رابعة، ١٩٧١م (ط. أولى ١٩٤٧م).
- إيجاز التّعريف في علم التّصريف لابن مالك، تحقيق حسن أحمد العثمان، المكتبة المكّيّة ومؤسّسة الرّيّان، مكّة المكرّمة وبيروت، ط. أولى ٢٠٠٤م.
- الإيضاح في علل النّحو للزّجّاجي، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط. رابعة ١٩٨٢م.
- بحوث في علم أصوات العربية وتشكيلها لأحمد محمّد قدّور، دار نينوى، دمشق، ط. أولى ٢٠١٧م.
- بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية لعبد الرحمن الحاج صالح، المجمع الجزائري للّغة العربيّة، الجزائر ٢٠٠٧م.
- «التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن جنّي، لهنري فليش»، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المجلد (٢٣)، لعام ١٩٦٨م.
- تهذيب اللغة للأزهري، الجزء الأوّل، حقّقه وقدّم له عبد السلام محمّد هارون، راجعه محمّد علي النّجّار، الدار القوميّة للطّباعة (القاهرة) ١٩٦٤م.
- الخصائص لابن جنّي، تحقيق: محمّد علي النّجّار، دار الهدى، بيروت، ط. ثانية، د. ت.

- الدراسات الصوتية عند علماء التّجويد لغانم قدّوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدّينية، بغداد ١٩٨٦م.
- دراسات في علم اللغة، لكمال بشر، دار غريب بالقاهرة، ١٩٩٨م.
- دروس في علم أصوات العربية لجان كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسيّة ١٩٦٦م.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكّيّ بن أبي طالب القيسي، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار المعارف، دمشق، ط. أولى ١٩٧٣م.
- سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط. أولى ١٩٨٥م.
- شرح شافية ابن الحاجب للأستراباذي (رضيّ الدّين المتوفّى عام ٦٨٨ للهجرة) مع شرح شواهده لعبد القادر البغدادي (المتوفّى عام ١٠٩٣ للهجرة)، تحقيق محمد نور الحسن ومحمّد الزّفزاف ومحمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦-١٣٥٨هـ.
- شرح شافية ابن الحاجب في علمي التصريف والخطّ للخضر اليزدي (أتمّه سنة ٧٢٠ للهجرة)، دراسة وتحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسّسة الرّيّان، بيروت، ط. أولى ٢٠٠٨م.
- الكتاب لسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، د. ت.
- كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرّائي، دار الهجرة، قم، إيران، ١٤٠٥هـ.
- اللغة العربية معناها ومبناها لتمّام حسّان، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط. أولى ١٩٧٣م وط. ثانية ١٩٧٩م.

- مبادئ اللسانيّات لأحمد محمّد قدّور، دار الفكر، دمشق، ط. أولى ١٩٩٦م.
- المحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها لابن جنّي، تحقيق: علي النَّجدي ناصف وعبد الحليم النجّار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، القاهرة، ١٩٩٤م.
- الممتع في التّصريف لابن عصفور، تحقيق فخر الدّين قباوة، المكتبة العربية، حلب، ط. أولى ١٩٧٠م.
- المنصف شرح تصريف المازني لأبي الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، وزارة المعارف، القاهرة، ط. أولى ١٩٥٤م.
- الوقف في العربيّة في ضوء اللّسانيّات لعبد البديع النيرباني، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط. أولى ٢٠٠٨م.

* * *

الترجمة وواقع المصطلح اللساني العربي

أ. د. لبانة مشوّح(*)

الملخص:

يسبر البحث المعاجم اللغوية الحديثة والنصوص اللسانية على اختلاف موضوعاتها ومذاهبها، ويحلّل واقع المصطلح اللساني العربي وأساليب وضعه، ويبيّن سماته الأساسية وما يعانيه من إبهام وتعددية ولبس دلالي يتنافى والوظيفة التواصلية الأساسية التي ترتهن بها اللغة؛ ويعزو ذلك إلى التسرّع والاستسهال، والقصور المعرفي، والارتباك المفهومي، مبيّناً أوجه ذلك بالأمثلة المادية. ويتناول البحث إشكالية تعدّدية المفاهيم اللسانية واختلافها، في مقابل أحادية المصطلح المقترض من التراث وما ينتج عن ذلك من إرباك معرفي.

المقدمة:

لا مِراء في أهمية دور الترجمة، ماضياً وحاضراً، في عملية نقل المعارف وتوطينها وتطويرها في شتى حقول المعرفة، بل إن هذا أمر بات من المسلمات. وما يصحّ على العلوم عامة يصحّ على علوم اللغة الحديثة عامة وعلى اللسانيات خاصة. هذا بحث اعتمدنا فيه المنهج الوصفي التحليلي في

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ أيلول/ ٢٠١٨م.

دراسة واقع المصطلح اللساني العربي، ورصد المشكلات التي يعانيها، وأسبابها، والتحديات التي يواجهها واضع المصطلح باحثاً كان أم مترجماً، وما يقتضيه وضع المصطلح اللساني من سعة المعارف ووضوح المفاهيم ودقة الصنعة اللغوية، درءاً للّبس وتطويراً للبحث اللساني العربي عموماً.

تعريب اللسانيات: واقع وتحديات

اللسانيات – وعلوم اللغة عموماً – بشقيها النظري والتطبيقي ميدان معرفي كوني لا مناص للقارئ العربي الراغب بالاطلاع على مستجدّاته والإحاطة بجوانبه، وللباحث الملزم بالتعمق في دقائقه والغوص في بحور نظرياته، من أن يواجه في سبيل ذلك عوائق عدة من أهمّها العائق اللغوي؛ فعدم إتقان الباحث اللغةَ المصدر يجعله يلجأ حيناً إلى المراجع المترجمة أو البحوث المؤلفة بالعربية يستنبط ما فيها من نظريات حديثة ومفاهيم مُحدثة، كما يلزمه بالاستعانة أحياناً بالمعاجم يستنجد بما تجود عليه من مقابلات، ويستنطقها شروحاً يستعين بها سبيلاً للفهم والاستزادة المعرفية. وفي كلتا الحالتين، تبرز أهمية الترجمة لإغناء العربية بمقابلات للمصطلحات التي أفرزها هذا العلم.

ولقد تسارَع تطوّر علوم اللغة الحديثة تسارعاً كبيراً منذ نحو منتصف القرن الماضي، الأمر الذي انعكس فيضاً دافقاً من المصطلحات الحاملة لمفاهيم وافدة في شتى علوم اللغة الحديثة كالصوتيات (phonétique)، وعلم وظائف الأصوات أو الصوتمية (phonologie)، وعلوم النحو (syntaxe) والصرف (morphologie) والدلالة (sémantique)، وعلم العلامات (السيميائية) (sémiologie)، وسائر العلوم التطبيقية ذات الصلة مثل اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الآلية والبرمجة اللغوية، وطرائق التعليم، وتعليم اللغة لغير الناطقين بها، واللسانيات الإناسية (الأنثروبولوجية)، وعيوب

النطـق، وعلـم المعـاجم، والمعجميـة الإحصـائية، والمعجميـة المعلوماتيـة، والترجمية، وغيرها من الفروع المعرفية التطبيقية التي تستند إلى النتـائج النظريـة لمختلف فروع اللسانيات العامة البحتة. هذا التفرّع فـي الاختصاصـات والغنـى في النظريات وطرائق تطبيقها ومجالات الاستفادة العمليـة منهـا شـكّل تحـدياً كبيراً للساني أو المترجم في إيجـاد المقـابلات العربيـة، محتّمـاً عليـه التصـدي لهذا الدفق الهائل والمربك من المصطلحات وما تختزله من مفاهيم.

وأول التحديات الإحاطـة بدلالـة - أو بـدلالات- المصـطلح الأصـل، ومن ثم وضع المعادل اللساني العربي له المتوافق مع معادله التصوري، بمـا يتيح للدارسين والباحثين استيعاب هذا الفيض المعرفي وتمثّل مفاهيمه التي لا تخلو من تعقيد أحياناً، ومن ثمّ مواكبة تطور هـذا العلـم الـذي يعـدّ بحـق أساس العلوم الإنسانية وبوصلتها، لكون اللغة وعاء الفكر ومرآته.

ولكن هل كان التوفيق دائماً حليف المترجم؟ وهل المقـابلات المصـطلحية العربية هي الأنسب مصطلحياً للمفهوم المراد التعبير عنه؟ وهل تـذلّل صـعوبات إدراك ماهية المصطلحات الأصل وتيسّر للقـارئ فهـم مراميهـا؟ وإلـى أي مـدى يمكن الركون إلى أن الدرس اللساني العربي دقيق في مبناه ومعناه؟

لا يخفى على الباحث المختص حقيقة أن الأدبيات اللسـانية المترجمـة قصّرَت أحياناً في شقيها المصطلحي والأسلوبي قصوراً كبيراً عن إشباع نهم القارئ المعرفـي، لافتقارهـا إلـى وضـوح العبـارة ودقـة المصـطلح والرمـز العلمي الموحّد، وهو ما عانت منه اللغة العربية العلمية عموماً[1].

إن دراسـة خصـائص اللغـة العربيـة العلميـة التـي تتميّـز بهـا الأدبيـات

(١) ممدوح خسارة، التنمية اللغوية طريق إلى المعاصرة، ص ٣٤، منشـورات الهيئـة العامـة السورية للكتاب- وزارة الثقافة، ٢٠١٧.

اللسانية موضوع واسع ومتشعب يتجاوز الحدود المرسومة لهذا البحث الذي آثرنا أن يكون منهجه وصفياً وأن نركّز فيه على واقع المصطلح اللساني العربي في المعاجم والنصوص، وهو واقع بات يشكل عائقاً معرفياً، إذ يقف حجر عثرة أمام دقة البحث اللساني العربي وعمقه وتطوره.

مشكلات المصطلح اللساني:

لا شك في أن أكثر العوامل المحفّزة على الترجمة الحاجةُ العملية لنص عربي يُستغنَى به عن النص الأجنبي إمّا لتعذُّره لدى من لا يتقن لغة النص الأصل، أو لأسباب أخرى تتصل بصعوبة الحصول على النص الأصل، أو بالرغبة في تطوير الدرس اللساني العربي وتوطين المعرفة العلمية اللسانية العربية. لكن الملاحَظ عزوفُ الكثيرين عن قراءة الترجمات العربية، واستصعاب الباحثين منهم فك طلاسم النص اللساني العربي، فتراهم يهجرونه إلى النص الأصل ضماناً لدقة المعلومة ووضوح الأفكار والمفاهيم.

يمكننا في هذا السياق حصر المشكلات التي يعاني منها المصطلح اللساني العربي في النقاط الأساسية التالية:

١- الإبهام.

٢- التعددية.

٣- اللَّبْس الدلالي.

أولاً- الإبهام:

لا تختلف أساليب وضع المصطلح اللساني العربي عن تلك المتّبعة في وضع سائر المصطلحات العلمية في شتى حقول المعرفة؛ فقد لجأ واضعو المصطلح اللساني، باحثون ومترجمون، إلى التوليد والاشتقاق حيناً، وإلى اعتماد منهج التعريب والاقتراض والنحت الإلصاقي أحياناً،

وهو منهج كفيل بإغلاق النص وجعل المفاهيم تستبهم على المتلقي.

وتحتوي المعاجم اللسانية الكثير من المصطلحات المترجمة بالاقتراض التي يحتفظ المصطلح فيها بصيغتيه الصوتية والصرفية في اللغة الأصل. وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك، وهي لا تشكّل إلا غيضاً من فيض المصطلحات اللسانية الدّخيلة التي تعج بها المعاجم والبحوث:

أكوستيكية، وأنافورا، وبَراديجم، وجرافيم، وديجلوسيا، وسيمانتيكا، وسميولوجيا، وسيماسيولوجيا، وأونوماسيولوجيا، وسيم، وسيميائية، وسيبرنتيك، وسينتاجم، وفونيم، وفونيمة، وفونوتيكا، ومورفيم، ومورفولوجيا، وهومونيمي، إلخ....

يرى البعض في هذا الاقتراض المعرَّب تكييفاً وتطويعاً وتسهيلاً وتوسعاً في اللغة الهدف. لكننا نرى فيه تسرّعاً واستسهالاً لا يجوز اللجوء إليه إلا إذا تعذّر إيجاد المقابل العربي؛ فالتعريب اللفظي يولّد إبهاماً لا محالة، وينتج إفقاراً لغوياً وضياعاً معرفياً.

إن اللجوء إلى الاقتراض بنوعيه التعريب والتدخيل جعل النصوص اللسانية العربية تعجّ بمصطلحات أعجمية صيغت بلا شك على منهج العربية وبما يتلاءم وأنظمتها الصوتية والصرفية، لكن هذا لم يخفف من وطأة غربتها على الفكر العربي، وزاد من عناء المتلقي في فهم أبعادها الدلالية الدقيقة. وهي وإن لم تكن ثقيلة على الأسماع، حتماً عصية على الأفهام، خاصة أن أغلب المعاجم التخصصية تفتقر إلى تعريف دقيق وافٍ لتلك المصطلحات. فلا شيء يدل في لفظ (أَلّوفون allophone) على أنه الصورة الصوتية التي تظهر بها وحدة صوتية في كلمة ما، وتختلف عن صورتها الصوتية في كلمة أخرى، كالباء التي تلفظ مفخّمة في (مرابط)

ومخفّفة في (زبيب)؛ كما لا يدل شيء في مصطلح (جرافيم graphème) على أنه أصغر وحدة مميّزة في نظام الكتابة لأية لغة. ولفظة (ديجلوسيا diglossie)، وإن وافقت النظام اللفظي للعربية، لا تشفّ عن دلالة الازدواجية اللغوية، إلا في ذهن العارف باللغة الأصل. وهل يمكن للقارئ الدارس أن يتكهّن أن (سيماسيولوجيا) هي فرع من فروع علم الدلالة، يُعنى بمعنى الكلمة انطلاقاً من العلامة اللغوية أو من الشكل وانتهاءً بالمفهوم[٢]؛ وأنَّ (الأونوماسيولوجيا) علم يسلك مساراً معاكساً، فيدرس دلالة الكلمة بدءاً من المفهوم وانتهاءً بالعلامة اللغوية[٣][٤]. ولعلّ من الأيسر لطالب العلم أن نكتفي بمقابلات من قبيل علم دلالة العلامة، وعلم دلالة المفهوم، بديلاً عن ذينك المصطلحين الهجينين وغربتهما اللغوية.

وهل يشفّ مصطلح (سانتيم synthème) الذي أوجده اللساني أندريه مارتيني عن دلالته على مقطع مؤلف من عدة وحدات صرفية، ويشكّل وحدة تركيبية صغرى قابلة للتحليل إلى وحدتين دلاليتين أو أكثر، من مثل: (استقواء) و(مسيحي) و(كتابان)، إلخ...؟ وما الذي يدلّ في مصطلح (سَونَم) cénème على أنه أصغر وحدة صوتية مميّزة[٥]؟

ونورد فيما يلي مثالاً على الإغراق في الإبهام اقتطفناه من أحد المعاجم اللسانية:

---

(٢) وهو المنهج المتّبع في المعاجم العربية اللغوية.

(٣) وهو المنهج المتبع في المعاجم الدلالية.

(٤) هذا التضاد في المنهج فرضه لسانيون ألمان من أمثال دومسيف Domseiff، وكارل يوسلير Karl Yossler، ثم ليو ويسغربر Leo Weisgerber.

(٥) مصطلح استعمله اللساني يمسليف بديلاً عن الفونيم لدى سواه من اللسانيين.

(**Morphophonemics الدراسة المورفوفونيمية**): «يعني المصطلح دراسة التركيب الفونيمي للوحدات الصرفية أو المورفيمية ويتضمّن ذلك الإضافات أو التغيُّرات الصوتية المختلفة في صيغة المورفيمات»(٦).

وللقارئ أن يفاضل بين هذا المقابل المعرّب وتلك الصيغة المثقلة بالاقتراض، والمقابل المصطلحي والصيغة العربية الصرفة البديلة التي نقترحها:

الدراسة الصرفية الصوتية: هي دراسة التركيب الصوتي والتغيرات والإضافات الصوتية للوحدات الصرفية.

وإنَّ **الإكثار من اللجوء إلى النحت** أو التركيب المزجي يزيد أيضاً من صعوبة إيصال المفهوم إلى الأذهان. والأمثلة غير قليلة على المصطلحات اللسانية المنحوتة مثل (الصوتم) مقابلاً لمصطلح (phonème)، وهو مصطلح نشأ عن المزاوجة ما بين الترجمة والتعريب اللفظي في كلمة واحدة؛ فهو في آن واحد ترجمة غير دقيقة للمصطلح الأجنبي (phonème) وتعريب له، وقد اشتُقَّ منه (صوتمي phonologique) و(صوتمية phonologie). وكذلك مصطلح(السَلْكمْ behaviourisme)، المنحوت بالمزاوجة بين (السلوك) – وهو ترجمة (behaviour) – والتعريب بإضافة الميم. والأمر نفسه ينطبق على مصطلح (مِتالغوي métalangue)، الناتج عن تركيب مزجي غير أصولي؛ لأن نصفه الأول أعجمي ونصفه الثاني عربي، فضلاً عن أنه مبهم للقارئ العربي، وليس هناك ما يبرّر للباحث استعماله لوجود عدد من المقابلات العربية له في بطون المعاجم مثل: (لغة انعكاسية)(٧) و(لغة واصفة) و(لغة تقعيدية)(٨).

(٦) سامي عيّاد حنّا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى ١٩٩٧.

(٧) عبد السلام المسدّي، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤.

(٨) رمزي منير البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، ١٩٩٠.

عندما نقع على عبارات مثل العوامل الخالسانية facteurs métalinguistiques نقف عاجزين للوهلة الأولى عن إدراك معناها، ثم ندرك لاحقاً أن صفة (خالسانية) نحِتت من مصطلحين: (خارج) و(لسانية).

وأسلوب النحت، وإن كان جائزاً في العربية، غير محبّذ من اللغويين الذين ينصحون بعدم التوسّع في استعماله كيلا يؤدي إلى إفقار اللغة وحرمانها من أهم عوامل تنمية مخزونها اللفظي وعصرنته بما لا يخرج عن ثوابت أنظمتها الصوتية والصرفية، ولا يخالف أصولها وضوابطها. فضلاً عن أن مصطلحات من نحو (خالساني) و(صوتمي) و(سلكمي) و(سونمي) هي رموز غامضة وملبسة إلى حد إغراق اللغة في إبهام منفِّر.

لا شك في أن اللغة العربية اغتنت بآلاف المصطلحات اللسانية التي وضعت اشتقاقاً وتوليداً أو تعريباً أو نحتاً، لكن الترجمة المتسرّعة والفهم القاصر لمدلولات العديد من تلك المصطلحات في سياقاتها النظرية والتطبيقية الدقيقة من شأنه أن يبتعد بالرمز العلمي عن الدقة وبالمصطلح عن الأحادية، ويحرم لغتنا العلمية الحديثة من الإفادة من مخزوننا اللغوي العلمي التراثي.

يتّضح مما سبق خطر اللجوء إلى التعريب اللفظي والنحت في وضع المصطلحات اللسانية العربية، وهو ممّا يغلق النص على الأفهام، ويغرق القارئ الباحث في بحر متلاطم الأمواج من المصطلحات والعبارات والتراكيب، يجاهد في فك طلاسمها، فيفلح حيناً ويخفق أحياناً، ليخرج منهكاً، مثبط العزيمة، قليل الزاد، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يهجر النصوص العلمية العربية إلى المباحث الأجنبية بحجة إبهام اللغة العلمية العربية وافتقارها إلى الدقة[٩].

(٩) ممدوح خسارة، اللغة العربية بين التشدد والتيسير، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ٢٠١٨.

ثانياً- التعددية المصطلحية:

تتعدّد المقابلات العربية لكثير من المصطلحات اللسانية الحديثة إلى درجة الإرباك، وتكاد أن تلامس أحياناً حدود الفوضى التي تؤدي بلا مِراء إلى إرباك معرفي، وتعدّ من أهم عقبات تطور البحوث اللسانية العربية. ويكفينا مثالاً صارخاً على هذا الارتباك المصطلحي أن «معجم المصطلحات اللغوية» الصادر عن دار العلم للملايين أورد ستة مقابلات للمصطلح الإنجليزي (phonology)، رصدها كلها في الأدبيات اللسانية، اثنان منها اعتمدتهما مجامع اللغة العربية: علم وظائف الأصوات، فونولوجيا (مج)، صِواتة، صوْتميّة، علم التشكيل الصوتي، النُّطْقيّات (مج). والفونولوجيا علم متمّم لعلم الأصوات، فهو لا يدرس من اللغة أصواتها بحدّ ذاتها، بل يُعنى بدراسة استعمالات الأصوات في اللغة. إنه «علم دراسة نظام الأصوات كعناصر ضمن منظومة لغوية»، وتلك دلالة لا تشفّ عنها مقابلات عربية متخيّرة ناتجة عن تركيب مزجي من نحو (الصوتمية).

إن الأمثلة على تعدد المقابلات العربية للمصطلح اللساني الواحد أكثر من إمكانية حصرها في حدود هذا البحث. لكننا نذكر بعضاً منها في الجدول التالي الذي ضمّناه بعض المصطلحات الأجنبية وما أوردته المعاجم من مقابلات لها:

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
Anaphore	- العائد الإشاري - ترداد توكيدي - معاودة

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
	– مُحيل – مُعاود – أنافور – العائد
Axe paradigmatique	– محور استبدالي – محور جدولي – محور تصريفي – محور براديجماتي
Diachronie	– الآنية – الزمانية – تطوّر (لغوي) – تطوّر تاريخي
Graphème	– حرفم – روسم – غرافيم – وحدة خطية – وحدة كتابية
Homographe	– هوموغراف[١٠] – الجناس الكِتابي

(١٠) سامي عيّاد حنّا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون ص ٦٠.

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
Homonymie	- الهومونيمي - الجناس اللفظي
Métalangue	- ميتالغوي - لغة انعكاسية - لغة واصفة - لغة تقعيدية - لغة شارحة
Monème	- مونيم - كُلَيْمة - مستفرد
Morphème	- الصيغم (أصغر وحدة صرفية) - المرفيم - مورفيم - كليْمة - أداة - وحدة صرفية
Paradigme grammatical	- صنف نحوي استبدالي - مثيل نحوي - نمط استبدالي - نموذج استبدالي

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
Phonème	- الصوتم (أصغر وحدة دلالية) - فونيمة - فونيم - وحدة الصوتية - مستصوت - لافظ
Phonétique	- الصوتيات - علم الأصوات - الفونوتيكا - الفونيتيكا
La pragmatique	- علم الرموز التواصلي[١١] - التداولية - البراقماتية - المقامِيَّات[١٢] - الذرائعية[١٣]

(١١) أحد ثلاثة أقسام من علم السّيما يُعنى بدراسة الرموز التي يستعملها المتكلّم في عملية التواصل، والعوامل المؤثرة في اختيار رموز معيّنة دون سواها، والعلاقة بين الكلام والسياق، وأثر العلاقة بين المتكلّم والمخاطب على الكلام. وهدف التداولية معرفة المسكوت عنه في الخطاب أو النص (معجم المصطلحات اللغوية ص ٣٩٠، وعبد الملك مرتاض «تداولية اللغة بين الدلالية والسياق ص٦٤-٦٦).

(١٢) سامي عيّاد حنّا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، ص ١١١.

(١٣) عبد السلام المسدِّي، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب،١٩٨٤، ص ١٩٣.

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
Prosodique	- تحبيري[١٤] - تطريزي[١٥] - نغمي[١٦]
relation paradigmatique	- علاقة استبدالية - علاقة جدولية - علاقة براديجماتية - علاقة تصريفية - علاقة رأسية
Sémantique	- علم الدلالة - علم المعاني - السيميّة[١٧] - الدلالية - السيمانتيكا - السيمنته[١٨] - السيمانتيك

(١٤) سامي عيّاد حنّا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، ص ١١٤.

(١٥) رمزي منير البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، ص ٤٠٥.

(١٦) عبد السلام المسدّي، قاموس اللسانيات، ص ١٩١.

(١٧) مصطلح لمحمد رشاد الحمزاوي (١٩٨٧) ص ١٦. كما ورد لدى (رشيد حليم، التعريب، ٢٠١٠، ص٢٣١).

(١٨) رشاد الحمزاوي، ينظر المرجع السابق.

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
Sème	- السيم - المَعْنَم (أصغر وحدة دلالية) - السِّمة
Sémiologie	- علم السِّيما - السِياما - السيمياء - السيميائية - السيميولوجيا - علم العلامات - العلامية - علم الإشارات - علم الرموز - علم العلاقات[١٩]
Sémiotique	- علم السّيما - سيميائية - سيميوتية - علم الرموز - علم العلامات - تأويلية

(١٩) معجم المصطلحات اللغوية لرمزي منير بعلبكي أورد وحده ثمانية مقابلات لمصطلح semiology، (ص ٤٤٥ و٤٤٧).

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
Symbole/système phonétique	- الرمز / النظام الفونيتيكي - الرمز/ النظام الصوتي
Synchronie	- الزمانية - التطورية
Syntagme	- السِّينتاجم - نسق - سلسلة الوحدات - تركيب تعبيري - مركَّب - مكوَّن - ركن
Syntaxe	- علم التراكيب - النظم - النحو
Rôle thématique	- المعنى الوظيفي (لدى القدماء من علماء اللغة) - المعنى الجذعي - المعنى الموضوعي - الوظيفة الموضوعاتية

يمكن ردّ أسباب هذا التعدد المصطلحي للأصل الواحد - الذي بلغ حدّ الفوضى المصطلحية - إلى أن وضع هذه المقابلات غالباً ما يكون

فردياً، والتعددية تنتج عن تعاقب المبادرات الفردية[٢٠]، وعن تنوّع المصادر اللغوية والمعرفية التي ينهل منها المترجمون، ويعود إلى اعتماد طرائق متعدّدة ومتنوّعة في وضع المصطلحات بالترجمة اشتقاقاً وتوليداً وتعريباً لفظياً ونحتاً[٢١]. يبدو التعدّد المصطلحي من هذا المنطلق واقعاً لا محالة، فضلاً عن القصور المعرفي اللساني لدى بعض المترجمين، إذ يؤدي أحياناً عدم الإحاطة بالأبعاد الدلالية المفهومية العميقة للمصطلح اللساني في اللغة المصدر إلى وضع مقابلات غير موائمة للدلالة الأصل، أو ملبسة، أو عصية على الإدراك. لا شك في أن وضع المصطلح عمل فردي بالدرجة الأولى، لكن هذا لا يمنع من بذل جهود تنسيقية وتوحيدية لترجيح استخدامات مصطلحية على سواها وفق أسس علمية بيِّنة وصولاً إلى الرمز العلمي الموحّد، وهو ما يتحقّق بالتنسيق المستمر فيما بين المجامع العربية، وبين المجامع والهيئات البحثية والترجمية. إن مسؤولية المجامع اللغوية والهيئات التخصصية مسؤولية عظيمة، والتراخي في بذل الجهود التوحيدية يؤثر سلباً على توطين العلم وتطوير البحث العلمي.

ثالثاً- اللبس الدلالي:

كان العرب القدماء سباقين إلى الإبداع في شتى علوم اللغة. والحرص على هذا التراث العظيم والرغبة في إلباسه ثوب الحداثة حدا بالمترجم أحياناً إلى الاستعانة بمفرداته لتكون مقابلات لسانية حديثة. لكن جهل المترجم أحياناً بالفروق الدلالية والمفهومية بين الأصل اللساني الأجنبي

(٢٠) يوسف مقران، «المصطلحيات واللسانيات: في علاقة تبادل الخدمات»، مجلة التعريب، العدد الثالث والخمسون، ديسمبر ٢٠١٧.

(٢١) ممدوح خسارة، علم المصطلح، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٨.

والمصطلح اللغوي العربي التراثي يؤدي لا محالة إلى شيء من التخبط والعشوائية، وهو ما ينتج نصوصاً لسانية ملبسة، لا بل مضلّلة للقارئ أحياناً، ويؤدي إلى تأخّر البحث اللساني العربي الحديث الذي ما زال يدور في حلقة مزدوجة من التبعية اللاواعية والمضلّلة (بفتح اللام وكسرها).

إن المبالغة باستعارة مصطلحات لغوية تراثية وجعلها المعادل المفهومي لمصطلحات لسانية حديثة ثقيلة بحمولتها المفهومية، إنما تؤدي أحياناً إلى تحميل المصطلح اللساني العربي المستعار ما ليس فيه، وتبعده عن المعنى المحدث الدقيق المقصود، فتختلط المفاهيم اللغوية في ذهن القارئ أو الباحث العربي، وهو أمر لمسته أثناء قراءتي وتقويمي لبحوث طلاب الدراسات العليا الذين يضيعون في لُجِّ تلك المصطلحات التراثية الحديثة، فيخرجون في رسائلهم باستنتاجات تجانب الصواب في كثير من الأحيان. وقد أدى هذا الخلط المضلّل بين دلالة المصطلح الواحد التراثية ودلالته الجديدة إلى ترسيخ اعتقاد البعض أن العلوم اللغوية الحديثة ماهي إلَّا إعادة إنتاج لما عرفه العرب القدماء وتوصلوا إليه. ومن الأمثلة على ذلك ترجمة (anaphora) في النحو التوليدي بـ (عائد). ومثال آخر هو ترجمة (Government theory) بـ (نظرية العامل). وقد حدا ذلك بالكثيرين إلى التسرّع في استنتاجاتهم والقول: إن سيبويه سبق تشومسكي إلى نظريته المعقدة جداً في العمل والربط (أو العمل والإحالة). إنّ الاقتراض من المخزون التراثي وارد، على ألا يؤدي إلى اللبس والإيهام بأن المفهومين التراثي والحديث متطابقان، وألا ينتج عنه خلط يعوق انفتاح الفكر وتطوره بتطور النظريات والمفاهيم.

وبالمقابل، إن إهمال التراث اللغوي جهلاً أو عمداً قد يؤدي بالمترجم إلى مجانبة الصواب في النقل؛ فمصطلح (racine) يقابله عادة في النصوص

المترجمة مصطلح (الجذر)، وهي ترجمة غير دقيقة وملبسة. فالمصطلح الفرنسي يدلّ على الجزء من الكلمة مجردة من السوابق واللواحق، وهذا ما يعبّر عنه صرفياً بمصطلح (الجذع). لذا، فإن جذع (استسلم) هو (سلم)، وجذع (مفهوم) هو (فهم)، وجذع (التركات) هو (ترك)، إلخ..... في حين يدلّ مصطلح (جذر) في التراث اللغوي على أصل الكلمة في المقياس الصرفي: كأن يكون جذر (سلم): (س و ل و م)، إلخ.... وهكذا إن ترجمة (acine du mot) بـ (الجذر) ترجمة مُلبسة لمن لا يعرف الفرنسية. والأصح ترجمته بـ (جذع الكلمة) لا بـ (جذر الكلمة).

تعدّدت المفاهيم والمصطلح واحد:

من المعلوم أن الحقول اللسانية تتداخل، وأن المدارس والنظريات تتعدّد وتتقاطع أحياناً. وقد تختلف دلالة المصطلح الواحد، فيعبّر بحسب الحقل أو المدرسة أو النظرية عن مفاهيم مختلفة. للمصطلح اللساني إذن طبيعة متغيّرة بحسب أوجه توظيفه في مباحث اللسانيات على اختلافها. ومن بديهيات الأمور أن يكون لذلك انعكاسات على عملية ترجمته.

يرتبط المصطلح اللساني إذن بالاستعمال. وسنورد فيما يلي أمثلة حسية على ذلك: مصطلح (phonème) أبلغ دليل على ذلك، إذ يختلف معناه باختلاف المدارس اللغوية: بعضها يعرّفه بأنه أصغر وحدة صوتية تقبل التحليل إلى سِماتها المميزة، ويمكن عن طريقها التفريق بين المعاني مثل (بَـ) و(فَـ) في (بَرْد/ فَرْد) و(با) و(ضا) في(باع/ ضاع) والهاء والشين في (همْس/ شمْس)، في حين يعبِّر بها البعض الآخر عن أصغر وحدة صوتية لا تحمل أي معنى.

وكذلك هو حال العبارة الاصطلاحية (الجماعة اللغوية communauté linguistique)؛ إذ تعرَّف بأنها جمهرة الناطقين الذين يستعملون الأشكال

اللغوية نفسها، في حين يعترض (لابوف) على هذا التعريف، فيقول: إنها «جمهرة الناطقين الذين يتشاركون بالمعايير اللغوية نفسها»، أي أن كل فرد من الأفراد المنتمين إلى جماعة لغوية واحدة يمتلك كل الأدوات اللغوية لتلك الجماعة، وإن كان لا يستعملها جميعاً، بل يتخيّر منها ما يناسب المقام، أو ما يلائم عوامل لا لغوية عدة، منها الجنس والمكان والزمان والبيئة الاجتماعية أو المهنية، وهذا تحديداً مادة بحث اللسانيات الاجتماعية. ولا يخفى على القارئ أن تعريفي «الجماعة اللغوية» يختلفان اختلافاً جذرياً: فبينما كان التعريف الأول وصفياً بحتاً، تجاوز الثاني الوصفية إلى استنباط المبادئ العامة والمعايير العميقة التي تحكم اللغة وتنظم العلاقات بين مكوناتها. وقد اعتمدت القواعد التوليدية التعريفَ الثاني لهذه العبارة الاصطلاحية، إذ استندت في بناء المبادئ والقواعد العامة إلى ما هو «معياري» grammaticale في مقابل ما هو «لا معياري» agrammaticale، ففتحت آفاقاً جديدة واسعة أمام العلوم اللسانية واللغوية عامّة. علماً أن سيبويه كان سبّاقاً إلى التمييز بين المنطوق -المسموع من جهة، والمعايير الناظمة للغة من جهة أخرى، أي: أنه سبق ضمناً الجميع إلى اعتماد التعريف الثاني حين حمل «ما لا يتكلّم به العرب» على مجال المسموع لا الجائز.

ولا تفرِّق المعاجم العربية الثنائية أو الثلاثية اللغة بين مصطلحي (sémiologie وsémiotique). فالسيميولوجيا هي «العلاميّة»، وهي علم يدرس الإشارات أو الرموز اللغوية، أو تلك الموجودة في أي نظام سيميائي أو سيميّ آخر قابل للدرس ويُستعمل في التواصل، من مثل الرقص والموسيقى، والرسم، وعلامات المرور، واللغة الإيمائية. وأمّا السيميوتيكا

فيقابلها مصطلح «السّيميائية»، وهي دراسة خصائص الأنظمة السّيمية الطبيعية منها والمصطنعة، ولا سيما منها اللغة التي تستخدم وسيلة تواصل بين البشر، من النواحي اللغوية والنفسية والاجتماعية والفلسفية؛ وتقسم إلى: علم الدلالة، وعلم الرموز التواصلي، وعلم الرموز العلائقي(٢٢).

ولعلّ الإشكال الأكبر يكمن في إيجاد مقابل، أو مقابلات، لمصطلح (anaphore). وهو مصطلح يوناني الأصل بحسَب مُعجم ألفاظ النحاة اللاتينية (١٥٥٧)، تتعدّد مقابلاته العربية بحسب الحقل المعرفي الذي يرد فيه؛ فقد أورد له عبد السلام المسَدّي(٢٣) مقابلين: أحدهما في النحو(ترداد توكيدي)، والآخر في الأسلوبيات (مُعاودة). واعتمد (ضمير المُعاودة) مقابلاً لمصطلح (pronom anaphorique). أمّا معجم اللسانيات فأورد مقابلين لـ (anaphora): (أنافورا) و(العائد الإشاريّ). ونجد في النصوص المترجمة ثلاثة مقابلات عربية ممكنة لمصطلح (anaphore) وهي: (العائد) و(المُحيل) و(المُعاود). فأيها أصح وأكثر دقة؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من التوقّف عند دلالات المصطلح المتعدّدة والمختلفة: الدلالة الأولى بلاغية، والثانية لسانية. فأمّا تعريفه في علم البلاغة فهو أنه تكرار للكلمة نفسها في مطلع عبارات متتالية، توخياً للتناظر أو التوكيد. وأمّا في اللسانيات، فاختلاف النظريات ينتج تبايناً مفهومياً، في دلالة (anaphore): في النحو الوظيفي، يعرَّف مصطلح (anaphore) بأنه الكلمة العائدية التي تمثّل جزءاً من الخطاب؛ وبهذا يكون الضمير المتصل في جملة (يشعر المهاجر بالحنين لوطنه) عائداً على

(٢٢) رمزي منير البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، (ص ٤٤٥ و٤٤٧).
(٢٣) عبد السلام المسدّي، قاموس اللسانيات، ١٩٨٤.

(المهاجر). في هذه النظرية يُقابل مصطلح (العائد) مصطلح anaphore، وهذا يتفق وما نصّ عليه القدماء صراحة، وما اعتمده الباحثون ومترجمو النصوص اللسانية التوليدية مقابلاً لمصطلح (pronom). أمّا مصطلح anaphore فله في «القواعد التوليدية» دلالة خاصة لا يعبِّر عنها مصطلح (العائد) الذي يطلق في التراث اللغوي العربي على الضمير، كما أسلفنا.

لقد ميّزت نظرية الربط binding theory (تشومسكي ١٩٨١م) بين (الضمير العائد) والـ (anaphore) في كونهما عنصرين لغويين يقعان على طرفي نقيض في السمات الخاصّيّة التي تميّز كلاً منهما من الآخر، وهو ما يجعلهما يتمايزان في السياقات النظمية التي يظهران فيها، وحدود ارتباط كل منهما بالاسم الذي يعود عليه في ما سبق من كلام داخل حدود الجملة. فكيف يمكن أن يُعبِّر مصطلح (العائد) عن الضمير وضده في آن معاً؟! لذا أرى من الأنسب، تفادياً للبس والخلط المفهومي، اعتماد مصطلح (ضمير) أو (عائد) مقابلاً لـ (pronom)، ومصطلح (ضمير المُعاودة) مقابلاً لـ (pronom anaphorique)، ومصطلح (مُحيل) مقابلاً لمصطلح (anaphore) بمفهومه التوليدي. وسنفرد لاحقاً بحثاً خاصاً لشرح الفرق بين هذه العناصر اللغوية الثلاثة في القواعد التوليدية.

وبعد، فإنّ المجامع اللغوية العربية والمؤسسات العلمية والبحثية مدعوّة للتصدّي لمشروع صناعة معجم لساني عربي موحّد، وهو، شأنه في ذلك شأن سائر المصطلحات العلمية، مشروع طموح يقتضي جهوداً جبارة، ويعدّ خطوة أساسية في سبيل السعي لتوحيد المصطلح اللساني العربي، وتوضيح النص اللساني وجعله في متناول الباحثين والقراء من طلبة المعرفة. ويقتضي العمل في هذا المعجم رصد مختلف المصطلحات

اللسانية العربية في شتى حقول علوم اللغة الحديثة واستنباطها من بطون النصوص والمعاجم، والمفاضلة بين المكافِئات المصطلحية المستعملة، وانتقاء الأصلح منها، من حيث سلامة الصنعة ودقة المعنى، ثم تحديد كل مصطلح بتعريف دقيق واضح، يتفق ودلالته المفهومية في اللغة المصدر. ولا بدّ من التدقيق في المكافئات المصطلحية المقترضة من التراث اللغوي العربي والتيقّن من توافق دلالتها مع الدلالة اللسانية المعاصرة.

خاتمة:

بيّنا فيما سبق أن التدقيق في النصوص اللسانية على اختلاف موضوعاتها ومذاهبها، ينبُّنا بالواقع المأزوم للمصطلح اللساني العربي. تناولنا في هذه الدراسة مختلف أساليب وضع المصطلح اللساني، وأوجه قصوره وما يتّسم به - في كثير من الحالات- من إبهام وتعددية ولبس دلالي. وعزونا ذلك إلى التسرّع والاستسهال، والقصور المعرفي، والارتباك المفهومي، مبيّنين أوجه ذلك بالأمثلة المادية.

لم يكن هدفنا الانتقاص من قيمة الجهود الجليلة التي بـذِلت في هذا الميدان، بل بيان أهمية تشارك الجهات المعنية كافة، مؤسسات وأفراد، في بذل جهود مضاعفة لوضع المصطلح اللساني العربي المناسب في كونه معادلاً لفظياً سليماً ودقيقاً - ولم لا؟ - موحّداً، للمفهوم العلمي المراد التعبير عنه، توخياً للدقة وتوطيناً للمعرفة، وتبديداً لغربة النص وتذليلاً لصعوبته، وصولاً إلى إنتاج مصطلح متوافق وقانوني الاختصار ورفع اللبس اللذين ترتهن بهما وظيفة اللغة التواصلية.

* * *

المصادر والمراجع

- جوزيف مونان، مفاتيح الألسنية، ترجمة الطيِّب البكّوش، ١٩٨١.
- رشيد حليم، «منهج الحمزاوي في ترجمة المصطلح اللساني- دراسة في معجم المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية»، مجلة التعريب، العدد الثامن والثلاثون، حزيران ٢٠١٠، ص (٢٢١-٢٣٤).
- رمزي منير البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، بيروت، لبنان.
- سامي عيّاد حنّا، وكريم زكي حسام الدين، ونجيب جريس، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان الحديثة، بيروت، لبنان، ١٩٩٧.
- سيدي محمد بن مالك، «ترجمة المصطلح اللساني عند محمد يحياتن، مصطلحات علم الدلالة نموذجاً»، مجلة التعريب، حزيران ٢٠١٥ (ص١١٠-١٣٤).
- عبد السلام المسَدّي، قاموس اللسانيات، مطبوعات الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م.
- عبد الملك مرتاض، «تداولية اللغة بين الدلالية والسياق»، اللسانيات، العدد العاشر، ٢٠٠٥.
- لبانة مشوِّح، «آليات الدماغ في اكتساب اللغة وتوليدها»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، نيسان ٢٠١٧.
- محمد إسماعيل بصل، مدخل إلى معرفة اللسانيات، دار المتنبي، دمشق، ٢٠١٣.

- محمد البوقاعي، «من قضايا النص اللساني المترجم إلى العربية»، مجلة «التعريب»، مؤتمر الترجمة في الدول العربية أهميتها ودورها في التواصل الحضاري بين الأمم، ج١، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، حزيران ٢٠٠٦.
- ممدوح خسارة، التنمية اللغوية طريق إلى المعاصرة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة، ٢٠١٧.
- ممدوح خسارة، اللغة العربية بين التشدد والتيسير، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ٢٠١٨.
- منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة التاسعة والثلاثون ٢٠٠٥.
- يوسف مقران، «المصطلحيات واللسانيات في علاقة تبادل الخدمات»، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العدد ٣٩، ٢٠١٨.
- يوسف مقران، «المصطلحيات والألسنيات: في علاقة تبادل الخدمات»، ٢٢٥-٢٥٩، مجلة التعريب العدد ٥٣، ٢٠١٧.

* * *

في جماليات الكلام(*)

أ. د. سمير أحمد معلوف(**)

أولاً: القيمة الجمالية:

يفيدنا في هذا المجال أن نعود إلى القيمة الجمالية على نحو عام ننظر فيها من أجل الوصول إلى القيمة الجمالية في التركيب العربي. وهذا يقودنا إلى النظر في مفهوم الجمال الذي نجد له معايير عديدة، وقد كثرت تعريفات الجمال وتنوعت، وكان ذلك ناشئاً «عن الرغبة في الوصول إلى صيغة أصيلة يُلخّص كلٌّ من أصحابها فيها فلسفة له من الفلسفات الجمالية. وكأن تلك التعريفات تُعبِّر عن الحدس الذي يُساورنا تلقاء الجمال في الفنِّ

(*) الكلام: يدلّ مصطلح الكلام في الدراسات اللغوية والبلاغية العربية القديمة دلالتين: خاصّة وعامة، فيدل عند بعض الدارسين على التركيب اللغوي الذي يسمى (الجملة)، وقد ذكر ذلك ابن جني في الخصائص، ومعنى ذلك أنه يدل على التركيب المُفيد، ويدل دلالة عامة حين يُقصد به القول المُفيد سواء أكان جملة واحدة أم أكثر، وقد يدلّ على قصيدة كاملة أو كتاب كالمصحف الشريف. وقد يكون ملفوظاً شفويّاً أو مكتوباً كما ذكر عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة (ص ٣)، حين أورد مصطلح " أقسام الكلام المدوّنة"، وهذه الدلالة تتسق ومصطلح النص Text الذي يستخدمه الدارسون المعاصرون الذين تخبّطوا في تحديد ماهيّته واختلفوا في تعريفه بين لغويين وبلاغيين وسيميائيين.

(**) دكتور في الآداب – قسم اللغة العربية – جامعة البعث بحمص.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٢٧/ ٦/ ٢٠١٨م.

أو في الطبيعة، ونحاول به أن نعرب عن جملة العلاقات بين الذات المُدركة والشيء الجميل»[١]. ومن التعريفات التي نجدها للجمال ما أُثر عن أفلاطون من أن الجمال بهاء الحق، ومنها قول أرسطو عن الجمال: إنه اجتماع الترتيب مع الاعتدال بين الصغر والكبر، أي أن يكون الشيء لا صغيراً ولا كبيراً مع الترتيب في أجزائه[٢].

وفي تراثنا دراسات معمقة للجمال، تبين ماهيته وأنواعه، فقد نقل التهانوي (١١٥٨هـ) كشاف اصطلاحات الفنون عن كتاب بحر الجواهر أن «الجمال يُطلق على معنيين: أحدهما الجمال الذي يعرفه كل الجمهور مثل صفاء اللون ولين الملمس، وغير ذلك مما يمكن أن يُكتسب، وهو على قسمين: ذاتي وممكن الاكتساب. وثانيهما: الجمال الحقيقي، وهو أن يكون كل عضو من الأعضاء على الفصل ما ينبغي أن يكون عليه من الهيئات والمزاج»[٣].

وقد ألح الصوفية في فكرة الجمال على التناسب[٤] والملاءمة. قال الفرغاني (٧٠٠هـ) في كتابه (منتهى المدارك): «والحُسْنُ ملاءَمَةٌ وتناسُبٌ»[٥] وفسّر طبيعة التناسب والملاءمة في قوله: «لما كان الجمال حقيقةً كمالَ الظهور بصفة الملاءمة والتناسب، وهذا التناسب إما لا تُدرَكُ كيفيَّتُه وحقيقتُه وغورُه ولا ينضَبطُ انتهاؤُه وحدُّه ولا يمكن حصرُه وعدُّه، بل كل ما

(١) بدائع الحكمة، د. عبد الكريم اليافي، ص ٦١.

(٢) نفسه، ص ٥٥. وهناك تعريفات أخرى للجمال أوردها الفلاسفة المحدثون، منها ما قاله بودلير: إن الجمال هو العجيب الشاذ، وما قاله فيكتور هوغو: الجمال هو الشكل، وما قاله غويو: الجمال هو المحرّض الحيوي لجميع القوى. انظر بدائع الحكمة، ص ٥٦.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، ج١، ص ٥٧٠.

(٤) التناسب: التشاكل؛ لسان العرب، (نسب).

(٥) منتهى المدارك، الفرغاني، ج١، ص ١٤٦.

أُدرك منه عُلم في ضمن ذلك أن وراءه مما لا ينحصر ولا ينضبط فذلك هو إطلاقُ الجمال ومعنىً وراء الحُسنِ = وإما أن يُدرَكَ ذلك وينضبطَ فذلك الداخلُ تحت الضبطِ والإدراك إمَّا أن يكون خفيّاً لطيفاً بحيث لا يكون ينضبط ببديهة الإدراك، بل يحتاج إلى دقة نظرٍ ولطفِ إحساسٍ ورويَّةٍ، وبحيث لا يمكنُ العبارةُ عنه لدقَّتِه وخفائِه ولُطْفِهِ فيكون إدراكُه مخصوصاً بالخواصِّ دون العوام، ذاك مسمىً بسرِّ الجمال وأثره في الظّاهرِ يُسمى ملاحةً»[٦]. والملاحة كما ذكر الفرغاني: حُسْنٌ يَغمُضُ ويعسُر إدراكه[٧].

وكانت مسألة الحُسن والقبح من المسائل الكبرى التي بحثها علماء الكلام والفقه والأصول، فهي مسألةٌ: «كلاميةٌ من جهة البحث عن أفعال الباري تعالى أنها هل تتصف بالحسن؟ وهل تدخل القبائح تحت إرادته؟ وهل تكون بخلقه ومشيئته؟ والحق عند أهل الحق أن القبحَ هو الاتِّصافُ والقيامُ لا الإيجادُ والتَّمكينُ = وأصوليَّةٌ من جهة أنها تبحث عن الحُكم الثابت بالأمر يكون حسناً، وما يتعلق به النَّهي يكون قبيحاً. وفقهيَّةٌ من حيث إن جميع محمولات المسائل الفقهية يُرفع إليهما ويَثبتان بالأمر والنهي»[٨].

فـ «الحُسْنُ» بالضم وسكون السِّين قال عنه اللغويون: إنه ضدُّ القبح ونقيضه، وذكر الأزهري أن الحسن نعتٌ لِما حَسُن[٩]، ويُطلق في عُرف العلماء على ثلاثة معانٍ أزيَدَ، وكذلك ضدُّ الحسن، وهو القبح.

- ويظهر من **المعنى الأول** العلاقة بين الحُسن والقبح والطبع، فيعوّل

(٦) المرجع السابق نفسه، ج١، ص ٢٣٧.

(٧) المرجع السابق نفسه.

(٨) الكليات، الكفوي، ص ٤٠٢، وللتوسع في هذه المسألة يُراجع: معجم أصول الفقه، خالد رمضان حسن، ص ١٠٧، وما بعدها.

(٩) لسان العرب، حسن.

القائلون بهذا المعنى على العلاقة الذاتية بين الجمال والمتلقي، وهذا ما يجعل من القيمة الجمالية مسألة نسبية أقرب ما تكون إلى الفرديَّة؛ لأن لكل إنسان طبيعتَه وتجربتَه التي يرى بها الأمر جميلاً أو قبيحاً. فالمعنى الأول للحُسن على ما قرَّر هؤلاء العلماء «كون الشيء ملائماً للطبع وضده القبح، بمعنى: كونه منافراً له، فما كان ملائماً للطبع[١٠] حسنٌ كالحلو، وما كان منافراً له قبيحٌ كالمرِّ، وما ليس شيئاً منهما فليس بحسن ولا قبيح كأفعال الله تعالى لتنزُّهه عن الغرض»[١١]. وذهب بعض هؤلاء العلماء مذهباً نفعيّاً في تحديد مفهوم الحُسن والقبح، فرأوا أن الحسن والقبح إنما يُحكم بهما على الأمر بموافقته الغرض ومخالفته، وعبروا عنهما باشتماله على المصلحة والمفسدة، ومآل العبارات واحدٌ على ما يبدو.

– أما **المعنى الثاني** فكون الشيء صفة كمال، وضده القبح، وهو كونه صفة نقصان.

– و**المعنى الثالث**: كون الشيء متعلّقَ المدح والذم[١٢]. «فالحسن والقبح بالمعنيين الأولين ثبتا بالعقل اتفاقاً، أما بالمعنى الثالث فقد اختلفوا فيه»[١٣].

---

(١٠) ليس المقصود بالطبع المزاج، بل الطبيعة الإنسانية الجالبة للمنافع والمضارّ، كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ص ٦٦٦.

(١١) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ص ٦٦٦.

(١٢) نفسه.

(١٣) الكليات، الكفوي، ص ٤٠٢. الاتفاق والاختلاف يعني اتفاق واختلاف المعتزلة والأشاعرة، وخلافهم قائمٌ على أن الأشعرية وبعض الحنفية يقولون: إن ما أُمر به فحسنٌ وما نُهي عنه فقبيح، وغيرهم يقولون: إنه حسن فأُمر به وقبيحٌ فنُهي عنه، فالحسن والقبيح ثابتان للمأمور به والمنهي عنه في أنفسهما قبل ورود الشرع. والمعتزلة يقولون: إن جميع المأمورات بها حسنة والمنهيات عنها قبيحة في أنفسها، والعقل يحكم بالحسن والقبح =

وذهب بعض علماء الجمال الغربيين هذا المذهب فرأوا أن الجمال شعور نسبي، ويقوم أيضاً على الملاءمة ؛ فقد «كان الأستاذ شارل لالو يرى أن الجمال شيء نسبي، ويورد قول فولتير الشهير: الجمال عند العلجوم (ذكر الضفدع) ضفدعته، هنا في هذا التعريف فكرة الملاءمة زيادة على النسبية، ويذهب هؤلاء المفكرون إلى أن ذوق الإنسان نفسه قد يتغير مع التجربة كما يتغير فهم الجمال حسب المجتمعات والعصور والمدارس الفنية في المجتمع الواحد ومع العمر»(١٤).

فإذا نقلنا هذه الفِكَر إلى مستوى الكلام الملفوظ أو المدوّن فإننا نجد أن العبارة عن المعاني عملية تقوم على البناء، أي بناء النص باختيار الكلم، وتحديد مواضعها. فإن منشئ النص المكتوب أو صانع الكلام لابد له من أن يتحرّى مسائل الجمال وطرائقه من أجل أن يُنشئ نصاً جميلاً ويُعبِّر تعبيراً حسناً، فظهر لدى علماء البلاغة ودارسي اللغة ونصوصها ما يمكن أن نُسميه معايير جمالية خاصّة بالنص أو الكلام تقوم على القيم الجمالية العامة التي تحدثنا عنها من تناسب واعتدال وملاءمة للغرض وموافقة للطبع، فتحدثوا عن صياغة الكلام بمراعاة الغرض وتلاؤم الألفاظ وتناسبها مع الغرض، وعدم تجافيها مع الطبع بأن تكون مستأنسة غير حوشية ولا غريبة، وجعلوا الكلام قائماً على مفهوم (النسج) بما تعنيه هذه الكلمة من حُسن الترتيب وجمال التلاؤم بين العناصر التي تصنع النسيج، وأطلقوا

= إجمالاً، وقد يطَّلع على تفصيل ذلك إما بالضرورة أو بالنظر وقد لا يطلع. وبعض الحنفية يقولون بالتفصيل، فبعض المأمورات والمنهيات حسنها وقبحها في أنفسها، وبعضها بالأمر والنهي. كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي. ص ٦٦٧.

(١٤) بدائع الحكمة، د. عبد الكريم اليافي، ص ٦١.

أحكاماً جمالية على العبارة كالحُسن والقُبح، وفسروا هاتين الكلمتين أحياناً بالتناسب وعدمه أو المُلاءمة وانعدامها، أو وضع الأمور في مواضعها أو الإخلال بهذا المفهوم، فبرز ما يُمكن أن نقول عنه: (نظرية المواضع)، وهي نظرية جمالية انبثقت من قضية التناسب وحُسن الترتيب والمُلاءمة.

ثانياً: قيم الكلام الجمالية:

ظهرت قضايا الجمال التي تحدّثنا عنها جليَّة في الدراسات اللغوية والبلاغية، وكانت دليلاً على استحسان الكلام، وحاول النقاد أن يستشعروا ذلك بالبحث عن خفايا الجمال داخل الصيغة الكلامية، وكان معيار الجمال الذي يفيء إليه الدارسون قائماً على أمرين: أولهما مدى وضوح الرسالة اللغوية، وقدرتها على إيصال الفِكَر من المتكلم إلى المتلقي. وثانيهما ما تملكه هذه الرسالة من استقامة وجري على طريقة العرب في الفصاحة وحسن الكلام، ومناسبة للمقام.

وقد حاول الدارسون البحث عن خفايا هذه المسائل في النصوص التي درسوها من أجل أن تكون نتائج بحثهم قواعد يتبعها من يريد أن يصوغ كلاماً مستقيماً وجميلاً في الوقت ذاته، وذهبوا إلى ضرورة التناسب والملاءمة في الكلام. وسوف نبحث مسائل من دراساتهم لتلاؤم الكلام على سبيل الأمثلة؛ لأن المجال واسع، والقضية لها تفريعات كثيرة.

- تناسب الألفاظ والمعاني وتلاؤمها:

كانت قضية تناسب الألفاظ وتلاؤمها في الكلام من أوائل القضايا التي تواجهنا في موضوع جماليته. ومن أوائل من درس هذه المسألة الجاحظ (٢٥٥هـ) الذي لاحظ أن بعض الألفاظ تتنافر حين يقترن بعضها ببعض، ولذلك فهي ألفاظ غير متلائمة، فقال: «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن

كانت مجموعةً في بيت شعرٍ لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه، فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ في مَكانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

ولما رأى مَن لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن يُنشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحدٍ فلا يتتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم: إن ذلك اعتراه، إذ كان من أشعار الجنِّ»[١٥]. ثم أتى بأمثلة على هذا التنافر داخل هذا الشعر، وهو ما يُنقص من جماله، وعلّق في هذا السياق على قول خلف:

وبعض قريضِ القومِ أَولادُ عَلَّة[١٦]

فقال: «فإنه يقول: إذا كان الشعر مستكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشِّعر لا يقع بعضُها مماثلاً لبعض، كان بينها من التَّنافر ما بين أولاد العَلَّات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مَرْضِيّاً موافقاً، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة. قال: وأجود الشِّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أُفرغ إفراغاً واحداً، وسُبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان»[١٧].

كانت هذه الفكرة التي أتى بها الجاحظ فاتحة عملٍ كبير للبلاغيين والنقاد الذين اهتموا بدراسة الكلام وجمالياته، لأنهم رأوا فيها مجالاً للبحث في العلاقة بين عناصره يدُلُّهم على ما فيها من توافق وتناسب يحكمون به على هذا الكلام من وجهة بلاغية جمالية. ونذكر في هذا المجال بعض القضايا التي نجمت عن فِكَرِ الجاحظ هذه، فقد اتجه علماء

(١٥) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١، ص ٦٥.

(١٦) أولاد العلَّة: أمهاتهم شتى والأب واحد. اللسان (علل).

(١٧) نفسه، ج١، ص ٦٦ – ٦٧.

البلاغة العربية إلى النظر في هذه المسألة، ورأوا أن التناسب بين ألفاظ الكلام قضية جمالية يجب النظر إليها، وقد ظهر كتاب البديع لابن المعتز (٢٩٦هـ) ليكون أول الغيث في هذا المجال، فدرس مجموعة من عناصر الجمالية القائمة على التناسب بين الألفاظ، ولما كنا لا نستطيع البحث في هذه العناصر مجتمعة في هذه العجالة فإننا سوف نشير إلى واحد من الأصباغ البديعية التي لقيت اهتماماً واسعاً من المبدعين والنقاد، ألا وهو (الجناس)[١٨]. وقد ذكر ابن المعتز هذا الصبغ البديعي، وأتى بأمثلة عديدة له من غير أن يخوض في مصطلحاته مشيراً إلى المليح منه والمعيب.

قال ابن المعتز فيما سماه الباب الثاني من البديع: «وهو التَّجنيس، وهو أن تجيء الكلمة تجانس الأخرى في بيت شعرٍ وكلام، ومجانستها لها أن تُشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألّف الأصمعي كتاب الأجناس عليها. وقال الخليل: الجنس لكل ضربٍ من الناس والطير والعروض والنحو؛ فمنه ما تكون الكلمة تُجانِس أخرى في تأليف حروفها ومعناها وتُشتقُّ منها مثل قول الشاعر:

يومٌ خَلجتَ[١٩] على الخليجِ نُفوسَهم

أو يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر:

...إنَّ لومَ العاشق اللُّوم»[٢٠].

---

(١٨) سلك الخفاجي في سر الفصاحة (الجناس) في باب التناسب بين الألفاظ، وعرفه بقوله: «أن يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض إن كان معناهما واحداً أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى». سر الفصاحة، ص ١٨٥.

(١٩) خلج: انتزع اللسان: خلج.

(٢٠) البديع، ابن المعتز، ص ٢٥.

والظاهر من كلام ابن المعتز على هذا الصبغ البديعي أن منه ما هو مليحٌ – كما ذكر[٢١] – ومنه ما هو معيب في الكلام والشعر[٢٢]. ومن المناسب أن ندقق في الأمثلة التي أتى بها لنتعرف خصائص الجناس الذي استحسنه، ونستنبط أسباب هذا الاستحسان، فقد استشهَدَ لمليح الجناس بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وفي هذا الجناس نجد تناسباً في اللفظ بين أسلمت وسليمان[٢٣]، وهذا التناسب ناجم من تشاكل أحرف الكلمتين، ولكن المدقق في هذا التشاكل لا يجد أنه تناسب مفروض على التركيب اللغوي بل جاء كأنه لا بد منه؛ لأن وصف بلقيس لحالها بأنها قد (أسلمت) أرادت منه أنها تابعة له ومقيدة به، فالإسلام يعني إظهار الخضوع والقبول[٢٤]، وهي أرادت هذا المعنى، ثم جاءت كلمة سليمان بعدها، وهي الكلمة التي لا يمكن استبدالُ كلمةٍ أخرى بها؛ لأنها اسم علم للنبي عليه السلام؛ فحدث التشاكل بصورة لا تعمُّل فيها ولا قسر.

---

(٢١) نفسه، ص ٢٩.

(٢٢) نفسه، ص ٣٤.

(٢٣) اختلف القوم في هذا النوع من الجناس؛ فقد أورده ابن المعتز بلا تسمية، و سماه صفي الدين الحلي (٧٥٠هـ) التجنيس المطلق، وقال: سماه قومٌ (تجنيس المشابهة) كالسكاكي وغيره، فهو ما اختلف في الحروف والحركات، فاشتبه بالمشتق الراجع معناه إلى أصل واحد، وليس ذلك من أصناف التجنيس... ومثال المشتبه به..و قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾. شرح الكافية البديعية للحلي، ص ٦١. وفي المفتاح، ص ٥٤٠ ذكر السكاكي أن المتشابه يكون إذا وقع أحد المتجانسين في التام مركَّباً ولم يكن مخالفاً في الخط، مثل قول الشاعر:

إذا ملكٌ لم يكُن ذا هبهْ فَدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذاهبهْ

والفرق واضح بين كلامي السكاكي والحلي.

(٢٤) لسان العرب، سلم.

ومما استملحه ابنُ المعتز من الشعر قول أبي تمام:

سَعِدَت غربةُ النَّوى[٢٥] بِسُعادِ فهي طوعُ الإِتهام والإِنْجادِ[٢٦]

جانس الشاعر بين: (سعدت) و (سعاد)[٢٧]. وما جعل هذه المجانسة جميلة أنها أتت بتشاكل بين اللفظين، وهذا التشاكل أدى إلى تكرار الأصوات التي أتت في الكلمة الأولى في الكلمة الثانية، لكنَّه تناسب حمل في داخله ما يثير النفس أيضاً؛ فقد أفاد الشاعر من اسم العلم (سعاد) الذي يحمل معنى السعادة؛ ليأتي بما يجانس هذا المعنى في كلمة (سعدت)، فجمع بين المعنى والمبنى في تناسب يريح السمع ويثير العقل، ذلك أن سعاد تحمل السعادة إلى كل من يلقاها، وإن كان ذاك الأمر مما يجلب الأحزان كالنوى.

ولكنه عاب بعض الشواهد التي ورد فيها هذا الصّبغ البديعي من غير أن يُعلّل سبب عيبه له، فقال: «ومن التجنيس المعيب في الكلام والشعر قول بعض المحدثين، وهو منصور بن الفرج:

أُكابِدُ فيكَ ألَيمَ الأَلَمْ فَقَد أَنْحَلَ الجِسْمَ بَعْدَ الجَسَم[٢٨]»[٢٩]

إن التدقيق في هذا البيت يُظهر لنا أسباب العيب فيه، فقد وقع الجناس بين كلمتين في الشطر الأول وكلمتين في الشطر الثاني، وهذه الكلمات هي: (أليم الألم)[٣٠] و (الجِسم الجَسم)[٣١]، ويشعر سامع هذا الجناس أن الشاعر تعمَّد

(٢٥) غربة النوى: بُعدها.

(٢٦) البديع، ص ٢٩.

(٢٧) هذا الجناس من الجناس المطلق كما ورد سابقاً.

(٢٨) الجَسَمُ: ضخامة الجسم.

(٢٩) نفسه، ص ٣٤.

(٣٠) هذا الجناس من نوع الجناس المطلق عند الحلي.

الإتيان به من غير أن يؤدي التشاكل اللفظي بين الكلمات إلى إضافات جديدة للنظم، فكلمة أليم يمكن أن تحلَّ محلها كلمة أشدّ، وتكون دالة على المعنى المقصود من غير تمحُّلٍ أو افتعال، أما كلمتا الجسم والجَسم فواضح أنهما سيقتا من أجل افتعال الجناس؛ لأن كلمة الجسم جاءت حشواً في الكلام، ولا حاجة بالمعنى إليها، فيكفي الشاعر أن يقول: أنحلني لندرك أنه قصد الجسم، ولكنه آثر ذِكر الجسم بعد النحول من أجل أن يصطنع الجناس مع الجَسم، وقد أدّى هذا إلى العيب في البيت، وأبعده عن صحَّة التناسب وجماله.

وأدرج قدامة ابن جعفر (٣٣٧هـ) الجناس في باب ائتلاف اللفظ والمعنى، وقسمه قسمين، وأعطى كلّ قسم مصطلحاً خاصّاً به، فسمى الأول مطابقاً[٣٢]، وسمّى الثاني (المجانس)، وذكر أن معنييهما «أن تكون في الشعر معانٍ متغايرةٌ قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة، فأما المطابق فهو ما يشترك في لفظة واحدة بعينها...وقال الأفوه الأَوْديّ:

وأقطعُ الهَوْجَلَ مُسْتأْنِساً بِهَوْجَلٍ عِيرانَةٍ عَنْتَريس[٣٣]

... وأما المجانس فأن تكون المعاني اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق. مثل قول زهير:

---

(٣١) هذا الجناس من الجناس المحرّف، وهو ما تماثل ركناه في الحروف، وتخالفا في الحركات، الكافية البديعية، ص ٦٥.

(٣٢) رفض الدارسون هذه التسمية؛ لأن مصطلح (المطابق) يُطلق على صبغ بديعي آخر، ذكر ذلك ابن رشيق في العمدة، وقال عن شاهد قدامة: أنشده قدامة على أنه طباق، وسائر الناس يُخالفون في هذا المذهب، وقد جاء ردّ الأخفش علي بن سليمان عليه في ذلك، وإنكاره على رأي الخليل والأصمعي في كتاب حلية المحاضرة للحاتمي. العمدة، ج١، ص ٣٢٢.

(٣٣) الهوجل الأولى: الأرض التي لا نبت فيها، والهوجل الثانية: الناقة السريعة.

كأنَّ عيني وقد سالَ السَّليلُ بهم وجيرةٌ ما همُ لو أنَّهم أَمم»[٣٤]

فقد ذهب قدامة في دراسته هذه إلى النظر بطريقة عقلية إلى موضوع الجناس، فهو يهتم بما بين الألفاظ والمعاني من تناسب وتلاؤم من غير أن يهتم بما يحمله التشاكل بين الألفاظ بعضها مع بعض والمعاني التي تحملها من قيمة جمالية أو فنية للكلام، إنه يصف الحالة من غير أن يُبدي انفعالاً بها. ومذهبه هذا ناتج من فهمه لمعنى المطابق؛ فقد رأى أن معناه اللغوي يتفق وما قرَّره من تماثل تامٍّ بين اللفظين[٣٥]، أما المجانس فرأى أن الكلمة فيه بسبب الاشتقاق تجانس الأخرى، فهي تشاركها في جنسها.

ولعل الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) أفاد في كتابه (أسرار البلاغة) مما أورده قدامة من أن الجناس طريقة في التعبير قوامها الائتلاف بين اللفظ والمعنى اكتفاء بوصفه. بيد أنه لم يتَّخذ سبيل قدامة، بل توجه إلى تعليل جودة الجناس وحسنه، وتمييز الحسن منه والقبيح، فدرسه من وجهة جمالية بدل الاكتفاء بوصفه.

نظر الجرجاني إلى قضية «الجناس» على أنها جزء من الكلام الذي أسماه الكلام المدوَّن في قوله: «ولن يُتصوَّر في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصُّص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة، وأقسام الكلام المُدوَّنة»[٣٦].

وتوجه في رسالة الكتاب إلى الكلام ليُبيِّن فضائله في تمييز الإنسان،

(٣٤) نقد الشعر، ص ١٦٢-١٦٣، ما: زائدة. أمم: قصد.

(٣٥) في اللسان، طبق: وقد طابقه مطابقة وطباقاً، وتطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، والتطابق: الاتفاق، وطابقت بين الشيئين: إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما.

(٣٦) أسرار البلاغة، ص ٤.

وإعطاء العلوم منازلها والكشف عن صورها وجني ثمرها، فلولا الكلام لما تعدى فوائد العلم عالِمَه، ولا صحَّ من العاقلِ أن يُفَتِّقَ عن أزاهير العقلِ كمائمَه... ولوقع الحيُّ الحسَّاس في مرتبة الجماد، ولبقيت المعاني مسجونة في مواضعها. إن هذه الفضائل التي يتصف بها الكلام تجعلنا نبحث عن الشريف منه والوضيع، ونفتش عن الأداة التي يتفاضل بها الكلام، ويقرّر أن ذلك لا يعود إلى اللفظ؛ لأن الألفاظ لا تُفيد حتى تؤلف ضرباً خاصّاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب.[٣٧]

وقد أراد من هذا المدخل أن يُفهمنا أنه يريد أن يؤسس لفكرة مفادها أن الكلام لا يُقاس حُسنه بجرس ألفاظه، بل بأن تكون هذه الألفاظ مراداً بها المعنى، وأي خلل في هذا الأمر سيؤدي إلى أن تكون الألفاظ من غير فائدة، لأن مدار الأمر في صناعة الكلام على قدرته على التعبير عن المعاني في أحسن صورة وأجلاها لتكون أكثر تأثيراً في المتلقي: «فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حُلوٌ رشيق، وحَسَنٌ أنيق، وعَذبٌ سائغٌ، وخَلوبٌ رائعٌ، فاعلم أنه ليس يُنبِئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل أمرٍ يقع من المرء في فُؤاده، وفضلٍ يقتدحه العقل من زناده»[٣٨].

وهكذا يدلف إلى التجنيس ليرى أن سامعه أو قارئه لا يستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، والجامع بينهما غير بعيد[٣٩]. فالأمر ليس مجرد سماع حروفٍ مكرَّرة،

(٣٧) أسرار البلاغة، ص ٢-٣.

(٣٨) نفسه، ص ٤.

(٣٩) نفسه، ص ٦.

نبحث عن فائدتها فلا نراها، بل هو نوع من إثارة العقل بأسلوب يصطنعه المبدع، فكأنه يخدعنا به عن الفائدة وقد أعطاها، ونظن أنه لم يزدنا وقد أحسن الزيادة ووفَّاها(٤٠).

فالجناس وفق هذا التوجُّه يقوم بعملين: أولهما أنه يُضيف إلى الكلام إيقاعاً جميلاً، والثاني أنه يُضيف إلى المعنى شيئاً لم يكن ليُضاف إليه إذا لم نستخدم الجناس. «فقد تبيَّن أن ما يُعطي التجنيس من الفضيلة أمرٌ لم يتمَّ إلا بنُصرة المعنى؛ إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مُستَحسَنٌ، ولما وُجِدَ فيه معيبٌ مستهجنٌ(٤١). ولذلك فإن حُسن التجنيس يتحصَّل بأن يكون المعنى هو الذي يطلبه ويستدعيه، ونجد أنه لا حِول عنه ولا بديل له، وأحلى تجنيس وأعلاه ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلى اجتلابه(٤٢).

والحقيقة أن علم البديع زاخرٌ بأصباغ تقوم على معيار التناسب والائتلاف(٤٣)، ويحتاج درسها إلى أبحاث مستقلة، ولذلك اكتفينا بالإشارة إلى الجناس، واتخذناه مثالاً لتناسب الألفاظ في الكلام.

وكان اهتمام البلاغيين منصباً في مجال الألفاظ والمعاني على تلاؤم اللفظ والمعنى واشتراكهما في صناعة الكلام الجميل، فأكدوا فكرة اختيار الألفاظ لتكون دالة على المعاني، على أن تتسم بالوضوح وعدم الاشتراك؛ لأن وظيفتها في الكلام التعبير عن المعاني وإيصال الرسالة اللغوية، وأن يأتي هذا اللفظ ضمن المنظومة اللغوية من غير تكلف أو غموض أو تعقُّدٍ.

(٤٠) نفسه، ص ٨.

(٤١) نفسه، ص ٨.

(٤٢) نفسه، ص ١٠.

(٤٣) مثل: الطباق، والتناسب، والاستخدام، ورد العجز على الصدر، وغير ذلك.

وقد لخص الجاحظ هذه الفِكَر بما نقله من كلام جعفر بن يحيى لثمامة بن الأشرس حين سأله: ما البيان؟ فقال: «أن يكون الاسم يُحيط بمعناك، ويُجَلِّي عن مغزاك، وتُخرجُه عن الشِّركَة، ولا تستعين عليه بالفكرة. والذي لابد له منه، أن يكون سليماً من التكلُّف، بعيداً من الصَّنعة، بريئاً من التعقُّد، غنيّاً عن التأويل»(٤٤). ويُضاف إلى ذلك أن يكون المعنى في طبقة اللفظ؛ ليحصل التناسب بين اللفظ والمعنى(٤٥). وذلك لأن لكل معنى لفظاً يناسبه ويشاكله، فسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، «وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني»(٤٦).

ولعلَّ أهمَّ موضع يتعلق بتناسب المعاني مواضعُ «الفصل والوصل»: ففي هذه المسألة مجالٌ واسعٌ للحديث عن تلاؤم المعاني وتناسبها، ويعَدُّ باب الفصل والوصل «بما ينبغي أن يُصنَع في الجمل من عَطفِ بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تُستَأنَفُ واحدة منها بعد أخرى = من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتَّى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلَّصُ، وإلا قومٌ طُبِعوا على البلاغة». وسبيلُ معرفة الفصل والوصل بين الجمل معرفةُ فائدة العطف في المفرد التي تقوم على «أن يُشرَك الثاني في إعراب الأول، وأنه إذا أشركه في إعرابه فقد أشركه في حكم الإعراب»، أما الجُمل المعطوف بعضها على بعض فهي على ضربين، فإن كانت الجمل المعطوف عليها ذات محلٍّ من الإعراب فحكمها حكم المفرد، «وكان وجه

(٤٤) المرجع السابق نفسه، ج١، ص ١٠٦.

(٤٥) نفسه، ج١، ص ١٠٦.

(٤٦) نفسه، ج١، ص ١٤٥.

الحاجة إلى «الواو» ظاهراً، وإشراكها في الحُكم موجوداً». وإنما يقع الإشكال في العطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب كقولك: «زيدٌ قائمٌ وعمروٌ قاعدٌ»؛ فالواو هنا لم تُشرك الجملة الثانية في إعراب قد وجب للأولى، وإذا كان هناك إشراك فينبغي «أن تعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى منه، ولِمَ لمْ يستوِ الحال بين أن تعطف وبين أن تدعَ العطف»، وعدم العطف دليل على أنه لا يوجد أمر معقولٌ؛ ليشرِك بين الأولى والثانية(٤٧).

وأمر الإشراك بين الجملة الأولى والثانية بالعطف يقوم على العلاقة المعنوية التي تربط بين الجملتين، فنحن لا نقول: «زيدٌ قائمٌ وعمروٌ قاعدٌ» حتى يكون «عمرو» بسبب من «زيد»، فهما كالنظيرين و الشريكين، بحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني. ولهذا عابوا قول أبي تمام:

لا والّذي هُوَ عالمٌ أنَّ النَّوى صَبِرٌ وأنَّ أبا الحُسين كريمُ

وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النَّوى، ولا تعلُّقَ لأحدهما بالآخر(٤٨). وهذا ما يجعل العلاقة بين الجملتين علاقة معنوية، فيكون الخبر عن الثاني «مما يجري مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول»(٤٩). وتشتدُّ هذه العلاقة في الصلة ويزدادُ الاقتران، حتى لا يُتَصوَّر إفراد أحدهما عن الآخر، مثل قولك: «يكفيكَ ما قلتُ وسمعتَ»، حيث صار الفعلان في حُكم فعلٍ واحدٍ(٥٠).

(٤٧) ينظر هذه المسائل في دلائل الإعجاز ص ٢٢٢ - ٢٢٤،

(٤٨) دلائل الإعجاز، ص ٢٢٥.

(٤٩) نفسه.

(٥٠) نفسه، ص ٢٢٦.

- جمال الكلام في نسيجه:

ابتكر الدارسون العرب القدامى طريقةً لتقريب صناعة الكلام إلى الأذهان بمقارنة هذه الصناعة بصناعة النسج، ولعل هذه الطريقة أوضح وسيلة لمعرفة كيفية ضم جزئيات الكلام بعضها إلى بعض على نحو متجانس ومتناسب ليخرج الكلام في صورة جميلة كما يريدها صانعه.

فضم الخيوط بعضها إلى بعض في النسج لا يكون بطريقة عبثية أو عشوائية، بل تستند إلى قواعد وقوانين ومعايير علمية وجمالية؛ وإن لم يتوفّر ذلك فإن النسيج لن يخرج متقناً، ولذلك يراعي الناسج أن يضم الخيوط بعضها إلى بعض على نحو متناسب ومتلائم، ويضيف الصور بتناسق يُميز صانعاً من صانع. ولا اعتبار هنا لكثرة النقوش والتصاوير بل لإتقانها وطريقة توزيعها. وهكذا نظر الدارسون إلى النص على أنه جزئيات يُضمُّ بعضها إلى بعض بطريقة مخصوصة، وتأتي الصورة لتُضيف جمالاً إلى النص المصنوع، فتُوضع حيث يتطلب منها المعنى ذلك.

وقد كانت كلمات الجاحظ في هذا الموضوع أولى الخطوات في هذا الأمر، فذهب إلى أن العناية بالمعنى وحده لا تُعطي قيمة للشعر؛ ذلك أن المعاني كثيرة، ويمكن لأي إنسان أن يجد معنى ما فيما حوله من عناصر الواقع، ولكن الفضيلة في طريقة التعبير عن هذا المعنى على نحو جميل معبِّر، فالشأن في هذا الأمر ليس للمعنى وإن شَرُف، «وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخَيُّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطَّبع وجودة السَّبك، فإنَّما الشِّعر صناعةٌ، وضربٌ من النَّسج، وجنسٌ من التصوير»[٥١].

أعطت هذه التصوّرات عبد القاهر الجرجاني ثقةً فيما قرره في كتابه

(٥١) الحيوان، ج ٣، ص ١٣١ - ١٣٤.

(دلائل الإعجاز) عن أهمية النظم في صناعة النص الجميل، فرأى أن الأمر ليس تفضيلاً للفظ على المعنى كما يفهم بعض الناس من كلام الجاحظ، وهم الذين ذهبوا إلى أنَّ «من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور، وتحدث فيها خواصُّ ومزايا من بعد ألا تكون. وإنك ترى الشاعر قد عَمَدَ إلى معنىً مُبْتَذلٍ، فصنع فيه ما يصنع الصَّانع الحَاذِقُ إذا هو أغرب في صنعة خاتم وعَمَلِ شَنْفٍ وغيرهما من أصناف الحُليِّ»[٥٢]؛ ولكن الشأن في ذلك شأن الصورة وليس مجرد اللفظ، وكلام الجاحظ عن السبك والنسج يُظهر ذلك كما يُظهره كلام العلماء الذين أتبعوا كلامهم على اللفظ بكلام على الصورة التي أتى بها اللفظ داخل النص مثل قولهم: «لفظٌ مُتَمكِّنٌ غير قلقٍ ولا نابٍ به موضِعُه»، فهؤلاء العلماء «لم يُوجِبوا لِلَّفظ ما أوجبوه من الفضيلة، وهم يعنون نُطقَ اللِّسان وأجْراسَ الحروف، ولكنهم جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا: اللفظ، وهم يريدون الصورة التي تَحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه»[٥٣]. وهذا يعني أنهم لم يعنوا مجرد اللفظ، ولكن عَنَوا صورةً وصفةً خصوصيةً تحدث في المعنى[٥٤].

وأقام الجرجاني نظريته في النظم على فكرة النسج هذه، فرأى أن النظم ليس ضمَّ كلمة إلى أخرى كيف جاء واتفق، ولكنه نظمٌ يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض؛ «ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبارَ الأجزاء بعضِها مع بعضٍ حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضع، علَّة تقتضي

(٥٢) دلائل الإعجاز، ص ٤٨١.

(٥٣) نفسه، ص ٤٨٢.

(٥٤) نفسه، ص ٤٨٦.

كونه هناك، وحتى لو وُضع في مكانٍ غيرِه لم يصلح»[٥٥].

ولم تكن الصورة الفنية بعيدة عن هذا الموضوع، فقد رأى الجرجاني أن الصورة الفنية لا تكون جميلة بالنظر إليها على أنها مفردة، أو ألفاظ لا يربطها بالنظم رابط. وقد حلل الصور التي أوردها على هذا الأساس. وهكذا حلل بيت بعض الأعراب:

اللَّيلُ داجٍ كَنَفا جِلْبابِهِ وَالبَيْنُ مَحجورٌ على غُرابِهِ

فوضع الصورة داخل النظم، وكأن الشاعر أراد أن ينسج الكلمات وينقش القماش بالصور، فرأى أن الملاحة ليست في أن جعل لليل جلباباً، وحجر على الغراب، «ولكن في أن وضع الكلام الذي ترى، فجعل (الليل) مبتدأً، وجعل (داجٍ) خبراً له وفعلاً لِما بعده، وهو (الكنفان)، وأضاف (الجلباب) إلى ضمير الليل، ولِأن جعل كذلك (البَيْنَ) مبتدأً، وأجرى محجوراً خبراً عنه، وأن أخرج اللفظ على (مفعول). يبيِّن ذلك أنك لو قلت: (وغراب البين محجور عليه، أو: قد حُجر على غُراب البين)، لم تجد له هذه الملاحة. وكذلك لو قلت: (قد دجا كنفا جلباب الليل) لم يكن شيئاً»[٥٦].

- القراءة تبيِّن جمال نسيج الكلام:

يبدو البحث في القراءة بعيداً لأول وهلة عن فكرة الجمال، ولكن المدقق في الأمر يجد العلاقة بين النص وقراءته واضحة، ولا تعني القراءة هنا طريقة إلقائه، بل إنها تتعلق بأمر آخر هو أدخل في علم اللغة. والذي نعنيه أن القراءة يُقصد بها طريقة فهم معاني المقروء، والوقوف على دلالاته لبيان ذلك في القراءة من حيث الوقف والابتداء. ويفيدنا في هذا الأمر ما

(٥٥) دلائل الإعجاز، ص ٤٩.

(٥٦) نفسه، ص ١٠٢ - ١٠٣.

قرره علماء الوقف والابتداء[٥٧] في القرآن الكريم، فقد بحثوا هذه المسألة على نحو معمَّق، بل نقول: إنهم بحثوها بطريقة مذهلة، وأشاروا إلى طريقة قراءة القرآن الكريم بما يحقق للسامع فهم مقاصده ووعي معانيه ودلالاته. وهذه الطريقة في القراءة تتيح لنا معرفة ترابط الدلالات في النص القرآني الكريم، وتجعل هذا النص نسيجاً واحداً يناسب بعضُه بعضَه الآخر ويرتبط به أو ينفصل عنه وفق ترابط الألفاظ واتساق المعاني.

تحدث علماء الوقف عن أقسامه نظراً للتعلق، وقرروا أنه خمسة أقسام: ألَّا يتصل ما بعد الوقف بما قبله لا لفظاً ولا معنىً، وهذا هو (التام). أن يتصل ما بعده بما قبله لفظاً ومعنى، وهذا هو القبيح. أن يتصل ما بعده بما قبله معنى لا لفظاً وهذا هو الكافي. ألَّا يتصل ما بعده بما قبله معنى، ويتصل لفظاً، وهذا هو الحسن. والخامس متردّد بين هذه الأقسام، فتارة يتصل بالأول، وتارة بالثاني على حسب اختلافهما قراءة وإعراباً وتفسيراً؛ لأنه قد يكون الوقف تاماً على تفسير وإعراب وقراءة، غير تام على غير ذلك[٥٨]. وعلى ذلك فإن تطبيق هذه الأقسام على النص القرآني يُظهر علاقات النص اللفظية والمعنوية، وكأننا أمام تفسير للنص عن طريق القراءة، كما يُظهر من خلال هذه العلاقات جمال النص القرآني وإعجازه بترابط دلالاته وألفاظه بالإشارة إلى ما اكتمل معناه من تراكيبه فتم الوقوف عليها، وما ترابط من هذه التراكيب مع غيره فمُنع الوقوف عليها قبل تمامها. جاء في دراسة سورة (الفاتحة) أن هناك وقفاً تامّاً على البسملة؛ لأنها جملة تامة من مبتدأ وخبر

(٥٧) الوقف: لغة؛ الكف عن الفعل والقول، واصطلاحاً: قطع الصوت آخر الكلمة زمناً ما، أو هو قطع الكلمة عما بعدها، والوقف والقطع والسكت بمعنى. منار الهدى، ص ٨.

(٥٨) منار الهدى، ص ١٠.

على أنها «ابتدائي بسم الله»، أو أنها في محل نصب، وبذلك تكون آية تامة لا تعلُّق لها بما بعدها.

والوقوف التامة في هذه السورة أربعة (البسملة، والدين، ونستعين، والضالين)، على عدِّ أهل الكوفة، وثلاثة على عدِّ أهل البصرة، وهي (الدين، ونستعين، والضالين)، ومن قوله: (اهدنا) إلى آخرها سؤال من العبد لمولاه متصل بعضُه ببعض، فلا يُقطع لشدَّة تعلُّق بعضه ببعض. ويجوز الوقف على وجه التسامح على (الحمد لله، والعالمين، والرحيم، وإياك نعبد، والمستقيم، وأنعمت عليهم) لكونه رأس آية، ولا ينبغي الوقف على (أنعمت عليهم) سواء نصب (غير) بدلاً أو نعتاً أو على الاستثناء. فإذا رُفع (غير) على أنه خبر لمبتدأ محذوف حَسُنَ الابتداء به، وهي قراءة شاذة[٥٩]. أما الوقف على (الحمد، ومالك، وربّ، ويوم، وإياك فيهما، واهدنا، والصراط، وصراط، والذين، وغير، والمغضوب، وعليهم الثاني) فقبيح[٦٠]، وقبحه لأسباب عديدة، ولكن من يتأمل أسباب القبح يجد أن الوقف عليها لا يؤدي معنى، ولا يربط النص بعضه ببعض[٦١].

ويتضح من ذلك أن السورة القرآنية الواحدة نُظر إليها وفق قواعد ترابط معانيها واكتمال هذه المعاني حين الوقف والابتداء، فكأنها نسيج يربط بعضه بعضاً، فيسمع المتلقي القرآن، أو يقرؤه، فيدرك بالوقف والابتداء معانيه، وترابطه، وهذا ما يُظهر إعجازه وجمال نصه.

---

(٥٩) معجم القراءات، ج ١، ص ٢٣، وهي قراءة عمر بن الخطاب. وتقديرها: هم غيرُ أو أولئك غيرُ.

(٦٠) منار الهدى، ص ٢٨.

(٦١) لمراجعة أسباب القبح في بعض الوقفات في هذا النص القرآني ينظر: كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزَّ وجلَّ للأنباري، ج ١، ص ٤٧٤.

ثالثاً: بنية التراكيب الجمالية:

اعتمد سيبويه مصطلح (العربية) للتعبير عن المنظومة اللغوية العربية، فقد أراد بهذا المصطلح أن يكون جامعاً لما يُنظِّم عمل اللغة ويُبيِّن علاقاتها اللفظية والمعنويَّة. ذلك أنه لم يُرد أن يدرس في كتابه قواعد اللغة كما قرَّرها المتأخرون، بل أراد أن يدرس ما يتعلق بهذه اللغة من علاقة بين الصورة والمعنى، وطرائق التعبير باللغة العربية عن الفِكَر وحُسن التعبير وقُبحه، فوضع معايير جمالية لهذا التعبير وفق مفهوم (التلاؤم) بين صورة التعبير ومعناه واتِّساقه مع طريقة العرب في كلامها.

وقد انتهج في هذا الأمر كله طريقة تبيان الأسس التي تقوم عليها نظرته هذه، من أجل أن يرجع إليها من يريد أن يفهم إشارة تعرض في أثناء البحث. ويعني ذلك أنه ابتدأ بالكليات من أجل أن ينتقل إلى الجزئيات التي تؤول إلى تلك الكليات التي وردت في مُفْتَتَح الكتاب.

ويَلفِت الانتباه فيما قرَّره أنه يعتمد مصطلح (الكلام) للدلالة على ما يستعمله المتكلم من قواعد اللغة وأساليبها الكلية، وينبّه به على طريقة التعبير التي ينتهجها صانع الكلام لإيصال المعاني وفق القواعد العامة المقرَّرة؛ ومن طريقة الاستعمال يتبيَّن فضل متكلم على آخر، وحُسنُ كلام وقُبح ما عداه، واستقامة عبارة وعدم استقامة أخرى.

- **أقسام الكلام (الجمل):**

وصف سيبويه الكلام بصفاتٍ تُبيِّن درجاته وتفاضله، واستخدم لذلك مجموعة من المصطلحات هي: (مستقيم، وحسنٌ، ومحالٌ، وكذبٌ، وقبيحٌ). وعنى بكل واحدٍ من هذه المصطلحات أمراً يتعلَّق بصحة القاعدة أو الدلالة. ونتبيَّن ذلك بالعودة إلى الأمثلة التي استشهد بها على ما ذكره من

هذه المصطلحات، أو الإشارات السريعة التي أرفق بها المصطلح.

فالمستقيم من الكلام[٦٢] هو ذاك الذي يجري على القواعد المقررة للتركيب العربي، كقولك: (أَتيتُكَ أَمسِ، وسَآتيكَ غداً)، فهذا القول جاء منضبطاً من الوجهة النحوية لا خلل فيه. وهذا الانضباط النحوي يستند أيضاً إلى انضباط دلالي، لأن العبارات تدل على المقصود منها من حيث الزمن، ومن حيث العلاقة بين المفردات، فقد اتَّسق زمن الأفعال، وما أضيف إلى بعضها من الظروف الزمانية التي تبعتها. ولذلك وُصفت هاتان العبارتان بالاستقامة والحُسن، فكأن الاستقامة للقاعدة والحُسنَ للدلالة. وحين يوصَف الكلام بالاستقامة والحُسن فإنه يكون قد جمع صحَّة القاعدة مع صحة الدلالة أو وضوحها. وما يكون فيه تناقض في المعنى لا يكون حَسناً، بل يتحوَّل إلى كونه (محالاً)[٦٣]. فصفة المُحال ليست متعلقة بصحة القاعدة من الوجهة النحوية الصورية؛ بل هي متعلقة بصحَّة الدلالة.

أما الصفات الأخرى للكلام، فهي كونه مستقيماً كذباً، مثل قولك: (حملتُ الجبلَ، وشَربتُ ماءَ البحرِ)، وقد عنى سيبويه بالاستقامة هنا جَريَ الكلام على القاعدة، أما كونه كذباً فهذا تابعٌ للدلالة؛ وكذلك كون الكلام

(٦٢) شرح السيرافي مفهوم المستقيم من الكلام بأنه الذي لم يكن في لفظه خلل من جهة اللغة والنحو، أي أن يكون مستقيم اللفظ والإعراب فقط، وعنى بالمستقيم اللفظ والإعراب أن يكون جائزاً في كلام العرب؛ دون أن يكون مختاراً. شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ج١، ص ١٨٦.

(٦٣) ذكر السيرافي أن معنى المُحال أنه أُحيل عن وجهه المُستقيم الذي به يُفهم المعنى إذا تُكلِّم به. وذكر قوم أن المحال هو اجتماع المُتضادّات، كالقيام والقعود، والبياض والسَّواد، وما أشبه ذلك؛ لأن المُحال ما لا يصحّ وجوده، والكلام الفاسد كما في الأمثلة التي ذكرها سيبويه. شرح كتاب سيبويه للسيرافي. ج١، ص ١٨٦.

مستقيماً قبيحاً مثل قولك: (قد زيداً رأيتُ، وكي زيدٌ يأتيكَ)[٦٤]، وقد بيَّن سيبويه سبب قُبح هذا الكلام فقال: «فأما المستقيم الكذب فأن تضع اللفظ في غير موضعه»[٦٥].

ومن البيِّن أن معيار الجمال في التركيب لدى سيبويه أن يكون الكلام (حسناً)، وبذلك يكون مؤدِّياً للمعنى على ما ينبغي له، مستنداً في هذا إلى استقامة التركيب نحويًّا، وحين يكون الكلام على عكس ذلك يكون (قبيحاً)، وقبحه ناتج عن أنه لم يُؤدِّ المعنى على نحو صحيح وواضح، والذي أدَّى إلى ذلك أنه ابتعد عن المتداول من الصيغ اللغوية، وصار أقرب إلى الضعف.

- ائتلاف المبنى والمعنى:

طبق سيبويه القواعد التي ذكرناها في كتابه على التراكيب اللغوية، فكان يُشير إلى حُسنها أو قبحها، ويعلل أسباب ذلك أو يترك الأمر من غير تعليل مكتفياً بوصف التركيب جماليّاً. وتعليلات سيبويه في هذا المقام أقرب إلى تصوُّر مقاصد المُتَكلِّم، وإرادة المخاطَب، فكأنه يريد من عمله أن يُعلِّمَ القارئ كيف يعبر عن فِكَرِه باستخدام التركيب اللغوي الأفضل الذي يأتلف فيه المبنى مع المعنى، فالحُسن والقبح صفتان جماليتان يوصف بهما الكلام

(٦٤) ذهب النحاة إلى عدم الفصل بين قد والفعل الذي تدخل عليه، لأنها تُعدّ كالجزء منه لشدة التصاقها به. المغني، ج ٢، ص ٥٨، وقد جعل ابن جني هذا الفصل من الفصل القبيح. الخصائص، ج ٢، ٣٩٠ - ٣٩١ ؛ وذكر السيرافي في شرح كتاب سيبويه ج١، ص ١٨٦ أن قبح هذه الأمثلة أن من حُكم (قد) أن يليها الفعل، ولا يُفارقها؛ لأنها جُعلت مع الفعل بمنزلة الألف واللام مع الاسم، وكذلك سوف مع الفعل، فقبُح أن يُفصل بين قد وبين الفعل بالاسم، أما (كي) فقد جُعلت بمعنى (أن) أو بمعنى اللام، إذا قُلت: (جِئتك كي يأتيك زيدٌ) فهو بمعنى: ليأتيك زيدٌ، ولأن يأتيك زيدٌ، فحُكم الفعل أن يليها دون الاسم؛ إذ كان بمحلِّ أن، فإيلاؤهم إياها الاسم وضعُ الكلام في غير موضعه.

(٦٥) راجع صفات الكلام في كتاب سيبويه، ج ١، ص ٢٥ - ٢٦.

وفق قاعدة الاستقامة والقدرة على تأدية المعنى. من ذلك ما جاء في باب (هذا باب تُخبرُ فيه عن النكرة بنكرة). ومن أمثلة ذلك قولك: (ماكان أحدٌ[٦٦] مثلَكَ، وما كان أحَدٌ خيراً منكَ، وما كان أحدٌ مُجترِئاً عليكَ)[٦٧]. وبيَّن أن الإخبار عن النكرة في هذين المثالين حسنٌ، وقد حسَّنه دلالة العبارة ومقصود الكلام، فالمعنى المقصود منهما أنك «أردتَ أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء[٦٨] أو فوقه، لأن المخاطَبَ قد يحتاج إلى أن تُعْلِمَهُ مثلَ هذا»[٦٩]. والمعوَّل في تحسين العبارة على إفادة المخاطَب شيئاً لا يعرفه، وإن كان المتكلم يعرفه، فالنكرة والمعرفة بالنسبة إلى المخاطب[٧٠]. ولذلك يقبح أن تبتدئ بالنكرة من غير قصدٍ إلى الإفادة مثل قولك: (كان رجلٌ ذاهباً)؛ لأنه ليس «في هذا شيء تُعلمه كان جهله». ويحسن الكلام حين تُخصَّصُ النكرة، على أننا يجب أن نُراعي في التخصيص موضوع الفائدة التي يجب أن يحصل عليها المخاطَب من الكلام. فلو قلتَ: (كان رجلٌ من آلِ فُلانٍ فارساً) كانت العبارة حسنةً؛ لأن المخاطبَ قد يحتاج إلى أن تُعلمه أن ذلك في آل فلان،

---

(٦٦) أحدٌ بمعنى الواحد، وهو لمن يصلح أن يُخاطَب ويستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث، الصحاح (أحد)، ولا يقع في الإثبات إلا بلفظ (كل)، تاج العروس، (أحد).

(٦٧) كتاب سيبويه، ج١، ص ٥٤.

(٦٨) الشيء: المشيء، وهو اسم مفعول، أي: المُراد، وما يتعلق به القصد، أعمُّ من أن يكون بالإمكان، فيتناول الواجب والممكن والممتنع، وهو عبارة عن كل موجود، إما حسّاً كالأجسام أو معنى كالأقوال. وصرح سيبويه بأنه أعمُّ العام. تاج العروس، شيأ.

(٦٩) نفسه. اعتمدت النكرة في الأمثلة على النفي، ولما كان الكلام غير موجب تضمنت النكرة معنى العموم فأفادت، وجاز الابتداء بها. شرح المفصل، ج ١، ص ٨٦. يضاف إلى ذلك أن المبتدأ النكرة في الأمثلة جاء دالاً بنفسه على العموم المطلق، فاستحق أن يكون مبتدأ من جهتين.

(٧٠) شرح المفصل، ج ١، ص ٨٦.

وقد يجهلُه. أما حين يكون التخصيص غير ذي فائدة فإن الكلام لا يحسن، أي يكون قبيحاً، مثل قولك: (كان رجلٌ في قومٍ عاقِلاً)؛ «لأنه لا يُستَنكَرُ أن يكونَ في الدّنيا عاقلٌ، وأن يكون من قومٍ»(٧١).

ويقوّي هذا التوجُّه ما جاء به سيبويه في تحليل بيت امرئ القيس:

فلو أنَّ ما أَسْعى لِأدنى مَعيشة كَفاني ولم أَطلبْ قَليلٌ من المالِ

فقد علّل رفع (قليلٌ) على ما قدَّره من معنى البيت، «فإنما رفعَ؛ لأنه لم يَجعل القليلَ مطلوباً، وإنَّما كان المطلوبُ عنده المُلْكَ، وجعلَ القليل كافياً، ولو لم يُرِدْ ذلك ونصبَ فَسَدَ المعنى»(٧٢).

ومن تعليلات سيبويه في هذا المجال أنه أشار إلى تفاضل الكلام في (الحُسن) معتمداً على المعنى ومقاصد المتكلم، فهناك (الحَسَن)، وهناك (الأحسن)، وبيَّن ذلك في تفسيره بعضَ العبارات، كما في قولك: (زَيدٌ مررتُ به)، ورأى أن النصبَ في هذا المثالِ بعيدٌ؛ «لأنَّ المُضمرَ قد خرج من الفعلِ، وأُضيف الفعل إليه بالباء، ولم يُوصَل إليه الفعلُ في اللفظ، فصار كقولك: زيدٌ لقيتُ أخاه». أما نصب (زيد) فعلَّته أن الفعل وقع على شيءٍ من سببه، فكأنه وقع به، وأوضح ذلك بـ «أنَّ الرَّجل يقول: أَهنتَ زيداً بإهانتِكَ أخاه وأكرمتَه بإكرامك أخاه». وإذا نصبتَ (زيداً) فقلت: زيداً لقيتُ أخاه، فهو كقولك على سبيل التمثيل: لابستُ زيداً لقيتُ أخاه، فجرى على قولك: أكرمتُ زيداً، ولكن هنا لم تُكرم زيداً، بل وصلت المكرمة إلى غيره. ولهذا كان الرفع أحسن وأجود، ويعني ذلك أن النصب حسنٌ على التأويل والملابسة أما الرفع فهو أقرب إلى العبارات الواضحة التي لا تحتاج إلى

(٧١) راجع ما نصَّ عليه سيبويه في هذه المسائل في الكتاب، ج ١، ص ٥٤.
(٧٢) الكتاب، ج١، ص ٧٩.

تأويل كأنْ تقولَ: مررتُ بزيدٍ ولقيتُ عمراً، فكان بذلك في معيار التفاضل في الحُسن أحسنَ وأجودَ[٧٣].

ومن تفاضل الكلام في الحُسن والجمال ما يكون في مواضع الحذف، من ذلك ما ورد من قول بعض العرب: (قالَ فلانة). وقد أشار سيبويه إلى أن حذف علامة التأنيث في مثل هذه المواضع يكون أحسن إذا طال الكلام، نحو قولك: (حَضرَ القاضيَ امرأةٌ)؛ «لأنه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل، وكأنّه شيءٌ يصيرُ بدلاً من شيءٍ»، وقاس ذلك على المعاقبة نحو قولك: (زنادِقةٌ وزناديقُ) فتُحذف الياء لمكان الهاء. وكذلك في قولهم: (مُغَيْلِمٌ ومُغَيليمٌ)، «وكأنَّ الياء صارت بدلاً ممَّا حذفوا». وعلل حذف علامة التأنيث من الفعل بأنهم «حذفوا التاء لأنهم صار عندهم إظهار المُؤنَّث يكفيهم عن ذكرهم التَّاء، كما كفاهم الجميع والاثنان حين أظهروهم عن الواو والألف»[٧٤].

- ترابط التركيب وتناسب العبارات:

بحث سيبويه مسألة ترابط التركيب في مواضع عديدة من كتابه، وكان اهتمامه بهذا الأمر قائماً على أن التركيب يجب أن يكون مثل النسيج لا يتفلَّتُ جزء منه، ولا ينفصل عن الآخر؛ من أجل أن يفهم السامع مُراد المتكلِّم بسرعة وسهولة، ولا يتأتَّى له ذلك من غير أن يكون التركيب مترابِطاً يدل بعضه على بعض، ويُحيل جُزؤه على جزئه الآخر. من ذلك ارتباط الجملة الواقعة خبراً بالمُبتدأ، «فإذا بنيتَ الفعلَ على الاسم قُلتَ: زيدٌ ضربتُه، فلزمته الهاء». وفسَّر قوله: «مبني عليه الفعل» بأن الفعل جاء في موضع الخبر كما في قولك: (زيدٌ منطلقٌ). وعلل حُسن بناء الفعل على

(٧٣) راجع ما قاله سيبويه في هذه المسائل، الكتاب، ج١، ص ٨٣ - ٨٤.

(٧٤) راجع ما قاله سيبويه في هذه المسألة في الكتاب، ج٢، ص ٣٨.

الاسم، أي مجيء الاسم مبتدأ خبره الفعل، بأن هذا الفعل كان مُعملاً في المضمر وشغلتَه به، ولولا ذلك لم يحسن، لأنَّك لم تشغَله بشيء[٧٥].

وحين ينعدم الرّابط بين الفعل المبني على الاسم وهذا الاسم، وذلك بعدم ذكر علامة إضمار المبتدأ، فإن الفعل يخرج من لفظ الإعمال في المبتدأ، ومن حال بناء الاسم عليه، ويُشغل بغيره، فلا يكون عاملاً فيه. وهذا ما يجعل العبارة غير مترابطة، والمعنى غير واضح؛ لأن مقاصد المتكلم تصبح غامضةً، وهذا ما يجعل الكلام ضعيفاً لا يحسن، ويتحوّل إلى الضرورة في الشعر، وضعفه في الشعر مثل ضعفه في غيره. مثال ذلك قول الشاعر[٧٦]:

قَد أَصبَحَتْ أُمُّ الخِيارِ تَدَّعي علَيَّ ذنباً كُلَّه لم أَصْنَعِ[٧٧]

فقوله: (كلُّه لم أصنع) غاب فيه الرابط بين الفعل (أصنع) والمبتدأ (كله)، والأولى نصب كلمة (كل)؛ لأن نصبها لا يُخِلُّ بمعنى البيت[٧٨]. وهذا ما جعل المعنى غير واضح بسبب عدم ترابط الكلام في البيت. وقد شبهوا هذا الحذف بقولهم: (الذي رأيت فلان)، فلم يذكروا الهاء، وهو في العبارة أحسن من حذف الهاء من خبر المبتدأ، لأن هذا الحذف لم يقع في الخبر أو الصفة، فكرهوا طوله حيث كان بمنزلة اسم واحد كما كرهوا طولَ اشهيباب، فقالوا: اشهباب[٧٩].

---

(٧٥) هذه المسألة في الكتاب، ج ١، ص ٨١.

(٧٦) كتاب سيبويه، ج ١، ص ٨٥.

(٧٧) قال أبو سعيد السيرافي في شرح كتاب سيبويه ج١، ص ٣٦٨: «يعني أن إضمار الهاء إذا قُلت: «زيدٌ ضَربتُ» هو قبيح، ومع قُبحه هو جائزٌ في الكلام. والدليل على جوازه في الكلام، أن الشاعر لو قال: «كلَّه لم أصنع» لاستقام البيت ولم ينكسر، فلم تدعه الضرورة من جهة الشعر إلى رفعه؛ فعلم بذلك جوازه في غير الشعر».

(٧٨) نفسه.

(٧٩) نفسه، ج١، ص ٨٦، ٨٧.

وقد اهتمَّ سيبويه في مسائل كثيرة من كتابه بترابط العبارة، وتناسب مبناها ومعناها، وعوَّل في كل ما أورده على صِحَّة المعنى، ووضوح الكلام، وفهم السامع مقاصد المتكلم من عبارته، وكأن سيبويه في ذلك يحاول أن ينظر إلى العبارة على أنها علاقاتٌ معنوية يجب الربط بينها من أجل الوصول إلى المعنى، وأي تأويلٍ للعبارة لا يهتمُّ بالمعنى يكون بعيداً لا يؤخذ به.

من ذلك مسألة وردت في باب (هذا بابٌ يُضمرون فيه الفعلَ لِقُبح الكلام إذا حُمِل آخره على أوَّله)[٨٠]. وقد أقام سيبويه مسألته في هذا الباب على مثالين، هما: «مالكَ وزيداً، وما شأنُكَ وعمراً»، وناقش المثال الثاني، فذكر أن قولك: «ما شأنُك وعمراً» حدُّه ههنا «ما شأنُك وشأنُ عمروٍ»، ورأى أن «عمراً» لا يُعطف على «الكاف»، لأن العطف على الكاف المضمرة قبيح، أما عطفه على الشأن فلا يجوز وذلك لسبب معنوي؛ «لأن الشأن ليس يلتبس بعبد الله، إنما يلتبس به الرَّجل المضمر في الشأن»، ووصف هذا العطف بأنه قبيح[٨١]؛ فالشأن شيء والمعطوف شيء آخر، فلا ملابسة بينهما، «لأنك تُوهم أن الشأن هو الذي يلتبس بزيد، وإنما يلتبسُ شأن الرَّجل بشأن زيد». وهذا العطف يجعل الكلام غامضاً لا يُدركه السامع بيُسرٍ، وهو الذي أدَّى إلى قُبحه. ولذلك قال سيبويه: «ومن أراد ذلك فهو مُلْغِزٌ تاركٌ لكلامِ النَّاسِ الذي يَسْبِقُ إلى أفئِدَتِهم». فكان لابد في هذه الحالة من جعل الكلام واضحاً، ولذلك اختار سيبويه النصبَ في «عمراً»، على

(٨٠) كتاب سيبويه، ج١، ص ٣٠٧.

(٨١) هذه المسألة من المسائل الخلافية بين البصريين والكوفيين، فقد ذهب البصريون إلى عدم جواز العطف على الضمير المجرور، وذهب الكوفيون إلى جوازه. انظر هذه المسألة في الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري، ج ٢، ص ٤٦٥، المسألة ٦٥.

تقدير فعلٍ، وجعل التقديرَ: «ما شأنُكَ وتناوُلُكَ زيداً»(٨٢).

كانت طريقة سيبويه في النظر إلى التركيب على أنه نسيجٌ واحدٌ يجب أن يترابط بطريقة تؤدّي ما يُقصد منه، فالمعيار الجمالي للتركيب قائمٌ لديه على وضوح المعنى الذي يُظهره التركيب اللغوي، فهو الصورة التي يتبدَّى بها المعنى، وأيُّ خلل في هذه الصورة سيؤدّي إلى خلل في المعنى نفسه، وهذا يُنقصُ من جمالية التركيب، وقد يؤدّي إلى قبحه.

ولعلَّ مسألة وضع الكلام في مواضعه من أكثر المسائل التي تدلُّ على اهتمام هؤلاء الدارسين بترابط العبارة وتناسبها، وقد رأى فيها هؤلاء معياراً لوضوح المعنى وبيان الدلالة، وهي المسألة التي أشار إليها سيبويه، وتحدَّثنا عنها فيما عرضناه في صفات الكلام. وقد أثَّرت هذه المسألة في البلاغيين تأثيراً واسعاً، وهم الذين جعلوها معياراً لجمال العبارة وصحَّة التعبير.

يعني وضع الكلام في مواضعه أن تضع الكلمات داخل التركيب اللغوي في المواضع التي يمكن لها فيها أن تُعبِّر عن المعنى المُراد على نحو صحيح وواضح من غير أن يكون في العبارة لَبسٌ أو اضطراب، فتضع النكرة في مكانها، وكذلك المعرفة، وتستخدم ما تتيحه قواعد اللغة من قدرات لتأدية المعنى من حيث التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير،

(٨٢) راجع تحليل سيبويه لهذه المسائل في الكتاب، ج ١، ص ٣٠٧ – ٣٠٨. وقد قال السيرافي في شرح كتاب سيبويه، ج٢، ص ٢٠٢: " وإنما نصبوا عمراً؛ لأن عمراً هو شريك الكاف في المعنى، ولم يصحَّ العطف عليه؛ لأن الكاف ضمير مخفوضٌ، ولا يجوز عطفُ الظاهر المخفوضِ على المكنيِّ، ولم يصلُح أيضاً رفعه؛ لأنك لو رفعته كنت عاطفاً له على الشأنِ، وليس عمروٌ بشريكٍ للشأنِ، ولا أردتَ أن تجمعَ بينهما، فحُمل الكلام على المعنى، فجُعلَ ما شأنكَ ومالكَ بمنزلة ما تصنعُ ؟ فصار كأَنَّكَ قُلتَ: ما صنعتَ وزيداً).

واستخدام القصر، وأدوات العطف، وغير ذلك مما تُتيحه اللغة لمستخدمها. وهذا ما سماه النُحاة «معاني النحو»، ولا يعني ذلك البحثَ عن الإعراب، بل البحث عما تؤدِّيه الكلمات من معانٍ حين تكون بينها علاقات نحوية. ووضع الكلام في موضعه يؤدي إلى وضوح الكلام وعدمِ اللّبسِ في المعاني، وهذا ما عناه سيبويه حين تطرَّق إلى هذه المسألة. مثال ذلك ما ذكره من أنه «لا يجوز للمعرفة أن تكون حالاً كما تكون النكرة فتلتبسُ بالنكرة». وذلك مثل قولكَ: «هذا أخوكَ عبدَ الله» على أن يكون «عبد الله» اسمه الذي يُعرفُ به، وقد وصف سيبويه هذا الكلام بأنه «خبيثٌ يُوضعُ في غيرِ موضِعِه»؛ وعلَّلَ ذلك بما يتَّفقُ ومقاصد المتكلِّم ويتَّسقُ مع القاعدة اللغوية والمعنى النحوي الذي به يُؤَدَّى المعنى، فقال: «إنما تكون المعرفةُ مبنياً عليها أو مبنيةً على اسم أو غير اسم، وتكون صفةً لمعروفٍ تُبيِّنُه وتؤكِّدُه أو تقطَعُه من غيره، فإذا أردتَ الخبرَ الذي يكون حالاً وقع فيه الأمرُ فلا تضعْ في موضعه الاسم الذي جُعِلَ لِيُوَضِّحَ المعرفةَ أو تَبَيَّنَ به، فالنكرةُ تكونُ حالاً وليست تكونُ شيئاً قد عرَفَه المخاطَبُ قبل ذلك. فهذا أمرُ النكرة، وهذا أمرُ المعرفة، فأجرِهِ كما أجروه، وضع كلَّ شيء موضِعه»(٨٣).

ولما كان معيارَ حسنِ الكلام وقُبحه وضعُ الكلام في مواضعه للدلالة على المعاني فإنَّ وضع المعرفة موضعَ النكرة جعل الصيغةَ اللغوية من الكلام الذي سماه سيبويه «الكلام الخبيث»، لأنه يؤدِّي إلى اللبس.

وقد كانت فكرة سيبويه عن المواضع معياراً للنحاة الآخرين الذين نظروا إلى التراكيب اللغوية وفق ما يجوز أن يوضع في موضعٍ ما أو لا يجوز. وهذا ابن السراج (٣١٦هـ) رفض ما أجازه الكسائي (١٨٩هـ) في مسألة لغوية حيث

(٨٣) كتاب سيبويه، ج ٢، ص ١١٤.

وضع الفعل في موضع الاسم، فأضمر الاسم ووضع الفعل في موضعه كما يُحذف الاسم وتوضع الصفة موضعه؛ مثال ذلك: «نِعمَ الرَّجلُ يقوم، وقام عندك» فيُضمرُ، يريد «نِعمَ الرَّجلُ رجلٌ عندك»، و «نِعم الرَّجلُ رجلٌ قام»، وأنكر ابن السراج هذا، وعلل ذلك بأنه لا يجوز أن يقوم الفعل مقام الاسم، وإنما تقوم الصفات مقامه، والفعل إذا وصفنا به فإنما هو وضع شيء في غير موضعه، فإذا كان وضع الصفة مقام الاسم يُعدُّ من الاتساع في اللغة فكيف نقيم الفعل مقام الاسم(٨٤)؟.

وحين وصلت هذه القضية إلى عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، وهو الإمام في النحو، أعطاها صيغة جماليةً، وجعل حُسنَ الكلام في وضعه في مواضعه، وكان لابد له من أن يعتمد في ذلك على قاعدة تسمح لمن يتَّبعها بأن يُدرك هذه المواضع ويتعرَّفها، فيصوغ كلامه طبقاً لها، ووجد أن «النحو» هو الوسيلة التي بها يتمكن صانع الكلام من أن يصوغ كلامه صياغة جميلة، وحاول أن يستنبط من النحو قوانين أشار إليها الدارسون قبله تتعلق «بمعاني النحو»، وتوسَّع في هذه المعاني التي فصَّل فيها من أجل أن يجعلها أداته المعتمدة لنظم الكلام؛ فقرن بين النظم وعلم النحو فقال: «اعلم أنْ ليس النَّظمُ إلا أن تضع كلامك الوضعَ الذي يقتضيه «علمُ النَّحو»، وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجه التي نُهِجَتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفظَ الرسوم التي رُسِمَت لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها»(٨٥).

ونفهم من كلامه على معاني النحو أن المسألة تتعلق بوضع الكلام في مواضعه، وقد أوضح ذلك من خلال تحديد الوجوه التي يجب على صانع

(٨٤) المسألة في الأصول، ج ١، ص ١١٨ - ١١٩.
(٨٥) دلائل الإعجاز، ص ٨١.

الكلام أن يعتمدها حين يصوغ كلامه، وهي وجوهٌ تتَّصل باستعمال الصِّيَغ والحروف وفق المعاني التي تدلُّ عليها، من أجل أن يكون استعمالها قادراً على التعبير عن مقاصد المتكلِّم، ولا تُدرك هذه المعاني من غير معرفة معمَّقة بالنحو وقواعده التي قرَّرها النحاة.

ففي الخبر لا بدَّ للناظم من أن يعرف وجوه كل بابٍ وفروقه، فيميِّزَ بين العبارات ودلالاتها، فيعرف الفرق بين قولك: «زيدٌ ينطلقُ» و «ينطلقُ زيدٌ»، و «منطلقٌ زيدٌ»، و «زيدٌ المنطلقُ»، و «المنطلق زيدٌ»، و «زيدٌ هو المنطلقُ»، و «زيدٌ هو منطلقٌ». وهي فروق نفهم منها الإخبار بصيغ مختلفةٍ، ولكل صيغة دلالتها. وكذلك الأمر في الشرط والجزاء، ننظر إلى الفروق في التعبير عن المعنى بين عبارات مثل: «إن تخرجْ أخرجْ» و «إن تخرجْ فأنا خارجٌ». والأمر كذلك في الحال حين ننظر إلى الوجوه التي نراها في «جاءني زيدٌ مسرعاً» و «جاءني وهو يُسرع». وهذا ما يتعلّق بالحروف، فنعرفَ الفرق بين معنى «ما» التي لنفي الحال و «لا» التي لنفي الاستقبال، و بين «إن» فيما يترجّح بين أن يكون أو لا يكون و «إذا» فيما هو كائن. وعلى ذلك مواضع الفصل والوصل، والتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإضمار والإظهار. وعلى صانع الكلام أن يضع كل ذلك في موضعه، ويستعمله على الصحة(٨٦).

خلاصة:

كانت دراسات علماء اللغة والبلاغة قائمة على أمرين يكمِلُ أحدهما الآخر، وهما أمر الصحة والوضوح وأمر الحسنِ في الكلام. وقد تجلى أمر الحسن في عدة أمور أهمها التناسب بين الألفاظ والتلاؤم بين المعاني، والعناية

(٨٦) دلائل الإعجاز، ص ٨١ – ٨٢.

بالمبنى والمعنى ونسج الكلام الذي يظهر في التناسب بين العبارات، وقراءة النص وفق قواعد المعنى والنحو، وتناسب الجملة مبنى ومعنى، ووضع الكلام في مواضعه. إن هذه الرؤية الجمالية للكلام والنص تؤسس لطريقة جمالية تقوم على قواعد النحو وحُسن الدلالة في نصوص العربية، ويمكن الأخذ بمعطياتها وتعميقها من أجل الخروج بمنهج جمالي لتحليل النصوص.

* * *

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هـ. ريتر، مكتبة المتنبي، مصر ١٩٧٩م.
- الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٦م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٦١م.
- إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر الأنباري، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧١م.
- بدائع الحكمة، د. عبد الكريم اليافي، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩٩م.
- البديع، ابن المعتز، نشر أغناطيوس كراتشقوفسكي، دار الحكمة، دمشق.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل ودار الفكر، لبنان.

- تاج العروس، الزبيدي، تحقيق: مشترك، وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية.
- الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ودار الجيل، ١٩٨٨م.
- الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر.
- سر الفصاحة، الخفاجي، تحقيق: د. داود غطاشة الشوابكة، دار الفكر ط١، ٢٠٠٦م.
- شرح الكافية البديعية، صفي الدين الحلي، تحقيق: د. نسيب نشاوي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٣م.
- شرح كتاب سيبويه، السيرافي، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م.
- شرح المفصل، ابن يعيش، إدارة المطبعة المنيرية، مصر.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، لبنان، ط٥، ١٩٨١م.
- كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.
- الكليات للكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط١، ١٩٩٢م.
- معجم أصول الفقه، خالد رمضان حسن، دار الطرابيشي للدراسات الإنسانية.
- معجم القراءات، د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.

- مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، وزارة الثقافة، الكويت.
- مفتاح العلوم، السكاكي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان ط١، ٢٠٠٠م.
- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، الأشموني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٧٣م.
- منتهى المدارك في شرح تائية ابن الفارض، الشيخ سعد الدين محمد بن أحمد الفرغاني، ضبط وتصحيح وتعليق: الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، لبنان ط١، ٢٠٠٧م.
- موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، التهانوي، بإشراف د. توفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر ط١، ١٩٧٨ م.

* * *

جهود مجمع اللغة العربية بدمشق
في
علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب

د. يحيى مير علم(*)

الملخّص:

يتناول هذا البحث جهود مجمع اللغة العربية بدمشق في موضوع مهمّ، هو (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) المعروف حديثاً بالـ (الشِّفْرة وكسرها) أو (التشفير) أو (أمن المعلومات)، وذلك مُذْ كان البحثُ عن التعمية وريادة العرب فيها فكرةً إلى أن غدت مشروعاً كبيراً تطلّب تنقيباً في كثير من فهارس المكتبات في بلدان عدّة، وأثمر كشفاً عظيماً، أماط اللثام عن جُملةٍ صالحةٍ من كنوز تراثنا العلمي المخطوط في هذا الموضوع الخطير المنسيّ، الذي غفل عنه أهله، فبقي رهينَ خزائنِ المكتبات في العالم، على أهميته في عصر المعلومات والاتصالات الرقمية والحواسيب والجوّالات ومنصّات التواصل الاجتماعي والشابكة (الإنترنت)،

(*) عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، وأستاذ النحو والصرف في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية التربية الأساسية في الكويت.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٥/ ٩/ ٢٠١٨م.

وعلى ريادة أعلامه العرب وسبقِهم الغربيين بنحو ستة قرون، واضطرارهم إلى إعادة النظر في تأريخ التعمية في حضارات العالم، وإلى الإقرار بريادة العرب فيه. وكان من ثمرات ذلك الكشفِ تحقيقُ نصوصٍ كثيرٍ من مخطوطات التعمية واستخراجها ودراستها، ثم طباعتها في جزأين[١]، ثم ما تبع ذلك من ترجمتهما إلى اللغة الإنكليزية، وطباعتها في ستة أجزاء[٢].

مقدّمات:

١- البداية والاكتشاف:

يرجع الفضلُ في اهتمامنا بعلم التعمية واستخراج المعمّى وريادة العرب فيهما إلى مركز البحوث والدراسات العلمية بدمشق عندما وقف الدكتور محمد مراياتي مدير المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا سابقاً على نصٍّ مهمٍّ لكبير مؤرّخي التعمية البروفسور (ديفيد كان) David Kahn يقول فيه: «وُلِد علمُ التعمية بشقَّيه بين العرب، فقد كانوا أولَ من اكتشف طُرُق استخراج المعمَّى، وكَتَبها ودَوَّنها»[٣] مُعْتَمِداً في ذلك على ما أورده القلقشندي (ت٨٢١هـ) في كتابه المشهور (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) في «باب إخفاء ما في الكتب من السِّرِّ..»[٤] الذي أكثرَ فيه من النقل عن رسالة (مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز) لابن الدُّرَيْهم، ومُعَبِّراً عن بالغ أسفه لفقدان تلك الرسالة المهمّة[٥].

---

(١) صدرا عن مجمع اللغة العربية بدمشق: الأول في عام ١٩٨٧م، والثاني في عام ١٩٩٧م.

(٢) صدرت عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية بعنوان (Series on Arabic Origins of Cryptology) ما بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٧م.

(٣) THE CODE BREAKERS ، ص ٩٣.

(٤) صبح الأعشى، ص ١٢٥-١٣٠، الترجمة (١٥).

(٥) هذا الحكم خاطئ، لأن رسالة ابن الدُّرَيْهم نُشرت مع التحقيق والدراسة في كتابنا (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) ١/ ١٥٦-١٩٦و٣٠٩-٣٦٠.

كانت البدايةُ البحثَ عن مخطوطة (مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز) ومؤلّفها ابن الدُّرَيْهم في المكتبة الظاهرية بدمشق عام (١٩٧٩). وقد تبيّن لنا بعد البحث في الفهارس وكتب التراجم أن المخطوطة لا أثر لها، وأن عليّ بنَ الدُّرَيْهم (ت ٧٦٠ أو ٧٦٢هـ) عالمٌ مشهورٌ كثيرُ التصانيف في الشريعة والعلوم الخفية عامّةً، والتعمية خاصّةً، فانتقلنا إلى مكتبات إسطنبول عام (١٩٨١) وتابعنا البحث عنها وعن غيرها من المخطوطات في التعمية واستخراجها وعلوم العربية نحواً من شهر، فوقفنا على كنز ثمين من المخطوطات، جملتها إحدى عشرة رسالة، صوّرناها بعد طويل معاناة، أهمّها رسالة (مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز) لابن الدُّرَيْهِم، وعدّةُ نسخٍ من رسالة (أسباب حدوث الحروف) لابن سينا[٦]. ثم ظفرنا بما هو أهمُّ من رسالة ابن الدُّرَيْهِم مادّةً، وأقدمُ تاريخاً، وهي (رسالة في استخراج المعمى) ليعقوب بن إسحاق الكندي (ت ٢٦٠هـ)، وبـ (مجموع التعمية) الذي اشتمل على ثماني رسائل، كان أستاذنا العلّامة أحمد راتب النفاخ قد استقدم لنا مصوّرة عنه من صديقه المؤرّخ العلّامة د. فؤاد سزكين. وفي سنة ١٩٨٦م حصلنا على مصوّرة لأهمّ كتاب في التعمية بالأقلام واللغات البائدة، وهو (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) لابن وحشية النبطي (ت٢٦٠ أو ٢٩١ أو ٣١٨ أو نحو٣٥٠هـ) الذي سبق (شامبليون) إلى كشف رموزٍ هيروغلفية بعشرة قرون. يصحّح ذلك أن المخطوط طُبع في لندن عام ١٨٠٦م بعناية (جوزيف هامّر Joseph von Hammer,) (١٧٧٤-١٨٥٦)، وأن

(٦) صدرت عن مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، تقديم الدكتور شاكر الفحام، ومراجعة الأستاذ أحمد راتب النفاخ.

دعوى اكتشاف (شامبليون) حروفاً هيروغليفيةً في الكتابة على حجر رشيد كانت سنة ١٨٢٢م. وفي سنة ١٩٩١م حصلنا على مصوّرات لثلاث مخطوطات في التعمية، هي (حلّ الرموز وبَرْء الأسقام في أصول اللغات والأقلام) لذي النون المصري (ت ٢٤٥هـ)، تشتمل على مئتي قلم، ومخطوط للجِلْدَكيِّ (ت بعد ٧٤٢هـ) يشتمل على سبعين قلماً، ومخطوط ثالث لمجهول[٧].

على أن ثمّة مصوّرات أخرى في التعمية تفضّل بإهدائها لنا بعض أهل العلم، أهمّها (مجموع التعمية) المتقدّم، ومنها (قصيدة ابن الدُّرَيْهِم في حلّ رموز المكاتبات وفهم أقلام المتقدمين)[٨] من مكتبة دار الكتب المصرية، أرسلها د. فتحي صالح إلى صديقه د. محمد مراياتي، ومنها نسختان مصوّرتان من مخطوط (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) لابن وحشية النبطي، أهدانا الأولى أ. محمد عدنان جوهرجي من مكتبته الخاصّة، وأهدانا الثانية أ. محمد الزمامي من المكتبة الوطنية في فيينا، ومنها

(٧) فضل بيان وتفصيل لرحلة البحث والتنقيب عن مخطوطات التعمية واستخراجها واكتشافها في بحث (اكتشاف مخطوطات التعمية والجهود المبذولة فيها) قدّمه د. محمد حسان الطيان في حفل إصدار سلسلة ترجمة كتب علم التعمية عند العرب والمسلمين باللغة الإنجليزية، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض ١٨-١٩/ ١٠/ ٢٠٠٣م.

(٨) قصيدة ابن الدُّرَيْهِم موضوع بحثين للدكتور محمد حسان الطيان، قدّم أولهما (قصيدة ابن الدُّرَيْهِم في حلّ رموز المكاتبات وفهم أقلام المتقدمين) في الندوة العالمية الثامنة لتاريخ العلوم عند العرب، الجوانب المجهولة في تاريخ العلوم العربية، مكتبة الإسكندرية ٢٨-٣٠/ ٩/ ٢٠٠٤م. وقدّم ثانيهما (الكشف عن مخطوطات علم التعمية: قصيدة ابن الدُّرَيْهِم نموذجاً) في المؤتمر الدولي الأول في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الشارقة ٢٤-٢٧، مارس ٢٠٠٨م. ثم نشر تحقيق نصّ القصيدة في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٥٦، الجزء الثاني، نوفمبر ٢٠١٢م.

مصوّرة رسالة (كشف المغمَّى عن أصول المعمَّى) لمحمد مرتضى الزَّبيدي، من المكتبة اليهودية الوطنية بالقدس، وردتنا هديّةً من الشيخ نظام اليعقوبي في البحرين.

٢- التعمية واستخراجها قديماً وحديثاً:

تتنامى أهمية التعمية (الشِّفْرة) واستخراج المعمّى (كسر الشِّفْرة) صُعُداً في عصرنا الذي أصبحت فيه التعمية (التشفير) حجرَ الأساس في مجتمع المعرفة الرقمية والمعلوميات وأمن الاتصالات والحواسيب والشابكة (الإنترنت) ومنصّات التواصل الاجتماعي، فضلاً عن تطبيقاتها الأخرى التي استغرقت جميع العلوم والميادين العلمية والتقنية والتجارية والشؤون المدنية والداخلية والعسكرية والخارجية وغيرها. ولعلّ من نافلة القول الإشارة إلى أن استعمال التعمية قديم جدّاً، اقتضته دواعٍ مختلفةٌ لإخفاء بعض ما يُقال أو يُكتب عن الآخرين، فلا عجب أن تكون حضاراتُ العالم القديم قد عرفت استعمالَ التعمية منذ أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد. على أنّ التعمية لم تَغْدُ علماً مُدَوَّناً في مؤلَّف، يجمع أصولها وقواعدَها وطرائقَها وسُبُلَ استخراجها حتى جاء الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت٢٦٠هـ- ٨٧٤م) ووضع مُصَنَّفه المشهور (رسالة في استخراج المعمّى) الذي أفاد منه، على إيجازه، كلُّ مَنْ جاء بعده، فكان رائداً في تأليف أقدمِ مُدَوَّنةٍ في تاريخ حضارات العالم، وكان جديراً بما وصفوه به أنّه **أبو التعمية** في العالم، إذ سبق رُوّاد التعمية الغربيين بنحو ستة قرون، وعلى رأسهم (ألبرتي Alberti Leon Battista) الإيطالي الذي كتب رسالة باللغة اللاتينية في نحو (٢٥) صفحة سنة ١٤٦٦م.

لقد تأخّر اهتمام الباحثين المعاصرين في التعمية واستخراج المعمّى

(الشِّفْرة وكسرها) على الرغم مما سبق ذكره من أهميّة هذا العلم، ومن ريادة الأعلام العرب في وضع أصول التعمية حتى صدر الجزءُ الأول من كتابنا (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) ١٩٨٧م الذي كان مُخَطّطاً له أن يجيءَ الأولَ في سلسلةِ أجزاءٍ، تتوزّع ما انتهى إلينا من مصوّرات مخطوطات التعمية واستخراجها مشفوعةً بالتحقيق والدراسة، لِتُؤَلِّف من بعدُ موسوعةَ التعميةِ عند العرب.

٣- أسباب نشوء التعمية وتطوّرها عند العرب :

ثمّة أسباب كثيرة أدّت إلى ولادة علم التعمية وتدوينه وتطويره لدى العرب، أهمّها:

أ- نشاطُ حركة الترجمة إبّانَ ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وإنشاءُ الخليفة المأمون لبيت الحكمة، واستقدامُه أشهر المترجمين من العرب والمسلمين وغيرهم، وترجمة كثير مما وُجِدَ في اللغاتِ السريانية والنبطية واليونانية والرومية والفارسية والهندية والأرمنية والعبرية والمُغْلية وبعض اللغات البائدة= اقتضى ذلك دراسةَ تلك اللغات وتبويب حروفها، ومحاولةَ فهم ما فيها من كتابات معمّاة[٩].

ب- تطوّرُ الدراسات اللغوية العربية في النحو والصرف والمعاجم والدلالة والأصوات، والانتشار الواسع للغة العربية = ساعد في تطوير منهجية

(٩) أشهر الأعلام الذين وضعوا مصنّفات في التعمية بالأقلام القديمة: ذو النون المصريّ (ت ٢٤٥هـ) في كتابه (حلّ الرموز وبَرْء الأسقام في كشف أصول اللغات والأقلام)، وأبو القاسم العراقي في رسالته (حلّ الرموز وفتح أقفال الكنوز)، ويعقوبُ الكنديّ (ت٢٦٠هـ) في مُصَنَّفه (رسالة في استخراج المُعَمَّى)، وابنُ وحشيةَ النبطي (بعد ٢٩١هـ) في كتابه (شوق المُسْتَهامِ في معرفةِ رموزِ الأقلامِ)، وجابر بن حيان (ت ٢٠٠هـ) في كتابه (حلّ الرموز ومفاتيح الكنوز)، وابن الدُّرَيْهِم (ت٧٦٢هـ) في رسالتِه (مفتاح الكنوزِ في إيضاحِ المرموزِ).

استخراج المعمّى وطرائقه، من جهة الكمية التي تتطلّب معرفةً بتواتر الحروف، وأطوال الكلمات مجردةً ومزيدةً، وتواتر الحروف أصليةً وزائدةً في مواقع الكلمة، ومن جهة الكيفية التي تتطلّب معرفةً بقوانين ائتلاف الحروف وتنافرها في الكلمة، وبالمستعمل والمهمل، وبوجوه تصرّف الكلمات الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية.

ج- التقدّمُ العلميّ في العلومِ الرياضيةِ أدّى إلى تقدُّمِ عِلْمَي الحسابِ والجبرِ والمقابلةِ لدى العربِ تلبيةً لاحتياجات الدولة الإسلامية في حسابات الإرْث، وتقسيم الأراضي، والزكاة، وأعمال الهندسة، والفلك، وتحديد أوقات الصلوات والعبادات وغيرِها.

د- ازدهارُ علوم الإدارة والدواوين والإنشاء تلبيةً لاحتياجات الإدارة في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف = أدّى إلى تطوّر الدواوين، وشيوع صنعة الكتابة، ووفرة الكُتَّاب، وازدهار الترسُّل. وكان طبيعيّاً أن يشتملَ بعضُ ما يُكتبُ أو يُرسَلُ على شيءٍ توجِبُ الضرورةُ كتمانَه أو تعميتَه، مما اقتضى الممارسةَ العمليةَ للتعمية واستخراجها، ونشوءَ مهنة كاتب السرّ أو كاتب الجيش[١٠].

هـ- انتشارُ القراءة والكتابة والحفظ في أرجاء العالم الإسلامي،

(١٠) أشهر العلماء الذين جمعوا بين علوم الإدارة والتعمية في مُصَنَّفاتِهم: أبو بكر الصولي (ت٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) في كتابه (أدب الكُتّاب)، وحمزةُ بنُ الحسن الأصبهاني (ت٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) في كتابه (التنبيه على حدوث التصحيف)، وإسحاق بن وهب الكاتب (ق ٤هـ/ ١٠م) في كتابه (البرهان في وجوه البيان)، وأبو هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) في كتابه (ديوان المعاني)، وأسعد بن مَمَّاتي (٥٤٤-٦٠٦هـ) في كتابه (خصائص المعرفة في المعمّيات)، وابنُ نُباتة (٦٨٦-٧٦٨هـ) في كتابه (ترسُّل ابن نباتة)، وابنُ خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) في تاريخه (العبر) و(المقدمة) المشهورة، والقلقشندي (٧٥٦-٨٢١هـ) في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) ٩/ ٢٢٩-٢٤٨.

وتشجيعُ الخلفاء والأمراء والقادة والأعيان عليها، ورصدُهم الجوائز لها. وأظهر ما تجلّى ذلك في حفظ متون العلوم الشرعية واللغوية وغيرها منظومةً ومنثورةً، وأمثلة هذا من الكثرة بمكان، تغني الإشارة إليها عن نصب الأدلّة والشواهد لها.

و- تعرّضُ العالم الإسلامي للغزو المغولي من الشرق والحروب الصليبية(*) من الشمال أدّى إلى نشاط التعمية واستخراج المعمّى بين القادة وأولي الأمر في أرجاء العالم الإسلامي تلبيةً لاحتياجات الدولة والقادة في الحروب والمعارك التي كانوا يخوضونها(١١).

٤- طرائق التعمية ومبادئ استخراج المعمّى:

- **طرائق التعمية**: هي الخوارزميات أو العمليات التي تُطَبَّق على النصّ الواضح لتحويله إلى نصٍّ معمّى. وأهمّها التعمية بالقلب أو البعثرة، والتعمية بالإبدال أو الإعاضة.

- التعمية بالقلب أو البعثرة: تقوم على تغيير مواقع حروف النصّ الواضح وفق قاعدة معينة.
- التعمية بالإبدال أو الإعاضة: يُستبدل فيها بكلِّ حرفٍ شكلٌ أو رمزٌ وفق قاعدةٍ محدَّدة، كأن يُستبدل بكلّ حرفٍ الحرفُ الذي يليه على ترتيب (أبجد هوز) أو حساب الجُمَّل إلخ...
- التعمية المركبة: وتكون باستعمال طريقتين أو أكثر من طرائق التعمية المتقدّمة، وينتج عن تطبيق ذلك عدد كبير جدّاً من أساليب التعمية.

(*) يُفضَّل استخدام مصطلح (حروب الفرنجة) أو الغزو الفرنجي دون الحروب الصليبية؛ لأنه مصطلح المؤرخين العرب المسلمين. [المجلة]

(١١) فضل بيان وتفصيل لذلك في كتاب (علم التعمية) ١/ ٢٤-٢٦.

- **مبادئ استخراج المعمّى**: يعود استخراج المعمّى إلى ثلاثة مبادئ أساسية:
  - استعمال الصفات الكمية للحروف: وذلك بمعرفة تواتر الحروف في النصوص، ومقابلتها بمراتب الرموز المستعملة في الرسالة المعمّاة. ويُعَدّ الكنديُّ أولَ مَنْ كتب عن هذا المبدأ، أي قبل (ألبيرتي) (Alberti) صاحب أول رسالة في التعمية بستة قرون.
  - استعمال الصفات الكيفية للحروف: وذلك بمعرفة أحكام بنية الكلمة، والأصليّ والزائد من حروفها، وما يقارِن غيرَه من الحروف، وما لا يقارنه، وما يَكثُرُ دورانُه من الثنائيات والثلاثيات، وما يكثر دورانه في أوائل الكلمات وأواخرها.
  - استعمال الكلمة المحتملة: وذلك بمعرفة الكلمات التي يُحتمَل وجودها في النص، مثل فواتح الرسائل وخواتمها. ويُعَدّ الكنديُّ أوّلَ مَنْ نبَّه على هذه الفواتح قبل رسالة (بورتا) (Porta) في القرن ١٦م.

أمّا استخراج المعمّى المنظوم (الشعر) فيحتاج إضافةً إلى ما سلف من المبادئ معرفةً بالقوافي، والعَروض، والرَّوِيّ، والتشاطير، وعددِ حروف البيت، والحروفِ الصامتة والمصوّتات الطويلة والقصيرة[١٢].

٥- ريادة العلماء العرب في التعمية واستخراجها:

استمرّت جهود العرب العلمية في التعمية واستخراجها (الشفرة وكسرها) نحواً من ستة قرون، فكانت مدرسةً عربيةً رائدةً في هذين العِلْمَين[١٣]. أمّا

(١٢) كتاب (علم التعمية) ١/ ٤٢-٤٤، وبحث (علم التعمية في التراث العربي) للأستاذ مروان البواب، المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق (نحو رؤية معاصرة للتراث) ٩/ ١١/ ٢٠٠٩م.

(١٣) أكّد هذا كلٌّ من الدكتور محمد مراياتي في بحث (العوامل المؤثرة في نشأة وريادة علوم التعمية عند العرب وتأثيرها في تطور هذه العلوم عالميّاً)، وبحث (الجديد في اكتشاف المدرسة العربية في علوم التعمية واستخراج المعمّى أو الشفرة وكسرها)، وبحث (أمن =

بدايتها فترجع إلى شيخ العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ/ ٧٨٦م) الذي نُسِب إليه استخراجُ معمّى كتابٍ ورد إليه من بعض اليونان، فخلا به شهراً حتى فهمه، ثم وضع كتاباً في المعمّى(١٤). وقد استمرّت تلك المدرسة العربية في التعمية (التشفير) حتى عصر الموسوعات العلمية مثل كتاب (صُبْح الأعشى) لأحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ).

فالتعمية (التشفير) علمٌ عربيٌّ ولادةً ونشأةً وتطوّراً، إذ سبق أعلامُ التعمية العرب إلى تدوينه، وإرساء أُصوله، وصَوْغ مبادئه وقواعده، ووضع مصطلحاتِه، وابتداع منهجياتِه، ومعالجة سُبُل استخراجه (خوارزمياته). وقد شهد بذلك أشهر مؤرّخي التعمية في العالم البروفسور الأمريكي (ديفيد كان) David Kahn في كتابين له: الأول (أسرار علم التعمية الجديد) قال فيه:

«..اطّلعتُ على مقالٍ نُشر في مجلة الدراسات الساميَّة... بيَّن أن العربَ مارسوا استخراج المعمّى قبل الغرب بزمنٍ طويل. ووفَّر لي هذا المقالُ ما أَعُدُّه أكبرَ فتحٍ تاريخيٍّ في كتابي كلِّه...»(١٥).

= المعلومات: التعمية واستخراج المعمّى أو الشفرة وكسرها). والدكتور محمد السّويّل في بحث (إسهام المسلمين والعرب في علوم التعمية وكسر المعمّى)، وبحث (علم التشفير عند العرب). والأستاذ مروان البواب في بحث (علم التعمية في التراث العربي). والبروفسور الأمريكي (ديفيد كان) David Kahn في كتابه (أسرار علم التعمية الجديد): Kahn On Codes: Secrets of the New Cryptology صفحة ٢١ و٤١ و٢٨٤، وكتابه (مستخرجو المعَمَّى) THE CODEBREAKER صفحة ٩٣. وانظر ملحق كتاب (معجم أعلام التعمية واستخراج المعمى في التراث العربي والإسلامي) ص ٣١٧-٣٢٠.

(١٤) تفصيل ذلك موثقاً بالإحالة على المصادر والمراجع في كتابنا (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) ١/ ٤٩، و(معجم أعلام التعمية واستخراج المعمّى في التراث العربي والإسلامي) ١٧٢-١٧٥.

(١٥) كتاب (أسرار علم التعمية الجديد) Secrets of the New Cryptology ص ٢١.

وقال: «... فالعربُ هم الذين اكتشفوا مبادئ استخراج المعمّى، إلا أن معرفتهم تقلّصت مع أُفول حضارتهم، ولم يكتشف الغربُ استخراجَ المعمّى من جديد إلّا في عصر النهضة...»[١٦].

وقال: «...لقد طوّر المسلمون معرفةً نظريةً في استخراج المعمّى، تَنِمُّ عن ممارستهم العملية لاعتراض المراسلات، واستخراجِ تعميتها...»[١٧].

وقد مضى في صدر المقال ما قاله في كتابه الثاني (مستخرجو المُعَمَّى) قال فيه: «... لقد وُلِدَ علم التعمية بشقَّيْه بين العرب؛ إذ كانوا أولَ من اكتشف طُرُق استخراج المعمَّى ودوَّنها...»[١٨].

جهود مجمع اللغة العربية في علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب

حظي مشروع تحقيق مخطوطات التعمية ودراستها باهتمام مجمع اللغة العربية بدمشق، فصدر الجزء الأول ضمن مطبوعات المجمع بعنوان (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) سنة ١٩٨٧م في ٤٣٨ صفحة، اشتمل على تقديم بقلم رئيس المجمع الدكتور شاكر الفحام وتوطئة وثلاثة أقسام[١٩].

---

(١٦) المرجع نفسه ص ٤١.

(١٧) المرجع نفسه ص ٢٨٤.

(١٨) كتاب (مستخرجو المعمّى) THE CODE BREAKER ص ٩٣.

(١٩) تضمّن القسم الأول منها الدراسة التحليلية للتعمية عند العرب، وقد جاءت في خمسة أبواب، اختصّ الأول منها بتقدّم علم التعمية عند العرب وأسبابه، وتناول ثانيها مصطلحات التعمية واستخراجها، وتضمّن ثالثها المبادئ العامة للتعمية واستخراجها، وعرض رابعها لتاريخ التعمية، وبيّن خامسها أوجه العلاقة بين التعمية وغيرها من =

ولمّا تأخّرنا في إنجاز تحقيق رسائل الجزء الثاني ودراستها كان رئيس المجمع يحثّنا في كلّ مناسبة على الإسراع في ذلك، إلى أن استوى العملُ قائماً تحقيقاً ودراسةً، فصدر الجزء الثاني من كتاب (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) في (٤٧٥) صفحة ضمن مطبوعات المجمع، وقد اشتمل على تقديمٍ بقلم رئيس المجمع الدكتور شاكر الفحام وتوطئة وتمهيد وثلاثة أقسام(٢٠).

= العلوم. وأمّا القسم الثاني فاستقلّ بتحليل الرسائل المحقّقة، وكان قوامه أربعة أبواب، وقفنا أولها على التعريف بأصحاب الرسائل المخطوطة: يعقوب بن إسحاق الكندي (ت ٢٦٠هـ) وعليّ بن عَدْلان النحوي (ت ٦٦٦هـ) وعليّ بن الدُّرَيْهم (ت ٧٦٢هـ)، وجعلنا ثانيها لدراسة مُصَنّف الكندي (رسالة في استخراج المعمّى)، واختصّ ثالثها بدراسة مخطوطة ابن عَدْلان (الْمُؤَلَّف للملك الأشرف)، وانفرد رابعها بدراسة رسالة ابن الدُّرَيْهم (مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز). واستغرق القسم الثالث تحقيق نصوص الرسائل الثلاث المتقدّمة، وقد انتظمته ثلاثة أبواب، استقلّ كلّ منها بواحدة من تلك الرسائل. وأتبعنا ذلك بملحق لأشهر أعلام المعمّى البديعي وآثارهم، ثم بقائمة المصادر والمراجع، ثم بالفهارس الفنية التفصيلية.

(٢٠) قوام كلّ قسمٍ منها ثلاثة فصول. أمّا التمهيد فعرض لأهمية التعمية والكشف عن مخطوطاتها، واستقلّ القسم الأول بتحقيق مخطوطات تعمية المنثور ودراستها، وجاء في بابين، اختصّ أولهما بـ (المقالتين)، واشتمل على ثلاثة فصول، تضمّن أولها دراسة المقالتين: الأولى في حلّ التراجم المسهَّلة، والثانية في استنباط التراجم العويصة، وبيان جوانب الأصالة فيهما، وثانيها لوصف مخطوط المقالتين ونماذج مصوّرة منه، واستقلّ ثالثها بالنصّ المحقّق للمقالتين. وجعلنا الباب الثاني للتعمية في كتاب (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب الكاتب، وجاء في ثلاثة فصول، أولها لدراسة رسالة ابن وهب وبيان جوانب الأصالة فيها، وثانيها لوصف مخطوط ابن وهب ونماذج مصوّرة منه، وثالثها للنصّ المحقّق من رسالة ابن وهب. وأمّا القسم الثاني فوقفناه على تعمية المنثور والمنظوم، وهو كتاب ابن دُنَيْنير (مقاصد الفصول المترجمة عن حلّ الترجمة)، واشتمل على أربعة فصول، أولها لترجمة ابن دُنَيْنير، وثانيها لدراسة كتابه =

وثمّة جزء ثالث أفردناه للتعمية بالأقلام القديمة في الحضارات البائدة، وجعلناه وقفاً على تحقيق ودراسة كتاب (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) لعلي بن وحشية النبطي الذي أودعه نحواً من تسعين قلماً وأبجدية، استعملتها حضارات العالم القديم، لَمّا يُطبع بعدُ.

أولاً: جهود أعضاء المجمع العاملين في التعمية واستخراج المعمّى عند العرب:

مضت الإشارة إلى أن المجمع حاز قَصَب السَّبْق في الاهتمام بعلم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب، واستغرق ذلك الرئاسةَ، وأعضاءً عاملين، ومراسلين، فهو أسبق الهيئات العلمية التي أسهمت في دعمه ونشره، وإليه ينتمي جلُّ المشاركين والباحثين والمهتمين، بيان ذلك فيما يأتي موزّعاً على ما سبق:

= المتقدّم وبيان جوانب الأصالة فيه، وثالثها لوصف المخطوط ونماذج مصوّرة منه، ورابعها للنصّ المحقّق من كتابه. وأمّا القسم الثالث فقصرناه على دراسة تعمية المنظوم وتحقيق مخطوطاته، وقد توزّعته أربعة أبواب، تضمّن الباب الأول منها رسالة أبي الحسن بن طباطبا التي جاء الحديث عنها منجّماً على أربعة فصول، أولها لترجمة أبي الحسن بن طباطبا، وثانيها لدراسة رسالته، وثالثها لوصف المخطوط ونماذج مصوّرة منه، ورابعها للنصّ المحقّق من رسالته. وجعلنا الباب الثاني لرسالة في استخراج المعمّى من الشعر مجرّدة من كتاب (أدب الشعراء)، وانقسم الحديث عنها إلى ثلاثة فصول، أولها لدراسة هذه الرسالة، وثانيها لوصف المخطوط ونماذج مصوّرة منه، وثالثها للنصّ المحقّق من تلك الرسالة. وأمّا الباب الثالث فجعلناه وقفاً على كتاب الجُرْهُمي ورسالته، وجاء الحديث عنه مثل سابقه في ثلاثة فصول، أولها لدراسة مخطوطَي الجُرْهُمي، وثانيهما لوصف المخطوطين ونماذج مصورة منهما، وثالثها للنصّ المحقّق من المخطوطين. وختمنا الكتاب بملحق ضمّ أبياتاً جمعت حروف المعجم، وأبياتاً وُضعت للمعاياة مُسْتَلّةً من جميع المخطوطات، تلا ذلك قائمة بالمراجع والمصادر، ثم الفهارس الفنية التفصيلية.

١- الأستاذ الدكتور شاكر الفحام (ت٢٠٠٨م):

حظي مشروع تحقيق مخطوطات التعمية ودراستها وطباعتها باهتمام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ الدكتور شاكر الفحام ورعايته وتشجيعه ومتابعته إلى أن تحقّق ذلك، وأتمّ فضله علينا رحمه الله فكتب تقديماً للجزء الأول من كتاب (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) الذي صدر عن المجمع سنة ١٩٨٧م[٢١]، أوفى فيه على الغاية في بيان أهمّيّة علم التعمية واستخراجها، وتذليل صعوبته، وتوضيح دلالته، وإعانة القارئ على فهم طرائق التعمية وسُبُل استخراجها، وريادة العرب فيهما. وكتب أيضاً تقديماً مهمّاً للجزء الثاني من الكتاب نفسه الذي صدر عن المجمع في ١٩٩٧م[٢٢]، بيّن فيه أهميّة موضوع التعمية، وقيمة الكشف عن مخطوطاتها، وتحقيقها ونشرها، والتذكير بما لقيه الجزء الأول من صدى لدى المهتمين والباحثين.

٢- الأستاذ العلّامة أحمد راتب النفاخ (ت١٩٩٢م):

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، كان رحمه الله صاحب فضل كبير على بدايات عدد من المشاريع العلمية اللغوية والإحصائية والصوتية في اللغة العربية في مركز الدراسات والبحوث العلمية؛ فقد كان أول مَن وضع أسسها، ورسم خططها، وأعدّ جداولها، وباشر تجاربها، واستقدم اثنين، اختارهم من طلبته في دبلوم الدراسات العليا - الشعبة اللغوية للعمل في مجموعة اللغة العربية بالمركز[٢٣]. وقد مضت الإشارة إلى كبير فضله علينا

(٢١) تقديم الجزء الأول من كتاب (علم التعمية) ١/ ٥-٧.

(٢٢) تقديم الجزء الثاني من كتاب (علم التعمية) ١/ ١١-١٤.

(٢٣) هما كاتب البحث يحيى مير علم ومحمد حسان الطيان سنة ١٩٧٨م عملا بإشرافه ومشاركته وحضوره إلى المركز يوماً كلّ أسبوع.

بالكتابة إلى صديقه المؤرّخ العلّامة الدكتور فؤاد سزكين للمساعدة في البحث عن مخطوطات في التعمية واستخراجها، فاستقدم لنا منه مجموعاً قيّماً، يضمّ ثماني رسائل. وكان أستاذنا أحمد راتب النفاخ رحمه الله أول مَن أسهم في تحقيق رسائل الجزء الثاني من كتاب التعمية، فقد نسخ الجزء الأكبر من كتاب ابن دُنَيْنير، ثم حالت حوائل دون التمام والاستمرار[٢٤].

٣- الأستاذ الدكتور عبد الله واثق شهيد (ت٢٠١٥م):

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق وأمينه لاحقاً، والمدير العام لمركز الدراسات والبحوث العلمية سابقاً، عالم فيزيائي كبير. مضى الإلماع إلى أنه رحمه الله كان له فضلُ السَّبْق في الاهتمام بالتعمية واستخراجها عند العرب، ودعمِ فريق العمل وتوفيرِ جميع متطلبات البحث عن مخطوطاته، واستقدام مصوّراتها، ثم تحقيقها ودراستها، ونشرها لاحقاً بالتعاون مع المجمع، وهو ما كان.

٤- الأستاذ مروان البواب:

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، باحث يعمل في حقل الرياضيات والمعلوماتية ومعالجة اللغة العربية بالحاسوب والمعاجم، وهو يجمع بين الدراية الفنية والخبرةِ التراثية في التعمية واستخراجها؛ فقد وضع برنامجاً حاسوبيّاً لكسر الرسائل المشفَّرة بطريقة (فيجونيير). وكان رئيساً لمجموعة اللغة العربية في المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا ومشاركاً ومبرمجاً في إنجاز التطبيقات الحاسوبية على اللغة العربية، وهي المجموعة التي عُهد إلى اللغويين فيها بالبحث عن مخطوطات التعمية، وجلب مصوّراتها وتحقيقها ودراستها وطباعتها، والتي كانت بإشراف الدكتور

(٢٤) انظر مقدمتَي كتاب (علم التعمية) ١/ ١٨-١٩ و ٢/ ١٨.

محمد مراياتي مدير المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا ومشاركته. لذلك كان للأستاذ مروان البواب أيادٍ بيضاء وجهود علمية متقاطرة على مشروع التعمية عامّةً، وعلى الجزء الثاني خاصّةً، فقد «قرأ الكتاب، وأبدى عليه ملاحظاتٍ دقيقةً وقيّمةً، أغنته ونفت عنه كثيراً من زيغه، وشارك في تصحيحه، وإعداد فهارسه»[٢٥]. وله جهود علمية كثيرة في التعمية[٢٦]:

- بحث (علم التعمية في التراث العربي) المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق (نحو رؤية معاصرة للتراث) ٩/ ١١/ ٢٠٠٩م.
- المشاركة في المراجعة العلمية للترجمة الإنكليزية لكتاب (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) بجزأيه الأول والثاني الموسومة بعنوان (Series on Arabic Origins of Cryptology) التي صدرت ما بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٧ في ستة أجزاء. وقد اشتملت الأجزاء الستة المشار إليها على ترجمة لنصوص الرسائل المخطوطة ودراستها وتحليلها. استقلّ كلّ منها برسالةٍ مخطوطة أو أكثر، وهذه هي الأجزاء الستة مقرونةً باسم الرسالة المخطوطة المحقّقة التي تضمنها كلٌّ منها، واسم مؤلّفها، وتاريخ النشر:

١- الجزء الأول: (رسالة الكندي في استخراج المعَمّى) يعقوب ابن إسحاق الكندي، ٢٠٠٣م.
٢- الجزء الثاني: رسالة (المؤلّف للملك الأشرف) علي بن عَدْلان النحوي، ٢٠٠٤م.
٣- الجزء الثالث: رسالة (مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز) علي بن الدُّرَيْهِم، ٢٠٠٤م.

(٢٥) مقدمة الجزء الثاني من كتاب (علم التعمية) ٢/ ١٨.
(٢٦) انظر ملحق كتاب (معجم أعلام التعمية) ص ٣٢٠.

٤- الجزء الرابع: رسالة (مقاصد الفصول المترجمة عن حلّ الترجمة) إبراهيم بن دُنَيْنير، ٢٠٠٥م.

٥- الجزء الخامس: (ثلاث رسائل في استخراج المعمّى من الشعر)، ٢٠٠٦م.

٦- الجزء السادس: (من كتاب البرهان في وجوه البيان) لابن وهب الكاتب، ٢٠٠٧م.

- المشاركة في بحث (نحو معجم لمصطلحات التعمية) المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق، قضايا المصطلح العربي، دمشق ١٠-١٢/ ١٠/ ٢٠٠٤م.
- مراجعة كتاب (معجم أعلام التعمية واستخراج المعمى في التراث العربي والإسلامي) لكاتب البحث في صورته الأولى قبل إغنائه، وتسجيله ملاحظاتٍ علميةً قيّمة[٢٧].

٥- الأستاذ الدكتور مكي الحسني:

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق وأمينه، عالم فيزيائي لغوي، له من الجهود العلمية في التعمية[٢٨]:

- مقال عنوانه (من المكتبة العربية: عِلم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٣، الجزء الأول، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م، ص ١٥٩- ١٧٦.
- مراجعة كتاب (التعمية التطبيقية)، الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية، دمشق ٢٠٠٦م.

(٢٧) انظر مقدمة كتاب (معجم أعلام التعمية) ص ١٦.

(٢٨) انظر ملحق كتاب (معجم أعلام التعمية) ص ٣٢١.

٦- الأستاذ الدكتور موفق دعبول:

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، عالم رياضي، له جهود علمية في التعمية[٢٩]:

- بحث (التعمية واستخراج المعمى: الشيفرة وفكّ الشيفرة) فعاليات الملتقى السوري التونسي، نيسان، ٢٠١٥م.
- مقال (التعمية واستخراج المعمى: الشيفرة وفكّ الشيفرة) مجلة جامعة دمشق، دوائر الإبداع، العدد الثالث، ٢٠١٥م.

ثانياً: جهود أعضاء المجمع المراسلين في علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب:

١- الأستاذ الدكتور محمد مراياتي:

عضو مراسل في مجمع اللغة العربية، ومدير المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا في مركز الدراسات والبحوث العلمية سابقاً، وخبير في العلوم والتقنية للتنمية المستدامة في منظمة (الإسكوا). وهو يجمع بين الدراية الفنية والتقنية المعاصرة في التعمية واستخراجها (الشفرة وكسرها) والخبرة التراثية في تحقيق مخطوطاتها ودراستها، إذ كان صاحب فكرة مشروع التعمية، ومشرفاً عليه، ومشاركاً فيه. له جهود علمية كثيرة في التعمية[٣٠]:

- المشاركة في كتاب (علم التعمية واستخراج المعمَّى عند العرب) مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزءان: الأول ١٩٨٧م، والثاني ١٩٩٧م دراسة وتحقيقاً.
- المشاركة في تحقيق ودراسة كتاب (شوق المستهام في معرفة

(٢٩) انظر ملحق كتاب (معجم أعلام التعمية) ص ٣٢١.

(٣٠) انظر ملحق كتاب (معجم أعلام التعمية) ص ٣١٨-٣١٩.

رموز الأقلام) لابن وحشية النبطي، وهو الجزء الثالث من كتاب (علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب) (لم يطبع).

- المشاركة في كتابة بحث (التعمية واستخراج المعمّى) للموسوعة العربية، دمشق، المجلد ٦، ط.أولى، ٢٠٠٢م.
- بحث (العوامل المؤثرة في نشأة وريادة علوم التعمية عند العرب وتأثيرها في تطور هذه العلوم عالميّاً) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، الرياض،٢ مارس ٢٠١٧م.
- بحث (ابن دُنَيْنير وكتابه: مقاصد الفصول المترجِمة عن حلّ الترجَمة) الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة، ١٩٩٦م.
- المشاركة في بحث (نحو معجم لمصطلحات التعمية) المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق، قضايا المصطلح العربي، دمشق ١٠-١٢/ ١٠/ ٢٠٠٤م.
- بحث (الجديد في اكتشاف المدرسة العربية في علوم التعمية واستخراج المعمّى أو الشفرة وكسرها) ندوة التراث العلمي العربي، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٧أبريل ٢٠١٣م، المؤتمر السعودي الدولي للثقافة العلمية ٢٠١٣م.
- بحث (أمن المعلومات: التعمية واستخراج المعمّى أو الشفرة وكسرها) تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الألكسو ٢٠١٢م.

- بحث (علوم التعمية: الشفرة وكسرها في التراث العربي) مركز مؤسسة الملك فيصل الخيرية، ١٤٢٢هـ، تقديم الدكتور إبراهيم القاضي.

٢- الدكتور محمد حسان الطيان:

عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، وباحث في مجموعة اللغة العربية في مركز البحوث والدراسات العلمية سابقاً، ومشارك في مشروع التعمية واستخراج المعمّى، له جهود علمية كثيرة في التعمية[٣١]:

- المشاركة في كتاب (علم التعمية واستخراج المعمَّى عند العرب) مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزءان: الأول ١٩٨٧م، والثاني ١٩٩٧م دراسة وتحقيقاً.
- المشاركة في كتاب (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) لابن وحشية النبطي، وهو الجزء الثالث من كتاب (علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب) (لم يطبع) دراسة وتحقيقاً.
- تحقيق قصيدة (ذات القوافي) لابن الدُّرَيْهم، حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت ٢٠٠٤م.
- المشاركة في بحث (علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب) الندوة العلمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، سورية، حلب ٢١-٢٥ نيسان ١٩٨٦م.
- المشاركة في بحث (أصالة العرب في علم التعمية واستخراج المعمَّى)، ندوة التراث العلمي العربي للعلوم الأساسية، طرابلس، ليبيا، ١٧-٢٠ كانون الأول،١٩٩٠م.
- المشاركة في بحث (مقاصد الفصول المترجمة عن حلّ الترجمة

(٣١) انظر ملحق كتاب (معجم أعلام التعمية) ص ٣١٤-٣١٧.

لابن دُنَيْنير)، الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة ١٩٩٦، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد (٤) ١٩٩٧م.

- بحث (ابن الدُّرَيْهم وجهوده في علم التعمية-التشفير)، أسبوع العلم الثامن والثلاثون، جامعة البعث، حمص، ٧-١٢ تشرين الثاني ١٩٩٨م.
- بحث (اكتشاف مخطوطات التعمية والجهود المبذولة فيها)، حفل إصدار سلسلة ترجمة كتب علم التعمية عند العرب والمسلمين باللغة الإنجليزية، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض ١٨-١٩/ ١٠/ ٢٠٠٣م.
- بحث (قصيدة ابن الدُّرَيْهِم في حلّ رموز المكاتبات وفهم أقلام المتقدمين)، الندوة العالمية الثامنة لتاريخ العلوم عند العرب، الجوانب المجهولة في تاريخ العلوم العربية، مكتبة الإسكندرية ٢٨-٣٠/ ٩/ ٢٠٠٤م.
- المشاركة في بحث (نحو معجم لمصطلحات التعمية) المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق، قضايا المصطلح العربي، دمشق ١٠-١٢/ ١٠/ ٢٠٠٤م.
- بحث (الكشف عن مخطوطات علم التعمية: قصيدة ابن الدُّرَيْهِم نموذجاً)، المؤتمر الدولي الأول في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الشارقة ٢٤-٢٧، مارس ٢٠٠٨م.
- بحث (علم التعمية ..والمخطوطات المطويّة: مقاصد الفصول المترجِمة عن حلِّ الترجَمة نموذجاً)، المؤتمر الدولي الخامس لمركز المخطوطات، المخطوطات المطويّة، ٦-٨، مايو ٢٠٠٨م.

- مقال (ابن الدُّرَيْهم وجهوده في علم التعمية) مجلة البيان، العدد ٣٦٢، سبتمبر ٢٠٠٠م.
- مقال (ذات القوافي) قصيدة لابن الدُّرَيْهِم، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٧٧،ج٢، ٢٠٠٢م.
- بحث (مخطوطات التعمية في تراثنا)، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٤٧، الجزء الثاني، رمضان ١٤٢٤هـ/ نوفمبر ٢٠٠٣م.
- مقال (ريادة العرب في علم التعمية واستخراج المعمّى)، مجلة التقدم العلمي، العدد ٥٧، يونيو ٢٠٠٧م.
- تحقيق (قصيدة ابن الدُّرَيْهِم في حلّ رموز المكاتبات)، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٥٦، الجزء الثاني، نوفمبر ٢٠١٢م.

٣- الدكتور يحيى مير علم:

عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، وباحث في مجموعة اللغة العربية في مركز البحوث والدراسات العلمية سابقاً، ومشارك في مشروع التعمية واستخراج المعمّى، له جهود علمية كثيرة في التعمية[٣٢]:

- (معجم أعلام التعمية واستخراج المعمّى في التراث العربي والإسلامي)[٣٣]، مجلة الوعي الإسلامي، إدارة الشؤون الثقافية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الإصدار (١٦٧)، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
- المشاركة في كتاب (علم التعمية واستخراج المعمَّى عند العرب) مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزءان: الأول ١٩٨٧م، والثاني ١٩٩٧م دراسة وتحقيقاً.

(٣٢) انظر ملحق كتاب (معجم أعلام التعمية) ص ٣٢٢-٣٢٤.

(٣٣) فضل بيان وتفصيل للكتاب وأهمّيته وريادته ومنهج إعداده وموضوعاته وتراجمه في مقال قادم إن شاء الله.

- المشاركة في تحقيق ودراسة كتاب (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام)، ابن وحشية النبطي، وهو الجزء الثالث من كتاب (علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب) (لم يطبع).
- مقال (ابن وحشية النبطي وريادته في كشف رموزٍ هيروغليفية في كتابه: شَوْق المسْتَهام في معرفة رموز الأقلام)، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م ٧٩، ج ٤، ص ٧٣٥-٧٦٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- بحث (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام: أقدم مخطوط كشف رموزاً هيروغلفيةً لابن وحشية النبطي)، الندوة الدولية الثامنة لتاريخ العلوم عند العرب (الجوانب المجهولة في تاريخ العلوم العربية)، مكتبة الإسكندرية (٢٨-٣٠/ ٩/ ٢٠٠٤م).
- بحث (إسهامات علماء التعمية في اللسانيات العربية)، ندوة متخصّصة، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٣م بعد الاحتفال بإصدار سلسلة الترجمة الإنكليزية لكتاب (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٣م.
- مقال (إسهامات علماء التعمية في اللسانيات العربية)، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م ٧٩، ج٣، ص (٥٢١- ٥٤٦) ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- بحث (معجم أعلام التعمية واستخراج المعمّى في التراث العربي والإسلامي)، المؤتمر الدولي الأول في تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين (أثر العلوم العربية والإسلامية في مسيرة الحضارة الإنسانية)، جامعة الشارقة ٢٤- ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٨م.
- المشاركة في بحث (نحو معجم لمصطلحات التعمية)، المؤتمر

الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق، قضايا المصطلح العربي، دمشق ١٠-١٢/ ١٠/ ٢٠٠٤م.

- المشاركة في بحث (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب)، الندوة العلمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، حلب ٢١-٢٥/ ٤/ ١٩٨٧م.

الخاتمة:

إنّ جميع ما تقدّم بيانه من تحقيقِ مخطوطاتِ التعمية واستخراجها ودراستها، وطباعتها في جزأين، ثم ترجمتها إلى الإنكليزية، وطباعتها في ستة أجزاء، وما رافق ذلك من جهود علمية مختلفة (بحوث ودراسات ومحاضرات) لفريق العمل وغيرهم من المشاركين والمهتمّين، نُشرت في دوريات متخصّصة، أو قُدّمت في ندوات ومؤتمرات، لا يعني كلُّ ذلك على أهميته أن موسوعة التعمية العربية قد استوفت جميع متطلباتها، بل ما زالت تحتاج إلى بذل مزيد من الجهود العلمية لفريق العمل، وذلك لإنجاز:

١- الجزء الثالث المخصّص للتعمية بالأقلام البائدة، والمتضمّن كتاب ابن وحشية (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) وطباعته، ليكتمل به تحقيقُ تراث التعمية عند العرب.

٢- كتاب (معجم مصطلحات عِلْمَي التعمية واستخراج المعمّى عند العرب) الذي سيتضمّن جميعَ ما ورد في المخطوطات من مصطلحات التعمية واستخراجها مع مقابلاتها في اللغتين الإنكليزية والفرنسية[٣٤].

(٣٤) كلاهما ممّا ذكره الأستاذ مروان البواب عضو مجمع اللغة العربية بدمشق في رسالة للمؤلِّف بعد إطلاعه على معجم تراجم أعلام التعمية بتاريخ ٢٥/ ٥/ ٢٠١٨م، نصّها: =

المصادر والمراجع

١ - العربية:

- ابن الدّريهم وجهوده في علم التعمية، د. محمد حسان الطيان، مجلة البيان، العدد ٣٦٢، سبتمبر ٢٠٠٠م.
- ابن دُنَيْنير وكتابه: مقاصد الفصول المترجمة عن حلّ الترجمة، د. محمد مراياتي، الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة، ١٩٩٦م.
- ابن وحشية النبطي وريادته في كشف رموزٍ هيروغليفية في كتابه: شَوْق المسْتَهام في معرفة رموز الأقلام، د. يحيى ميرعلم، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م ٧٩، ج ٤، ص ٧٣٥-٧٦٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- أسباب حدوث الحروف، الحسين بن عبد الله بن سينا، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مجمع اللغة العربية، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- إسهامات علماء التعمية في اللسانيات العربية، د. يحيى مير علم، مجلة

= «تسلَّمت النسخة الإلكترونية من المعجم، واطلعت عليها. أهنئك على هذا الإنجاز العظيم، وأقدر عالياً الجهود الكبيرة التي بذلتهافي إعداده... لا شك في أن هذا المعجم سيسد ثغرة كبيرة في المكتبة العربية، وسيكون مرجعاً علميّاً أساسيّاً لا يستغنى عنه، يفيد منه الطلاب والأساتذة والباحثون والمختصون في هذا العلم. وهذا المعجم في رأيي هو الركن الثالث من أركان مشروع (علم التعمية) الخمسة، أما الركن الأول والثاني فهما: الجزء الأول والثاني من كتاب علم التعمية واستخراج المعمى، وأما الركن الرابع والخامس فهما: الجزء الثالث من كتاب علم التعمية ومعجم مصطلحات علم التعمية. أرجو أن يوطد فريق العمل العزم على إتمام هذا المشروع... مروان البواب».

مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٩، الجزء الثالث، ص ٥٢١-٥٤٦، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م.

- إسهام المسلمين والعرب في علوم التعمية وكسر المعمّى، د. محمد السويل، الملتقى الرابع لجائزة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله ابن عبد العزيز العالمية للترجمة، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، تكريم الفائزين بالجائزة في دورتها الرابعة، بكين ١٨/ ١٠/ ١٤٣٣هـ.
- أصالة العرب في علم التعمية واستخراج المعمَّى، د. محمد مراياتي ويحيى مير علم ومحمد حسان الطيان، ندوة التراث العلمي العربي للعلوم الأساسية، طرابلس، ليبيا، ١٧-٢٠ كانون الأول، ١٩٩٠م.
- اكتشاف مخطوطات التعمية والجهود المبذولة فيها، د. محمد حسان الطيان، حفل إصدار الجزء الأول من سلسلة كتب التعمية عند العرب بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض، ١٧-١٩ تشرين الأول ٢٠٠٣م.
- أمن المعلومات: التعمية واستخراج المعمّى أو الشفرة وكسرها، د. محمد مراياتي، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الألكسو ٢٠١٢ م.
- التعمية واستخراج المعمّى، د. محمد مراياتي ومحمد وليد الجلاد، الموسوعة العربية، المجلد السادس، ط. أولى، ٢٠٠٢ م.
- التعمية واستخراج المعمّى (الشيفرة وفكّ الشيفرة)، د. موفق دعبول، فعاليات الملتقى السوري التونسي، نيسان ٢٠١٥ م، ومجلة جامعة دمشق، دوائر الإبداع، العدد الثالث، ٢٠١٥ م.
- الجديد في اكتشاف المدرسة العربية في علوم التعمية واستخراج

المعمّى أو الشفرة وكسرها، د. محمد مراياتي، ندوة التراث العلمي العربي، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٧أبريل ٢٠١٣ م، المؤتمر السعودي الدولي للثقافة العلمية ٢٠١٣ م.

- ذات القوافي، ابن الدريهم، تحقيق د. محمد حسان الطيان، حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت ٢٠٠٤ م.
- ذات القوافي قصيدة لابن الدُّرَيْهِم، د. محمد حسان الطيان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٧، ج٢، ٢٠٠٢ م.
- ريادة العرب في علم التعمية واستخراج المعمّى، د.محمد حسان الطيان، مجلة التقدم العلمي، العدد ٥٧، يونيو ٢٠٠٧م.
- شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام، ابن وحشية النبطي، بعناية المستشرق النمساوي (جوزيف فون هامر)، لندن، سنة ١٨٠٦م (نسخة محفوظة في مكتبة المتحف الوطني بدمشق)، ونسخة طبعة دار الفكر عن مصورّة لنسخة مكتبة مشهد، بعناية أ. إياد الطباع، ١٩٧٤م.
- شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام، أحمد بن علي بن وحشية النبطي، نسخة المكتبة الوطنية في باريس رقم (١٦٠٥/ ١٣١) ونسخة المكتبة الوطنية في النمسا رقم (٦٨).
- شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام، ابن وحشية النبطي، تحقيق ودراسة، الجزء الثالث من كتاب (علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب) د. محمد مراياتي ود. يحيى مير علم ود. محمد حسان الطيان (لم يطبع).
- (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام: أقدم مخطوط كشف رموزاً

هيروغلفية لابن وحشية النبطي) د. يحيى مير علم، الندوة الدولية الثامنة لتاريخ العلوم عند العرب (الجوانب المجهولة في تاريخ العلوم العربية)، مكتبة الإسكندرية (٢٨-٣٠/ ٩/ ٢٠٠٤ م).

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، مصوَّرة عن الطبعة الأميرية.
- علم التعمية في التراث العربي، أ. مروان البواب، المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق (نحو رؤية معاصرة للتراث)، ٩/ ١١/ ٢٠٠٩ م.
- علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، د. محمد مراياتي ويحيى مير علم ومحمد حسان الطيان، الندوة العلمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، سورية، حلب، ٢١-٢٥ نيسان ١٩٨٦.
- علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، دراسة وتحقيق د. محمد مراياتي، د. يحيى مير علم، د. محمد حسان الطيان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول ١٩٨٧ م، والجزء الثاني ١٩٩٧م.
- علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، د. موفق دعبول، د. محمد مراياتي، أ. مروان البواب، فعاليات الملتقى التونسي السوري، ٢٣-٢٤ نيسان، ٢٠٠٧ م.
- علم التعمية ..والمخطوطات المطويّة: مقاصد الفصول المترجِمة عن حلِّ الترجَمة نموذجاً، د. محمد حسان الطيان، المؤتمر الدولي الخامس لمركز المخطوطات، المخطوطات المطويّة، ٦-٨، مايو ٢٠٠٨ م.
- علوم التعمية: الشفرة وكسرها في التراث العربي، د. محمد مراياتي، مركز مؤسسة الملك فيصل الخيرية، ١٤٢٢هـ.

- العوامل المؤثرة في نشأة وريادة علوم التعمية عند العرب وتأثيرها في تطور هذه العلوم عالميّاً، د. محمد مرياتي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، الرياض، ٢ مارس ٢٠١٧ م.
- قصيدة ابن الدُّرَيْهِم في حلّ رموز المكاتبات وفهم أقلام المتقدمين، د. محمد حسان الطيان، الندوة العالمية الثامنة لتاريخ العلوم عند العرب، الجوانب المجهولة في تاريخ العلوم العربية، مكتبة الإسكندرية ٢٨-٣٠/ ٩/ ٢٠٠٤ م.
- الكشف عن مخطوطات علم التعمية: قصيدة ابن الدُّرَيْهِم نموذجاً، د. محمد حسان الطيان، المؤتمر الدولي الأول في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الشارقة ٢٤-٢٧، مارس ٢٠٠٨ م.
- مخطوطات التعمية في تراثنا، د. محمد حسان الطيان، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٤٧، الجزء الثاني، رمضان ١٤٢٤هـ/ نوفمبر ٢٠٠٣ م.
- معجم أعلام التعمية واستخراج المعمّى في التراث العربي والإسلامي، د. يحيى مير علم، المؤتمر الدولي الأول في تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين (أثر العلوم العربية والإسلامية في مسيرة الحضارة الإنسانية)، جامعة الشارقة، ٢٤-٢٧/ ٣/ ٢٠٠٨ م.
- معجم أعلام التعمية واستخراج المعمى في التراث العربي والإسلامي، مجلة الوعي الإسلامي، إدارة الشؤون الثقافية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الإصدار (١٦٧)، ٢٠١٨ م.
- مقاصد الفصول المترجِمة عن حلّ الترجَمة، لابن دُنَيْنير، د. محمد

مراياتي ود. محمد حسان الطيان، الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة ١٩٩٦، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد (٤) ١٩٩٧م.

- من المكتبة العربية: عِلم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب، د. محمد مكي الحسني، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٣، الجزء الأول، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م، ص ١٥٩- ١٧٦.
- نحو معجم لمصطلحات علم التعمية، أ. مروان البواب، د. محمد مراياتي، د. يحيى مير علم، د. محمد حسان الطيان، أ.سعيد الأسعد، المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق، ٢٠٠٤م.

٢- الأجنبية:

- David Kahn, "Kahn on Codes: Secrets of the New Cryptology", Macmillan Publishung Comapny, New York, 1984.
- David Kahn, "The Code Breakers", Macmillan Publishing Company New York 1976.
- M. Mrayati, Y. Meer Alam, M. H. Tayyan, "Series on Arabic Origins of Cryptology", Volume 1–6, Translated by S. al-Asaad, Revised by Mohammed I. al-suwaiyel, Ibrahim H. al-Kadi, Marwan al-Bawab, Puplished by KFCRIS & KACST, 2003–2007.

❊ ❊ ❊

الدلالة التلميحية للإطناب
دراسة تطبيقية في التعبير القرآني

أ. م. د. عبير بدر عبد الستار(*)

م. د. خالد خضير عباس (**)

ملخص البحث

التلميح وسيلةٌ لغويةٌ مهمةٌ يلجأ إليها المتكلم للتعبير عن معانٍ وأغراضٍ يحرص على إيصالها بعيداً عن المكاشفة والتصريح، بمعنى أن يشار في فحوى الكلام إلى معنىً بعيدٍ عن ظاهر اللفظ. وقد جاء التلميح في التعبير القرآني ليمثل أعلى المستويات البيانية، وبطرائقَ متعددةٍ منها: الإطناب بأنواعه المختلفة، فهناك التلميح بالتذييل، والاحتراس، والجملة الاعتراضية، وذكر الخاص بعد العام.

المقدمة:

الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، والصلاة والسلام على سيد المرسلين الذي يؤنس ذِكرُه قلوب الموحدين، وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(*) كلية الآداب، الجامعة المستنصرية.

(**) كلية التربية الأساسية، جامعة سومر.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٦/ ٥/ ٢٠١٨م.

وبعد:

فقد يعزف الإنسان عن التصريح بمراده، فيعدل بكلامه عن الأسلوب المباشر إلى غير المباشر، يحصل ذلك متى ما راود المتحدث شعورٌ بأن الوضوح بصريح العبارة قد ينتج عنه ردّ فعلٍ سيئٍ من السامع، إما لفظاظة اللفظ، أو لارتباطه بأمر يوحي بالشؤم أو بالإحراج أو غير ذلك من الأمور المستكرهة.

والعرب – كما هو معلوم – قد انمازوا بالفصاحة والبيان، بل كانوا حاذقين في التعبير عن كل ما يدور في حياتهم بأسلوبٍ راقٍ ومهذبٍ بعيدٍ عن كلّ ما من شأنه إثارة الحرج، لذا تجدهم يعبرون «عن الأفعال التي تُستر عن العيون، وتتأذى منها النفوس، بألفاظ تدل عليها غير موضوعة لها تنزهاً عن إيرادها على جهتها، وتحرزاً عما وضع لأجلها، إذ الحاجة إلى ستر أقوالهم كالحاجة إلى ستر أفعالهم، فيتحرجون عن التصريح بالتعريض فيكنُّون عن لفظه، إكراماً لأنفسهم عن التلفظ به»[(١)].

ومن المعلوم أنّ القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب، وجرى على سننهم في التعبير؛ لذا كان أسلوب التلميح يُمثِّلُ أحد أساليبه المهمة.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة لجمع ما تناثر من معلومات تتعلق بالتلميح المتحقق بالإطناب في التعبير القرآني.

وقد تناول البحث مفهوم التلميح في اللغة والاصطلاح، وأهم الأسباب التي تقف من ورائه، مع جملة من التطبيقات القرآنية للتلميح المتحقق بطرائق الإطناب المتنوعة؛ وانتهى البحث بعد ذلك بخاتمة لخص فيها الباحثان أهم النتائج التي توصلا إليها.

(١) الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء: ٣.

أولاً: مفهوم التلميح وأسبابه:

التلميح من مادة (لمح)، في لسان العرب: «لَمَحَ إليه يَلْمَحُ لَمْحاً وأَلْمَحَ: اختلس النظر. وقال بعضهم: لَمَح نَظر... أَلمحتِ المرأَةُ من وجهها إلماحاً: إذا أَمكنت من أَن تُلْمَحَ، تفعل ذلك الحَسْناءُ تُرِي محاسِنها من يَتَصَدَّى لها ثم تُخْفيها»(٢).

وفي الاصطلاح هو: «أن يشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة من غير أن يذكره»(٣).

وقد يتقاطع مفهوم التلميح مع مفهوم التعريض، على اعتبار أن الثاني يشترك معه بعدم التصريح، وأن «المعاريض من الكلام: ما عرّض به ولم يصرّح»(٤).

ويلجأ المتكلم إلى أسلوب التلميح لأسباب عديدة، لعل من أهمها تفضيله على أسلوب التصريح؛ فقد كان العرب يَعيبون الرجل الذي يكاشف في كل أمر؛ لذا قالوا: فلان لا يحسن التعريض إلا ثَلْباً(٥).

وقد يكون الخوف أحد أسباب التلميح، فالناس على سبيل المثال يتطيرون من ذكر بعض الألفاظ بمسمياتها الصريحة، لما تثيره من الهلع في نفوسهم، لذا تجدهم يلجؤون إلى أسلوب التلميح الكنائي، بعدّه وسيلةً للتعبير عنها، ولعل من أهمها الألفاظ المتصلة من قريب أو بعيد بالموت والأمراض، أو بعالم الأرواح والأشباح(٦)؛ فقد «يُكنى عن اللديغ بالسليم، وعن الأعمى بالبصير، وعن المهلكة بالمفازة، وعن ملك الموت بأبي يحيى»(٧).

---

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٢/ ٥٨٤ (لمح).

(٣) فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز: ١١٢، وينظر :الشريف الجرجاني، التعريفات: ٦٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب: ٧/ ١٨٣ (عرض).

(٥) ينظر: الثعالبي، الكناية والتعريض: ١٦٧.

(٦) ينظر :إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ: ١٤٢-١٤٣.

(٧) الثعالبي، الكناية والتعريض: ١٥٧، وينظر: الثعالبي، تحسين القبيح: ٣٦.

ونحن في عصرنا الحاضر كثيراً ما نتجنب ذكر بعض الأمراض بمسمياتها الصريحة؛ لِما تتركه تلك الأسماء من تبعة سلبية، فنعمل على استعمال أسلوب التلميح من خلال الاستغناء عنها بألفاظ تشير إلى المقصود، ولكن بتعابير أقل حدةً وأخف وطئاً، فنقول على سبيل المثال: (ذاك المرض)، أو (المرض الخبيث)، ونعني بذلك (مرض السرطان).

ثانياً: التلميح بالإطناب:

مفهوم الإطناب:

الإطناب: المبالغة بالشيء، يقال: أطنب في المكان: إذا أطال الإقامة فيه، و أطنب في الكلام أو الوصف أو الأمر: أي بالغ وأكثر(٨).

ومنهم من ربط مفهوم الإطناب بمفهوم الإيجاز، وعدّه وسيلة تقربك لمعرفته. يقول القزويني (٧٣٩هـ): «فمقام التنكير يباين مقام التعريف، و مقام الإطلاق يباين مقام التقييد... ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي»(٩). وأشار ابن يعقوب المغربي (١١٢٨هـ) إلى ذلك أيضاً، إذْ عدّ الإيجاز والإطناب من الأمور النسبية «كالأبوة والبنوة، وهي التي يتوقف تعقلها على تعقل غيرها، فإن الكلام الموجز إنما يدرك من حيث وصفه بالإيجاز بالقياس إلى كلام أكثر منه؛ ولذا المُطنَب لا يدرك من حيث وصفه بالإطناب إلّا كلامٌ آخر يكون أقل منه»(١٠)(*).

(٨) ينظر: إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار، المعجم الوسيط: ٢/ ٥٧٣.

(٩) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ٤٢.

(١٠) ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح :٣/ ١٦٠.

(*) كذا ورد، ولعل الصحيح: (إلا ومعه كلام آخر): = [المجلة].

وكما اشترطوا للإيجاز أن تكون ألفاظه القليلة غير مخلّة بالمعنى، كذلك اشترطوا للإطناب **بأن**(*) تكون ألفاظه الزائدة جاءت لفائدة ،وقد تنبه إلى ذلك الرماني (٣٨٤هـ) إذْ قال: «والإيجاز بلاغة والتقصير عيّ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيّ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه وليس كذلك التقصير، لأنه لا بد فيه من الإخلال، فأما الإطناب فإنما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل»(١١).

وعلى هذا الأساس فرقوا بين الإطناب والتطويل، على الرغم من أن كليهما يعني زيادة اللفظ على المعنى، إلّا أن الإطناب «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فهذا حدّه الذي يميزه عن التطويل، إذ التطويل زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة»(١٢).

وتأسيساً على ذلك الزيادة المُقيدة بالإفادة هي التي تمثل جوهر الاختلاف ما بين الإطناب والتطويل.

أما أنواع الإطناب في القرآن الكريم فهي كثيرة وقد بلغت عند السيوطي واحداً وعشرين نوعاً(١٣)، ومن تلك الأنواع: التذييل، والتكرار، وذكر الخاص بعد العام، والإيضاح بعد الإبهام، والتتميم، والاحتراس، والاعتراض، والإيغال... إلخ.

(*) هكذا ورد بزيادة الباء في المصدر المؤول، وهو معمول الفعل المتعدّي بنفسه «اشترط» الذي لم تُسمَع زيادة الباء في مفعوله. وقد تردّد مثلُ ذلك في مواضع أخرى من البحث في المصدر المؤول الواقع مفعولاً لبعض الأفعال المتعدية التي لم تُسمَع زيادة الباء في مفاعليها، وهي: أدرك، رأى، تصوّر، ظنّ، ذكر. لذلك آثرنا تركها على حالها، تنبيهاً على الخطأ، لكثرة وقوع مثل ذلك في عبارة المحدثين والمعاصرين. = [المجلة].

(١١) الرماني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، النكت في إعجاز القرآن: ٧٨-٧٩.

(١٢) ابن الأثير، المثل السائر: ٢/ ١٢٠، وينظر: سعد الدين التفتازاني، المطول: ٤٨١.

(١٣) ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢١٧-٢٥٥.

وسنقتصر على دراسة الأنواع التي حملت بين طياتها دلالة التلميح، وهي:

أولاً: التلميح بالتذييل:

من مظاهر انسجام النص القرآني ما نجده من تناسبٍ بين أجزائه، كالتناسب الذي نجده بين جملة التذييل والجمل السابقة لها.

والتذييل في اللغة: آخر الشيء، يقول ابن منظور: «الذيل: آخر كل شي»(١٤). والتذييل: مصدر ذيَّل للمبالغة، وهو لغةً: جعل الشيء ذيلاً للآخر. «يقال: ذالت الجارية في مشيتها، تذيلُ ذيلاً: إذا مشت، و جرّت أذيالها على الأرض و تبخترت»(١٥).

أما المعنى الاصطلاحي، فيعني: «تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد»(١٦).

والجملة التذييلية، وإن كانت تمثل كلاماً مستقلًّا عن المعنى الأول – كما يرى الزركشي – تحقق في الوقت نفسه دلالة المنطوق الأول ومفهومه لتكون معه كالدليل(١٧).

يستحضرنا في ذلك ما جاء عن الأصمعي وقصته مع ذلك الأَعرابي الذي استشكل عليه قراءته، حيث قال: كنت أقرأ (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ غفور رحيم)، وكان بجنبي أعرابي فسألني: كلام من هذا؟ فأجبته: كلام الله، فقال: أعد، فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله، فانتبهت، وقرأت قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ

(١٤) ابن منظور، لسان العرب: ١١/ ٢٦٠ (ذيل).

(١٥) المصدر نفسه: ١١/ ٢٦١ (ذيل).

(١٦) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: ٣/ ٢٠٥، وينظر: جلال الدين السيوطي، معترك الأقران: ١/ ٢٧٩، وعلي جميل سلوم، و حسن نور، الدليل إلى البلاغة: ٩٧.

(١٧) ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان: ٣/ ٦٨.

﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقال: أصبت، يقول الأصمعي: فسألته مستغرباً: من أين عرفت ذلك؟! فأجاب: يا هذا عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع(١٨).

الشاهد في ذكرِ هذه القصة أن سليقة الأعرابي اللغوية لم تتقبل ذلك الانفصال الدلالي الذي بان جليّاً في القراءة الأولى ما بين جملة التذييل وما سبقها من كلام، وعليه وجب أن تكون جملة التذييل مشتملة على معنى الجملة الأولى؛ كي تنزل منزلة الحجة على مضمونها، ومن ثمَّ يحصل تأكيد معنى الجملة الأولى وزيادة(١٩).

وعند تدبر التنزيل العزيز نلحظ أنّه عَمد إلى أسلوب التذييل في كثيرٍ من آياته، للتعبير عن معانٍ مختلفة، وقد أشار في كثير منها إلى المعنى المقصود تلميحاً لا تصريحاً، وهو ما سنحاول توضيحه ضمن الشواهد التي اخترناها في كتاب الله العزيز.

١ – التلميح إلى فناء المخلوقات وبقاء الخالق:

يَسعَدُ الإنسانُ كثيراً حينما يرى امتداد حياته في غيره، وفي المقابل تراه يحزن عندما لا يكون له ذرية؛ لأنه يدرك في قرارة نفسه **بأنه** ميت لا محالة، فالموت هو الحقيقة الحتمية لكل إنسان ومن ذلك الأنبياء. يؤكد تلك الحقيقة قول الباري عز وجل مخاطباً نبيه عندما كان المشركون يتربصون لقتله، إذْ يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]: أي إنهم جميعاً بصدد الموت، ومن هنا الإنسان «يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه، وإن جاء لابنه ابنٌ وصار للإنسان حفيدٌ فهو يسعد أكثر، لأن ذكره سيكون في جيلين»(٢٠).

(١٨) ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: ١/ ٥٤٦.
(١٩) ينظر: ابن الأثير، جوهر الكنز: ٢٤٤، وابن حجة الحموي، خزانة الأدب :١/ ٢٤٢.
(٢٠) تفسير الشعراوي: ٤/ ٢٥٦٣.

ولا يقتصر هذا الشعور على الأُناس العاديين، بل يتعداهم وصولاً إلى الأنبياء والرسل، فهذا زكريا عليه السلام بعد أن شعر بأن الكِبَرَ أخذ منه مأخذاً توجه إلى ربه بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[مريم: ٤ - ٦].

وتكرر ذكرُ دعائه عليه السلام في سورة الأنبياء - محل شاهدنا - بقوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

فالوِرَاثَةُ والإِرْثُ بمعنى: «انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد، وسمّي بذلك المنتقل عن الميّت فيقال للقنيةِ المَوْرُوثَةِ... ويقال لكلّ من حصل له شيء من غير تعب: قد وَرِثَ كذا، ويقال لمن خُوِّلَ شيئاً مهنّئاً: أُورِثَ...» (٢١).

ويرى بعضهم **بأن** ميراث الأنبياء مختلف تماماً، فوراثتهم تعني وراثة النبوة والعلم، والأخلاق والفضيلة، أما وراثة حطام الدنيا من مالٍ وما شابهه فلا قيمة له عندهم(٢٢)؛ لذلك جاء اختيار الآلوسي وصف الولد الذي دعا به زكريا - عليه السلام - بأنه ولد يرثه لا ليعينه أو غير ذلك من رغبات الأب في الابن، وقد أفاد ذلك التذييل الوارد في الآية: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، إذ يقول: «﴿وَزَكَرِيَّا﴾: (أي: واذكر خبره عليه السلام) ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ (أي: وحيداً بلا ولد يرثني كما يشعر به التذييل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ولو كان المراد: بلا ولد يصاحبني ويعاونني لقيل: وأنت خير المعينين. والمراد بقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾: وأنت خير حي

(٢١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن: ٥١٨ (ورث).

(٢٢) ينظر: المصدر نفسه والصفحة.

يبقى بعد ميت، وفيه مدح له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء. وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه عزّ وجلّ»(٢٣).

فالآلوسي بقوله: (إشارة إلى فناء من سواه...) قد ألمح إلى أنّ زكريا (عليه السلام) كان يلوّح بكلامه إلى أن هذه الدنيا ليست بدار بقاء.

فبعد أن دعا ربه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، وهي كناية عن طلب الوارث، جاء تنزيهه لمقام الخالق بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، وكأنما استدرك على كلامه الأول في طلب الوارث؛ لأنه يعلم بأنّ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] ومن ثمّ إن الخالق -جلّ وعلا- لا يجوز أن يشاركه في معنى الوراثة غيرُه.

٢- التلميح إلى التفريط بالأمانة والعهد:

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

الآية الكريمة تمثل جوابَ يعقوب عليه السلام إلى إخوة يوسف، عندما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين.

وما من مسلمٍ على وجه الأرض لا يعرف المأساة التي عاشت في أعماق يعقوب عليه السلام، وقد ذُكرت تفاصيلها في كتاب الله العزيز، وكيف أنّ إخوة يوسف لم يقدموا ما يعزز ثقة أبيهم. وبما أن مرارة فقدان يوسف بقيت تعيش في أعماقه، كان من الطبيعي أن يبدي مخاوفه بقوله: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ...﴾، وهو بذلك يلمّح إلى الوعد الذي قطعوه لأبيهم في حقّ يوسف عليه السلام، ومن ثم جرى الذي جرى من خيانتهم(٢٤).

---

(٢٣) الآلوسي، روح المعاني: ٩/ ٨٣، وينظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٧/ ٩٦.

(٢٤) ينظر :الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٤٥٨.

والتلميح الذي ننشده هو ما تجسد في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الذي مثّل جملتي تذييل؛ لأن الكلام تمّ قبلهما، فضلاً عن اشتمالهما لمعنى الكلام الأول.

وفي قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ تلميح إلى ما نسبوه لأنفسهم من الحفظ في أكثر من مناسبة، من ذلك قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، وقد كانت مجرد أقوال لم تأت إلا بنتائج مخيبة للآمال أورثت يعقوب عليه السلام الندامة والحسرة.

فجوابه عليه السلام كان مُلمحاً إلى أنه لا يعول على وعودهم ولا على حفظهم؛ لأن حِفظ الله خيرٌ من حفظهم لا سيما بعد الذي بدا من سلوكهم، وتفريطهم في حفظ يوسف عليه السلام(٢٥).

ويرى صاحب الميزان أن قوله: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ «تعريض بهم وتلويح إلى أنهم لم يستوفوا الرحم - أو لم يرحموه أصلاً - في أمر يوسف حين آمنهم عليه»(٢٦)؛ ولذا هو غير مطمئن لوعودهم، إنما ثقته تتجلى بالله، لأنه خير الحافظين، وهو أرحم الراحمين.

ثانياً :التلميح بالاحتراس:

الاحتراس في اللغة: التحفظ في انتباه وتيقظ، وهو من الفعل احترس، يقال: حَرَسَ الشيء يحْرُسُه ويَحْرِسُه حَرْساً: حفظه، وهم الحُرّاسُ والحَرَسُ والأحراسُ، واحْتَرَسَ منه: تحرّزَ، وتَحَرّسْتُ من فلان واحْترستُ منه بمعنى

(٢٥) ينظر: الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٤٥٨، وفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ١٨/ ٤٧٩، والطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٦/ ١٦٠.

(٢٦) الطباطبائي، الميزان: ١١/ ٢١٥.

واحد، أي تحفظت منه[٢٧]، والاحتراس: دفع الإيهام[٢٨].

وفي الاصطلاح «هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه»[٢٩].

وسُمي الاحتراس بالتكميل والتتميم[٣٠]، وذلك لتكميله المعنى بدفع خلاف المقصود[٣١].

وقطعاً، إن المتكلم عندما يحتاط في كلامه يلمح من خلال ذلك إلى المعنى الحقيقي الذي كان يقصده، لا المعنى السلبي الذي قد يتبادر إلى ذهن المتلقي، وسنحاول توضيح ذلك وتعضيده من خلال بعض النماذج القرآنية التي تبين مرامي التلميح الاحتراسي، ومنها:

١ - التلميح إلى تكامل صفات المؤمن:

ليس مَعيباً اجتماعُ الصفات المتناقضة عند الإنسان، شريطة أن يُحسن استخدامها وفق المواقف التي تصب في خدمة الدين والمصلحة العامة، فالسلوكيات البشرية متباينة ،لذا يقتضي أن تكون ردود الأفعال متباينة أيضاً، فمنها ما يتطلب الشدة والحزم، ومنها ما يستدعي السماحة واللين.

والقياسات على ذلك كثيرة، فالأب الذي يحرص على مصلحة أولاده لا يمكن أن يستعمل اللين معهم دائماً، فذاك مدعاة لمفسدتهم، كذلك الحزم المُفرط له نتائجه السلبية، والأمر لا يختلف فيما يخص صفات

(٢٧) ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ٦/ ٤٨ (حرس)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: ١/ ٥٣٨ (حرس).

(٢٨) ينظر: مرتضى الزّبيدي، تاج العروس: ١/ ١١١.

(٢٩) القزويني، الإيضاح: ٣/ ٢٠٨.

(٣٠) المصدر نفسه والصفحة.

(٣١) ينظر: ابن أبي الإصبع المصري، التحرير والتحبير: ٣٦، ٣٩.

الـذات الإلهيـة، فهـو أرحـم الـراحمين فـي مـواطن الرحمـة، ولكنـه أشـد المعاقبين في مواضع النكال والنقمة.

وفي هذا المعنى يقول الحـقُّ تعـالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ...﴾ [الفتح: ٢٩].

فالآيـة الكريمـة تصـف رسـول الإنسـانية محمـداً ﷺ وأصـحابه بهـذه الصورة البليغة، فهم أشداء، غِلاظ على الكافرين، لكنهم متوادون متعاطفون فيما بينهم.

وقد جاء الاحتراس[٣٢] في الآية الكريمة متمثلاً في قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، فلو لم يذكر هـذا الخبـر الثـاني لوقـع فـي بعـض النفـوس بـأن(*) المسـلمين أجـلاف، وقسـاة فـي التعامـل. يقـول الآلوسـي: «وفـي وصـفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربما تُوُهِّم أن مفهوم القيد غير معتبر، فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقاً، فـدفع بإرداف الوصف الثاني، ومآل ذلـك أنهـم مـع كـونهم أشـداء علـى الأعـداء رحماء علـى الإخـوان»[٣٣]؛ لـذا الاحتـراس ومـا ورد معـه مـن مقابلـة بـين النقيضين: الشدة والرحمة فيه تلميحٌ مفاده أنّ شدّتهم لـم تكـن صـادرة عـن سوء طباع إنما سببه يعود لعدم موالاتهم لأهل الكفر.

وعضد ابن عاشور وجود الدلالة التلميحية حين أشار إلـى أن الجمـع بـين

---

(٣٢) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٨/ ٢، والسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: ١/ ٣٩٢٤.

(*) زيدت الباء هنا في فاعل الفعل «وقع»، وهو المصدر المؤول. وهي زيادة لـم تعهـد فـي مثله في كلام العرب. وقد رأينـا التنبيـه علـى ذلـك؛ لكثـرة ورود مثلـه خطـأ فـي عبـارة المحدثين والمعاصرين. ووقع مثله في فاعل «تبيّن» في هذا البحث في الصفحة الحادية والعشرين منه. وليس لذلك سند صحيح فيما نعلم. = [المجلة].

(٣٣) ينظر: الآلوسي، روح المعاني: ١٣ / ٢٧٧.

صفتي الشدة والرحمة فيه «إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد»(٣٤)، فتعبير المفسر هنا بلفظة (إيماء) يدل دلالة قاطعة على التلميح الذي ورد في الآية الكريمة والمتمثل بجملة الاحتراس.

وشبيه ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فقد خاطبت الآية الكريمة المؤمنين على وجه التحذير، بأن من يرتد عن دينه أو يستبدل به غيره متخذاً طريق الكفر والضلالة، فإن الله غني عنه وسيأتي بقوم ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، ثم أتبع وصفهم بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ...﴾.

ويمثل قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ احتراساً(٣٥)، فبعد أن وصفهم بـ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ - والذليل كما هو معلوم ضد العزيز - أراد أن يدفع هذا الوهم، ولكيلا يتصور أحدهم **بأنّ** ذلهم ناتج عن ضعف واستكانة، أردف بقوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفي ذلك احتراس مفاده التلميحُ إلى أن ذلتهم لم تكن إلا تواضعاً بدليل أنهم أعزة على الكافرين.

وصَرَّح ابن عاشور بوجود التلميح المتمثل بتقابل صفاتهم الكريمة، إذْ يقول: «إنّ في إثبات الوصفين المتقابلين... إيماء إلى أن صفاتهم تُسيِّرُها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلّا عن بصيرة، وليسوا ممّن

(٣٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٠٥.

(٣٥) ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٦٥،، والسيد طنطاوي، تفسير الوسيط: ٤/ ١٩٨.

تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة بأن يكون ليّناً في كلّ حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الّذي يكون في كلّ حال بما يلائم ذلك الحال»[٣٦].

٢- التلميح إلى سلامة البدن :

ما من شك بأن الأنبياء بحاجةٍ إلى المعجزة لتعضيد دعواتهم؛ فهي بمثابة البرهان الذي يؤيد ارتباطهم بالخالق، وتختلف المعجزة من نبي إلى آخر وفق ما تقتضيه حكمة السماء، وعليه المعجزة يمكن أن «تكون بذاتها دعوة وكتاباً سماوياً للنّبي، ويمكن أن تكون أُموراً أُخرى من قبيل المعجزات الحسية والجسمية»[٣٧] كالمعجزات التي أيّد بها الباري عزّ وجل سيدنا موسى عليه السلام، ومن تلك المعجزات ما تمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

فالآية الكريمة تتحدث عن معجزة من معجزات النبي موسى عليه السلام، بعدما أرسله الباري عزّ وجل إلى فرعون وقومه، وقد جاءت هذه المعجزة بعد معجزة العصا المعروفة.

والجناح في هذا الموضع - كما يرى الفراء -: ما كان من أسفل العضد إلى الإبط[٣٨]. ويقال: «اليد كلُّها جَناحٌ، وجمعه أَجْنِحة وأَجْنُحٌ»[٣٩] وقد استعير اللفظ من جناح الطائر؛ لأنه يجنح بهما عند الطيران. قال الزجاج: «والجُناح أُخِذَ من جَنَح: إِذَا مال وعدَل عن القصد، وأصل ذلك من جناح الطائر»[٤٠].

---

(٣٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٦/ ٢٣٨، وينظر: أحمد فتحي رمضان، وعدنان عبد السلام الأسعد، الاحتراس في القرآن الكريم - دراسة بلاغية، مجلة آداب الرافدين، العدد (٥٤)، ، ١٤٣٠ هـ -٢٠٠٩م: ١٤.

(٣٧) مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل: ٩/ ٥٣٩.

(٣٨) الفراء، معاني القرآن: ٢/ ١٧٨.

(٣٩) ابن منظور، لسان العرب: ١/ ٦٩٧ (جنح).

(٤٠) الزجاج، معاني القران واعرابه: ١/ ٢٣٤.

فالمقصود بالجناح هو جنب الإنسان، فيكون المعنى: اضمم يدك إلى إبطك ستخرج نيّرة كضوء الشمس والقمر من غير برص ولا أذىً[٤١].

ما نبحث عنه في الآية الكريمة هو الاحتراس، الذي تمثل بقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فلو اقتصر سبحانه على ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ وسكت عمّا بعد (بيضاء) لأوهم أن هذا البياض ربما كان من برصٍ أو بهاق أو مرض[٤٢]، فجاء هذا الاحتراس تلميحاً و«إشارة إلى أن بياض يدك ليس نتيجة مرض البرص وأمثاله، بدليل أن لها لمعاناً وبريقاً خاصّاً يظهر في لحظة ويختفي في لحظة أُخرى»[٤٣].

٣- التلميح إلى أنّ صفة الحلم متأصلة عند المتقين:

جاء في وصف المتقين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

فقد جمعت الآية الكريمة صفاتٍ عِدّة يرتقي بها المؤمن للوصول إلى درجة الإحسان التي تمثل أعلى المراتب وأرقاها، إذ جعل الوصول إليها مقترناً بمحبته كما يتضح في الآية الكريمة.

فأولى هذه الصفات تتمثل بالإنفاق في السرّاء والضراء، ثم تأتي مرحلة كظم الغيظ، والكظم هو الردُّ والحبس. يقال: «كَظَم الرجلُ غيظَه: إذا اجترعه، كَظَمه يَكْظِمه كَظْماً: ردَّه وحبَسَه»[٤٤]. والكظمُ: «مخرج النفس، والكظوم: احتباس النفس، ويعبر به عن السكوت»[٤٥]، أما الغيظ فهو «أشدّ الغضب

(٤١) ينظر:السيد طنطاوي، تفسير الوسيط: ١٠/ ٢٤٣.
(٤٢) ينظر :أبو حيان، البحر المحيط: ٧/ ٣٢٥، والآلوسي، روح المعاني: ٨/ ٤٩٤.
(٤٣) مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل ٩/ ٥٤١.
(٤٤) ابن منظور، لسان العرب: ٥/ ٣٨٨٦ (كظم).
(٤٥) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن: ٧١٢ (كظم).

وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه»[٤٦]، لذا كان كظم الإنسان لغيظه إزاء أي أذىً يحتاج إلى جهاد نفسي لحبسه من أن ينفذ منه خاصة بعدما امتلأ منه. فمن اتصف بذلك فهو بلا شك امتلك صفة عظيمة من صفات المؤمن.

لكن المسألة لا تقف عند ذلك، فكظم الغيظ قد تترتب عليه بعض الأمور النفسية ذات المنحى السلبي، منها أنّ الإنسان «قد يكظم غيظه ليحقد ويضطغن؛ فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين...»[٤٧]. ولمّا كان التعبير القرآني حريصاً على سدّ كل ثغرة يمكن أن تخلّ بالمعنى المقصود نجد أن النص قد استمر «ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين.. إنها العفو والسماحة والانطلاق»[٤٨]، وقد تجسد ذلك بقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

والعفو هو: «التَّجاوُزُ عن الذنب وتَرْكُ العِقابِ عليه، وأَصلُه المَحْوُ والطَّمْس»[٤٩]، ويدخل في باب الفضل والإحسان[٥٠]. ويمثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ الصفة الثالثة والمكملة للآية على سبيل الاحتراس، في دفع التوهم الحاصل من أن الإنسان قد يكظم غيظه لكن لا يُشترط خلوه من الأحقاد ولهفة الانتقام.

يقول ابن عاشور عن صفة العفو المذكورة: إنها «تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس؛ لأنّ كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على

(٤٦) المصدر نفسه: ٦١٩.

(٤٧) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤٧٥.

(٤٨) المصدر نفسه والصفحة.

(٤٩) ابن منظور، لسان العرب: ٤/ ٣٠١٨ (عفو).

(٥٠) ينظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه،: ٢/ ٣٩٦.

من غاظه بالحقّ، فلمَّا وُصفوا بالعفو عمّن أساء إليهم دلّ ذلك على أنّ كظم الغيظ وصف متأصّل فيهم، مستمرّ معهم»[٥١].

ومن قول المفسر هنا نستدل على دلالة التلميح الذي أشارت إليه جملة الاحتراس، فلو توقف النص عند (الغيظ) الذي يعني (شدة الغضب) كما أشرنا، لأدى بالمعنى سلباً نحو اتجاه دلالي غير مقصود، لذا جيء بقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ تلميحاً إلى المتلقي وإفهاماً له بأن كظم الغيظ عندهم لا ترافقه دوافع الحقد والضغينة.

ومما يؤكد المعنى المتقدم ما جاء في الأخبار والأحاديث أنّ «جارية لعلي بن الحسين رضي الله عنه جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية: إن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي. قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: قد عفوت وقد عفا الله عنك. قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله»[٥٢].

فالمتدبر لهذه القصة وما جاء فيها من عِبرة يستشعر مراحل رقي الإحسان، فالجارية عندما قالت: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ لم تتوقف عند ذلك، إنما لمّحت طالبةً المزيد من الإحسان من سيّدها ومولاها، وكأنما الذي طلبته كان ينقصه الذي يليه، وفي المقابل تجد الإمام علي بن الحسين رضي الله عنه تعامل معها وفق ما أشارت إليه الآية الكريمة ليصل إلى أعلى درجات الكمال الإنساني، ولا غرابة في أن يحصل ذلك من سليل الأخلاق المحمدية ومعدن الرسالة الحقيقي.

---

(٥١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٤/ ٩١.

(٥٢) مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل: ٢/ ٦٩٩- ٧٠٠.

ثالثاً: التلميح بذكر الخاص بعد العام:

الخاص في اللغة: هو الذي يدل على الانفراد؛ «وخصّصه واختصّه: أفرده به دون غيره. والخاصة: خلاف العامة»(٥٣).

وفي الاصطلاح يعني: «كل لفظ وضع لمعنى معلوم على الانفراد»(٥٤)، أمّا العام فهو: «كل ما يتناول أفراداً متفقة الحدود على سبيل الشمول»(٥٥). وقد عدّ البلاغيون (ذكر الخاص بعد العام) نوعاً من أنواع الإطناب، فالخاص يذكر مرّتين: الأولى مع العام، والثانية منفرداً، لغرض إبرازه وزيادة الاهتمام به.

ويلجأ المتكلم إلى هذا الأسلوب «للتنبيه على فضل الخاص، حتى كأنه ليس من جنس العام؛ لما امتاز به عن سائر أفراده من الأوصاف تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات»(٥٦).

وليس من السهل التسليم بهذا الكلام، إذْ لا يُشترط أن يكون ذكر الخاص بعد العام تنبيهاً على فضل الخاص، فقد «يُذكَر الخاص بعد العام تنبيهاً على أنّه أخسّ أفراد العام»(٥٧)، وهو ما يتضح جليّاً في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ فالبغي لم يفرد هنا لإظهار فضله على سائر الفواحش، بقدر ما

(٥٣) ابن منظور، لسان العرب: ٧/ ٢٤-٢٥ (خصّ).

(٥٤) الكفوي، الكليات: ٤١٤، وينظر: زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة: ٨٢.

(٥٥) الكفوي، الكليات: ٦٠٠، وينظر: الشريف الجرجاني، التعريفات: ٨٥.

(٥٦) المصطلحات البلاغية: ١/ ٢٤١، وينظر: السيوطي، معترك الأقران ١/ ٢٧١، و القزويني، الإيضاح: ١/ ١٩٧، وابن الأثير، المثل السائر: ٢/ ٢٢٩.

(٥٧) قاسم درهم، التنبيه في التعبير القرآني(رسالة ماجستير): ١٤٨.

يشير ذلك العطف إلى أنهما (الإثم، البغي) من أقبح أنواع الذنوب[٥٨].

ولهذا الأسلوب في الذكر الحكيم أمثلة كثيرة، لا يمكن تجاهل دلالاتها التلميحية، إذْ لا يمكن تصور أن المتحدث يذكر الأشياء جملة ثم يخصُّ شيئاً منها بالتسمية ما لم يكن في أسلوبه هذا ملمحٌ إلى مزية ما أو معنى مختص بالذي أفرده، يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

أجمع المفسرون على أنّ الآية قد نزلت في اليهود. قال ابن جرير الطبري: «وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدوّ لهم، وأن ميكائيل وليّ لهم»[٥٩]؛ لذا اقتضى الأمر التنبيه على مزية جبريل وميكال عليهما السلام والتنويه بشأنهما.

وقد جاء ذكر المَلكين (جبريل وميكال) ثلاثَ مرّات، مرَّتين على نحو الإجمال، في قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ وفي قوله جلّ وعلا: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، ومرة على نحو التخصيص في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾.

وما يهمُّ الآن هو التلميح الوارد في هذا التخصيص، فقد ذكر أبو السعود **بأنهما**: «أُفردا بالذكر مع أنهما أولُ من يشمَلُه عنوانُ المَلَكية والرسالة لإظهار فضلِهما، كأنهما عليهما السلام من جنسٍ آخَرَ أشرفَ مما ذُكر، تنزيلاً للتغايُر في الوصف منزلةَ التغايرِ في الجنس، وللتنبيه على أن عداوةَ أحدِهما عداوةٌ للآخر حسماً لمادة اعتقادِهم الباطلَ في حقهما، حيث زعَموا أنهما متعاديان، وللإشارة إلى أن معاداةَ الواحدِ والكلِّ سواءٌ في الكفر واستتباع العداوةِ من جهة الله سبحانه، وأن من عادى أحدَهم فكأنما عادى الجميعَ»[٦٠].

---

(٥٨) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: ٦/ ٤٠٠، وأبو حيان، البحر المحيط: ٥/ ٥٥.

(٥٩) الطبري، جامع البيان: ٢/ ٣٧٧.

(٦٠) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: ١/ ١٣٤.

ولو حللنا كلام المفسر هنا لاتّضحَ لنا جليّاً أسلوب التلميح، فقوله على سبيل المثال: (لإظهار فضلِهما)، بمعنى أن فضل المَلَكين لم يُذكر على وجه التصريح، إنما أفرد ذكرهما تلميحاً إلى فضلهما. وجاء في كلام المفسر قوله: (وللإشارة إلى أن معاداةَ الواحدِ...). ولا ريب في أنَّ الإشارة هنا تُعبّر عن التلميح، فلو قال بدلاً من ذلك: (تلميحاً إلى أن معاداة الواحد والكل سواء) لَما تغير المعنى الذي ذهب إليه المفسر.

رابعاً: التلميح بالجملة الاعتراضية:

تأتي الجملة في لغتنا العربية على أشكال وأنماط مختلفة، فهناك الجملة الخبرية، والجملة الإنشائية، وتجد الجملة الاستئنافية، وغير ذلك من الأنواع(٦١).

وتَعَدُّد أشكال الجملة ليس من باب العبث بقدر ما يتعلق الأمر بغايات وأهداف تقف وراء ذلك التنوع.

ومن بين أنواع الجمل في اللغة العربية (الجملة الاعتراضية)، فقد ذكر أصحاب العربية **بأنّ** «من سنن العرب أن يعترض بين الكلام وتمامه كلام، ولا يكون هذا المعترض إلا مفيداً»(٦٢). والفائدة متحققة قبل مجيء الاعتراض إلا أن دخوله في الكلام يضفي على المعنى بعداً آخر يُسهم في الإفصاح عن مقاصد المتكلم.

والاعتراض أحد أنواع الإطناب، عرفه البلاغيون بقولهم: «أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين بمعنى، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة»(٦٣).

---

(٦١) ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب: ١/ ٤٩٠.

(٦٢) أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة: ١٩٠.

(٦٣) مواهب الفتاح، ١/ ٧٣، وينظر: القزويني، الإيضاح: ٣/ ٢١٩، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٥٦، وابن المعتز، البديع: ٥٩.

مما تقدم يتبين لنا **بأن** الجملة المعترضة تتمتع باستقلالية ذاتية عن غيرها من الجمل داخل الإطار التركيبي الذي وردت فيه؛ إذْ إنها ليست تتمة لأحد الجزأين، و لا ترتبط بعلاقة تركيبية بها، بل هي في كل أحوالها «أجنبية عن مجرى السياق النحوي، فلا صلة لها بغيرها ولا محل لها من الإعراب، وإنما هي تعبير عن خاطرٍ طارئ من دعاء أو قسم أو قيد بشرط، أو نفي أو وعد أو أمر أو نهي أو تنبيه إلى ما يريد المتكلم أن يلفت إليه انتباه السامع»(٦٤).

ولمّا كانت الجملة التي «تعترض بين كلامين، تفيد زيادة في معنى غرض المتكلم»(٦٥)، فإن هذه الزيادة تدخله في دائرة الإطناب، فكل زيادة في مبنى الجملة العربية لابد أن يقابل بزيادة في دلالتها، هذا التناسب والتقابل يمثل القيمة البلاغية التي تعطي للجملة بعداً دلاليّاً لا يمكن الحصول عليه إذا أسقط الاعتراض منه(٦٦).

وللجملة الاعتراضية حضورها الواضح في التعبير القرآني؛ نظراً لأهميتها في إيضاح الدلالة للمعنى المقصود وزيادة الفهم لدى المتلقي؛ فمن فوائدها أنها تأتي «تَأْكِيداً وتسديداً لِلْكَلَام الَّذِي اعترضت بَين أَجْزَائِهِ»(٦٧). ولا يقتصر أثرها على تلك الفوائد فحسب، بل قد تتعداها إلى ما يتعلق بتحريك ذهن المتلقي وزيادة انتباهه، فضلاً عما يحققه الاعتراض من غرض مهم يتمثل بعنصر التشويق لما بعده(٦٨).

---

(٦٤) تمام حسان، البيان في روائع القرآن: ١٨٣.

(٦٥) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: ٢/ ٢٨٠.

(٦٦) طلال يحيى إبراهيم الطوبجي، الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم، آداب الرافدين، العدد ٢٥، ١٩٩٣: ٢١٨.

(٦٧) السيوطي، همع الهوامع: ٢/ ٣٢٧، وينظر: ابن هشام، مغني اللبيب: ١/ ٥٠٦.

(٦٨) ينظر: وفاء فيصل إسكندر، الإطناب في القرآن، أنماطه ودلالاته (أطروحة دكتوراه): ٢٠٤.

وتأتي الجملة المعترضة لأغراض عديدة، وقد جاء كثيرٌ منها على وجه التلميح ،وفيما يأتي نماذج متنوعة من آي الذكر الحكيم مصنفة حسب أغراضها التلميحية:

١ - التلميح إلى خصوصية الأم:

لا يختلف اثنان على سمو منزلة الوالدين، فالقرآن الكريم عادة ما يقرن وحدانيته تعالى بالإحسان لهما، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

ولكن مع اشتراكهما بتلك المنزلة العظيمة تجد القرآن قد جعل للأم خصوصية ومنزلة لا يداني استحقاقها مخلوق آخر، ولو كان الأب، وهو ما نجده متجسداً في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

فالحق - سبحانه - حينما وصى بالوالدين إحساناً في الآية الكريمة، جاء في الحيثيات بما يتعلق بالأم ولم يأتِ بما يتعلق بالأب. وقد مثلت جملة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ جملة اعتراض(٦٩)، وفيها تلميح إلى عِظَم حق الأم. واللافت للنظر أن الآية الكريمة «توصي في البداية بالوالدين معاً، إلّا أنّها عند بيان المشاقّ والمتاعب تؤكّد على متاعب الأُمّ، لتنبّه الإنسان إلى إيثارها وتضحياتها وحقّها العظيم»(٧٠)، فالتنبيه يُعد بمثابة التلميح.

ولا غرابة من التلميح إلى فضل الأم من خلال ذكر حيثياتها متمثلة بالجملة المعترضة، وفي المقابل ترك الأب بدون حيثية، فحيثية الأم مبنية على

(٦٩) ينظر: الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٥٠١.

(٧٠) مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل: ١٣ / ٣٦.

الضعف، ولمّا كان الرحيمُ رحيماً أبت رحمته إلّا أن يرقق قلب ابنها عليها، فلمّح إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ فالوهن كما هو معروف يعني الضعف من حيث الخَلْقُ(٧١). وهذا لا يعني انتفاء أهمية الأب، فالأب كما هو معروف يشارك الأُم في كثير من هذه المشاكل، لكن الآية الكريمة لمّحت ولوحت إلى فضل الأم؛ لأنّ سهمها من المصاعب أوفر.

٢- التلميح إلى عظمة الشأن في المستقبل:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

الآية الكريمة تتحدث عن شخصية نسويّة اختصها الله بعنايته وفضله إنها امرأة عمران، وآل عمران نفرٌ ممن اصطفاهم الله مع آدم، ونوح، وآل إبراهيم، وقد بيَّنَ ذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

والمهم أن امرأة عمران سألت ربها أن يرزقها ولداً، ونذرته أن تجعله محرراً لخدمة بيته ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]. فاستجاب الله دعاءها، لكن المولود جاء أنثى، فخاطبت ربّها بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾، وهو كلام تستشعر من خلاله ملمح الحزن والتحسر، عبّر عنه السيد الطباطبائي بقوله: «هو خبر أريد به التحسر و التحزن دون الإخبار»(٧٢).

ما نبحث عنه - في واقع الأمر - هو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ الذي مثّل جملة معترضة(٧٣)، فيها تلميح إلى عظيم موضوع هذه

(٧١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن: ١/ ٨٨٧.

(٧٢) السيد الطباطبائي، تفسير الميزان: ٣/ ١٧١.

(٧٣) ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٢/ ٢٨،، والآلوسي، روح المعاني: ٢/ ١٣٠.

المولودة، وتنويه بجلال شأنها في المستقبل[٧٤]؛ إذْ ليس المراد بهذه الجملة «إخبارها بما هو سبحانه أعلم به كما يتراءى من السياق، بل الجملة اعتراضية سيقت لتعظيم المولود الذي وضعته وتفخيم شأنه، والتجهيل لها بقدره: أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظائم الأمور ودقائق الأسرار وواضح الآيات، وهي غافلة عن ذلك كله»[٧٥].

فالحقّ - جلّ وعلا - أراد أن يقول لها: لا تظني بأن الذَكر الذي كنت تتمنينه يداني منزلة هذه الأنثى التي خصصتها بلطفي وعنايتي، وسيكون لها شأنٌ عظيم.

ويرى ابن عاشور أن الجملة الاعتراضية فيها تلميح وإعلام إلى أهل القرآن بتغليطها، باعتبار أن من فوض أمره إلى الله، عليه ألّا يتعقب تدبيره[٧٦].

والتلميح حاضرٌ سواء كان المقصود تعظيم المولود وتعظيم شأنه، أو تغليطها؛ لأن جملة الاعتراض المتمثلة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ لم تذكر تلك المعاني على وجه التصريح، إنما قالتها على وجه التلميح.

الخاتمة:

فيما يأتي جملة من النتائج خلصت إليها مسيرة البحث نوجزها فيما يأتي:

- اعتمد القرآن الكريم على أسلوب التلميح لتحقيق أغراضٍ متعددة وصولاً إلى الدلالة المرادة بطريقة أوقع في النفس، وأبلغ في التعبير، وهذه الدلالة تتحقق من خلال الإطناب.
- الإطناب، بعدّه وسيلة مهمة من وسائل التلميح في التعبير القرآني،

(٧٤) ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد: ١/ ٣٤٦.

(٧٥) الآلوسي، روح المعاني: ٢/ ١٣٠.

(٧٦) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣/ ٢٣٣.

نجده يتحقق في أغلب أنواعه، فقد يأتي من خلال التذييل، أو من خلال الاحتراس، أو بالجملة الاعتراضية.

- يُعدّ التلميحُ وسيلة من وسائل الذوق اللغوي، وفيه بعدٌ أخلاقيٌّ، فمن خلاله تُراعى المشاعر، وهو يُجنب المستمع كلَّ ما يُكره سمعه أو يُتطيرُ من ذِكره.

* * *

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب:

- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية، (١٩٨٤م).
- ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر (د.ط)، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م).
- ابن الأثير، جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في ادوات ذوي البراعة)، (د. ط)، مصر- القاهرة، دار المعارف، (د. ت).
- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر(د. ط)، بيروت، المكتبة العصرية، (١٩٩٥م).
- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٤٢٢هـ).
- ابن المعتز، البديع، الطبعة الثالثة، الكويت، دار المسيرة، (١٤٠٣هـ، ١٩٨٢م).

- ابن عاشور، التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) (د. ط)، تونس - الدار التونسية للنشر، (١٩٨٤م).
- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).
- ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الثالثة، بيروت - دار صادر، (١٤١٤هـ).
- ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح، مصر، مطبعة عيسى الحلبي، (١٤١٩هـ).
- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا العقل الكريم ،(د. ط) بيروت –لبنان، دار إحياء التراث العربي (د.ت).
- أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، بيروت، دار الفكر، (١٤٢٠هـ).
- الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، الطبعة الأولى، دمشق، بيروت، دار القلم، دار الشامية، (١٤١٢هـ).
- الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، (١٤١٥هـ).
- الأنصاري، الحدود الانيقة والتعريفات الدقيقة، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، دار الفكر المعاصر، (١٤١١هـ-١٩٩١م).
- التفتازانيّ، المطول، شرح تلخيص مفتاح العلوم، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية ، (١٤٣٤هـ-٢٠١٣م).
- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، الطبعة الأولى، عالم الكتب، (١٤١٣هـ، ١٩٩٣م).
- الثعالبي، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، الطبعة الأولى، العراق - بغداد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (١٩٨١م).

- الثعالبي، الكناية والتعريض (د. ط)، مصر، دار قباء، (١٩٩٨م).
- الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٤٠٥هـ-١٩٨٤م).
- الجرجاني، التعريفات، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).
- الحسني، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، القاهرة، (١٤١٩هـ).
- الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، الطبعة الأخيرة، بيروت، دار مكتبة الهلال، دار البحار، (٢٠٠٤م).
- الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،(د. ط)، القاهرة، مصر، مطبعة الآداب، (١٣١٧هـ).
- الرازيّ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (١٤٢٠هـ).
- الرماني، والخطابي، والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الطبعة الثالثة، مصر- القاهرة، دار المعارف، (١٩٧٦م).
- الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،(د. ط)، دار الهداية، (د.ت).
- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، الطبعة الأولى، بيروت، عالم الكتب، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، (١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م).
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة السابعة عشر، بيروت، القاهرة، دار الشروق، (١٤١٢هـ).

- السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م).
- الشعراوي، تفسير الشعراوي (خواطري حول القرآن)، (د. ط)، (١٩٩٧م).
- الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (د. ط)، (د. ت).
- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، (١٤١٩هـ).
- الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).
- طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، القاهرة، دار النهضة، الفجالة، (د.ت).
- الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، (د. ط)، النجف الأشراف – مكتبة الأمين، (١٩٦٩م).
- علي جميل سلوم، وحسن نور الدين، الدليل إلى البلاغة وعروض الخليل، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار العلوم العربية، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
- الفراء، معاني القرآن، الطبعة الأولى، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د. ت).
- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، الطبعة الثامنة، بيروت، لبنان، (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).
- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجيل، (د، ت).
- الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (د. ط)، بيروت، مؤسسة الرسالة، (د. ت).

ثالثاً: الرسائل الجامعية:

- قاسم درهم كَاطع، التنبيه في التعبير القرآني (رسالة ماجستير): كلية التربية، جامعة ذي قار، (١٤٣١هـ-٢٠١١م).
- وفاء فيصل إسكندر، الإطناب في القرآن الكريم أنماطه ودلالته (أطروحة دكتوراه)، جامعة الموصل، كلية الآداب، (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).

رابعاً: البحوث المنشورة:

- أحمد فتحي رمضان، و عدنان عبد السلام الأسعد، الاحتراس في القرآن الكريم، دراسة بلاغية: مجلة آداب الرافدين، العدد (٥٤)، (١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م).
- طلال يحيى إبراهيم الطوبجي، الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم، مجلة آداب الرافدين، العدد ٢٥، (١٩٩٣م).

* * *

المقالاتُ والآراء

اتحاد المجامع ومؤتمرات التعريب

أ. د. مازن المبارك(*)

جاءت الإشارة إلى نشأة اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، وإلى مؤتمرات التعريب في البلاد العربية موجزة في مقالة «محطات مضيئة في مسيرة العربية والتعريب» التي نشرت في العدد (٩٢/ ١-٢) من مجلة المجمع، واقتضى ذلك أن أخصّ هذين الموضوعين ببعض التفصيل.

١- نشأة اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية:

مؤتمر المجامع اللغوية العربية الأول بدمشق (٢٩/ ٩-٤/ ١٠/ ١٩٥٦م).

اقتُرِح على بعض وزراء التربية العرب إنشاءُ مجمعٍ علميّ عربيّ موحَّد، يحلّ محلّ مجامع دمشق والقاهرة وبغداد، وعُرض على اللجنة الثقافية الدائمة في اجتماعها الذي عقدته في جُدّة سنة (١٩٥٣م) إلغاءُ المجامع القائمة وإنشاء المجمع الموحَّد، فاقترح ممثِّل مجمع دمشق الأستاذ عبد الهادي هاشم الإبقاء على المجامع القائمة على أن تعمل الجامعة العربية على تيسير عَقد مؤتمرات دوريّة بين هذه المجامع لتنسيق أعمالها، وتبادل الرأي في نشاط كلّ منها.

تبنَّت اللجنة الثقافية هذا الاقتراح، وأخذت به الجامعة العربيّة، ودعت إلى عقد مؤتمر للمجامع اللغوية العلمية العربيّة في دمشق بين ٢٩/ ٩ و٥/ ١٠/ ١٩٥٦م.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وعُقِدَ المؤتمر، وحضره ممثّلون عن المجامع، والجامعة العربيّة، وممثلون عن الدول العربيّة التي لا مجامع فيها.

اجتمع في دمشق:

عن اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية د. طه حسين.

وعن مجمع مصر د. منصور فهمي، وإبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيّات.

وعن العراق الشيخ بهجة الأثري، نائب رئيس المجمع، وجواد علي، ومصطفى جواد.

وعن دمشق ستة عشر عضواً برئاسة خليل مردم بك، رئيس المجمع.

وحضر مراقبون من المملكة الأردنية: علي عودة، وقدري طوقان.

ومن المملكة السعودية خير الدين الزركلي.

ومن لبنان الشيخ عبد الله العلايلي.

ومن المملكة الليبيّة المتحدة نور الدين الشللي.

ومن المملكة التونسية أحمد عبد السلام.

وكانت حفلة افتتاح المؤتمر في مدرج الجامعة السورية، حيث ألقى رئيس الجمهورية شكري القوتلي كلمة الافتتاح، ثم تحدث وزير المعارف د. عبد الوهاب حومد، ثم د. طه حسين رئيس اللجنة الثقافية ثم ألقى منصور فهمي كلمة مصر، ثم الشيخ الأثري كلمة العراق، وكان عريف الحفل الأستاذ عبد الهادي هاشم.

وتمّت اجتماعات المؤتمر في مبنى المجمع العلمي العربي بالمدرسة العادلية بباب البريد، وصدرت عن المؤتمر توصيات، منها تأسيس اتحاد المجامع الذي نُفّذ سنة ١٩٧١م، ومنها توصيات ما زلنا إلى اليوم نتطلّع إلى تعميم تنفيذها.

وكان من كلمة الرئيس القوتلي في افتتاح مؤتمر المجامع اللغوية بدمشق قوله: لقد صانت هذه اللغة الخالدة عروبتنا، وحفظت وحدتنا، وقارعت الغاصبين والطغاة قروناً وأجيالاً، ومشت إلى جانب نضالنا القومي خطوة خطوة، وهدفاً هدفاً، وناجزها الاستعمار العداء يوم شعر بخطر سيادتها وسلطانها، فحاول اقتحام معاقلها، وإذلال مناعتها، وتهوين شأنها، وتغليب العجمة عليها، فكنتَ تجد في كل زمان ومكان رجالها الذائدين عنها، والمنافحين عن صحتها وسلامتها.

وإننا اليوم لعلى يقين من أننا واجدون في هذه المجامع العلمية العربية خير من يستطيع أن يعمل في سبيل تعزيز شأن هذه اللغة، ودفعها إلى المجالات الفسيحة حيث يجب أن تلتقي مع حاجات العصر وتطوّر الزمان، بما تميّزت به من سعة ومرونة وطاقة وقوّة وبيان.

وأشار وزير المعارف د. حومد إلى مشكلة العاميّة الزاحفة لمزاحمة الفصحى، ودعا إلى ضرورة الإسراع في حسمها قبل أن يستفحل شرّها!

ثم كانت كلمة **د. طه حسين** رئيس اللجنة الثقافية الدائمة في جامعة الدول العربية.

أشاد د. طه حسين بسورية وبشعبها، وبممثّل مجمعها في اللجنة الثقافية الأستاذ عبد الهادي هاشم الذي كان صاحب فكرة المؤتمر، وقال: «ومن الطبيعي أن يكون عقد أول مؤتمر للمجامع العلمية في مصدر التفكير فيه، في دمشق مهد العروبة وعاصمتها.

وهناك مزيّة خاصة لدمشق فمجمعها العلمي الموقَّر هو أول المجامع العربية وجوداً، وأشدّها نشاطاً، وأخصبها إنتاجاً، وأعظمها تأثيراً في حياة اللغة العربية، وأقدرها على إحياء التراث العربي القديم، نتخذه في كل هذه

الأشياء مثلاً ونموذجاً، ونطمع أن نسير في إثره، وأن نصنع صنيعه، وأن نقتدي برجالاته من زعماء العروبة وأعلام البيان».

وهذا ما نشرته جريدة الفيحاء الصادرة بدمشق في ٨ تشرين الأول سنة ١٩٥٦م (العدد ١٩٦٤).

مقررات مؤتمر المجامع اللغوية:

- اعتبار البلاد العربية وحدة ثقافيّة، وإلغاء الضرائب المفروضة على المطبوعات.
- مطالبة وزارات المعارف والإذاعات العربية بالتزام اللغة العربية الصحيحة.
- دراسة وسائل ترقية اللغة العربية، وتأجيل النظر في مقترحات تيسير النحو.

ننشر فيما يلي نص مقررات مؤتمر المجامع اللغوية العلمية العربية الذي عقد في دمشق، واستمر انعقاده سبعة أيام، وانفضَّ مساء يوم الخميس الماضي:

يعلن مؤتمر المجامع اللغوية العلمية المنعقد في دمشق من ٢٩ سبتمبر (أيلول) إلى ٤ أكتوبر (تشرين أول) سنة (١٩٥٦)، أنه حين تنادت المجامع اللغوية العلمية لعقد هذا المؤتمر كانت ترمي إلى تحقيق نهضة لغوية شاملة تمكِّن الأمة العربية من مسايرة ركب الحضارة الإنسانية العالمية في تطورها في مختلف جوانب الحياة.

وكان لا بد لذلك من تفاهم تام بين المجامع اللغوية العلمية في شؤون اللغة، ورسم مناهج العمل في هذا الشأن الخطير، حتى تستعيد اللغة العربية سيرتها الأولى التي وسعت الشرائع والعلوم والحضارات القديمة، وتتجارى في العصر الحاضر مع اللغات العالمية المماثلة.

وقد درس المؤتمر جملة من المشكلات التي عُرِضَت عليه ورأى فيها ما يلي:

أولاً- تأسيس اتحاد للمجامع اللغوية العلمية:

أ- يوصي المؤتمر بتأسيس اتحاد للمجامع اللغوية العلمية ينظِّم الاتصال بين المجامع العربية وينسِّق أعمالها.

ب- يتألف الاتحاد من ثلاثة مندوبين عن كل مجمع تختارهم المجامع لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، ويضاف إليهم عضو عن كل دولة من دول الجامعة العربية ليس فيها مجمع تعيِّنه حكومته، ويتمتع بما يتمتع به أعضاء الاتحاد.

ج- تدعو الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الاتحاد إلى الاجتماع في أوقات دورية، وتدفع نفقات أعضائه وإقامتهم واجتماعاتهم.

د- يضع الاتحاد في دورته الأولى نظامه الداخلي ويعرضه على المجامع اللغوية.

هـ- ينظّم الاتحاد الصلات بين المجامع العربية ووزارات المعارف والإدارات الثقافية بجامعة الدول العربية.

ثانياً- وسائل ترقية اللغة العربية:

أ- يرى المؤتمر أن تُلزم وزاراتُ المعارف أساتذةَ المدارس - على تنوع اختصاصهم - إلقاء الدروس باللغة العربية الفصحى في مراحل التعليم كله، وفي معاهد المعلمين خاصة.

ب- وأن تلتزم الإذاعات العربية اللغة الصحيحة فيما تذيع من أحاديث، وفي معظم التمثيليات والأغاني.

ج- وأن تكون الترجمة للروايات السينمائية باللغة الصحيحة.

د- وأن يكثر من استعمال اللغة الصحيحة في الروايات المسرحية.

هـ- وأن يُلتزم الشكل الكامل في الكتب المدرسية الابتدائية حتى يعتاد الطلاب سماع اللفظ الصحيح وقراءته، ويُخفف منه في مرحلة التدريس الثانوي حتى يقتصر فيه على ضبط ما يُشكل.

تيسير النحو:

٢- نظر المؤتمر في مقترحات تيسير النحو التي أعدتها وزارة التربية والتعليم في مصر، فوجد بعد دراستها أنها تحتاج إلى زيادة في البحث والتمحيص، وقرر تأجيل النظر فيها إلى مؤتمر آخر.

تقريب العاميّة من الفصحى:

٣- أ- يقرر المؤتمر أن تقرب العاميّة من الفصحى.

ب- يعنى كل مجمع بجمع الألفاظ الدالّة على الأشياء والمعاني الجارية بين الناس، فإذا كان اللفظ العامي عربي الأصل - وقد حُرّف أو صحّف - صُحّح واستُعمِل؛ وإذا لم يكن عربي الأصل نُظِرَ في لفظٍ غيره أو أُقرَّ استعماله، ثم تُتخذ الوسائل لنشر ما أقرّ وإذاعته.

تأليف معجم واسع شامل:

يوصي المؤتمر بأن تتعاون المجامع على إعداد جزازات[1] لمفردات اللغة قديمها ومستحدثها مضافاً إلى ذلك ما تتفق عليه المجامع الثلاثة من المصطلحات العصرية.

تشجيع التأليف وحمايته:

ثالثاً- التأليف والترجمة:

١- يوصي المؤتمر لتشجيع التأليف وحمايته:

(١) جُزازة كل شيء: ما قطع منه. وغلّبوا الجذذ لما كان صُلباً؛ لأن الجذَّ هو كسرُ الشيء الصُّلب، كما في لسان العرب.

أ- أن تمنح المجامع المؤلفين جوائز أو أن تنوِّه بتآليفهم.

ب- وأن تجري مباريات في موضوعات تعيِّنها كل سنة، وتجيز أحسن المتبارين.

ج- ويوصي أن تهتم وزارات المعارف في البلاد العربية باتخاذ الوسائل التي تضمن ملكية التأليف بين البلاد العربية.

البلاد العربية وحدة ثقافية:

د- يطلب المؤتمر إلى الحكومات العربية إزالة الموانع والقيود التي تحول دون انتشار الكتب، واعتبار البلاد العربية وحدة ثقافية، وإلغاء المكوس والضرائب التي تفرض على المطبوعات.

هـ- وأن تصدر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية نشرات دورية للتعريف بالمطبوعات العربية.

ترجمة الروائع القيِّمة:

٢- وفي الترجمة يوصي المؤتمر:

أ- بأن تعمل المجامع على ترجمة الروائع ذات القيمة الأدبية أو العلمية من اللغات الأجنبية، وأن تضع قوائم بأمهات الكتب الجديرة بالترجمة.

ب- وأن تصدر الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية نشرة دورية تبيِّن فيها ما تُرجِم، أو ما أُخِذ في ترجمته، أو ما تقرر ترجمته إلى اللغة العربية.

ج- وأن تنوِّه المجامع بأحسن الكتب المترجمة أو تضع جوائز لها.

وضع المصطلحات العلمية:

رابعاً- المصطلحات العلمية:

أ- يوصي المؤتمر بتعاون المجامع والجامعات وسائر المؤسسات العلمية على وضع المصطلحات أو تحقيقها.

ب- يرى المؤتمر أن يكون اتحاد المجامع المرجع الذي يوحِّد المصطلحات التي تضعها المجامع والمؤسسات العلمية والعلماء.

دستور للمصطلحات:

ج-ويوصي بجمع القواعد والشروح التي وضعها مجمع اللغة العربية في التعريب وقياسية بعض الأوزان والجموع في كتاب تطبعه الجامعة العربية؛ ليكون دستوراً للمجامع فيما تضع أو تحقق من مصطلحات.

د- يوصي المؤتمر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بأن تكمِّل ما قامت به من جمع المصطلحات العلمية في كتب التعليم الابتدائي والثانوي في البلاد العربية، وأن تطبعها في كتاب بعد أن يقرّها اتحاد المجامع.

وضع معجم إنكليزي فرنسي عربي:

هـ- يوصي المؤتمر بوضع معجم إنكليزي فرنسي عربي شامل للمهمّ من المصطلحات العربية والمعرّبة، على أن تعرَّف الألفاظ منه بالعربية تعريفاً موجزاً، وتقوم الأمانة العامة بالتعاون مع اتحاد المجامع بإخراج هذا المعجم.

و- يوصي المؤتمر باتخاذ الوسائل لتكون اللغة العربية لغة التدريس في الجامعات.

حفظ المخطوطات ونشرها:

خامساً- تحقيق المخطوطات ونشرها:

أ- يوصي المؤتمر بأن تتخذ الحكومات العربية التدابير الوقائية الفنية لحفظ المخطوطات من التلف والضياع، وأن تصوّر مخطوطات كل مكتبة، وتزود كل مكتبة بآلات تصوير المخطوطات وقراءتها.

إعادة طبع عيون الكتب:

ب- يوصي المؤتمر بأن يعاد طبع عيون الكتب التي نشرها المستشرقون طبعاً علميّاً، على أن تُعارَض على نسخ مخطوطة أخرى إذا أمكن، ويوصي بإكمال السلسلات التي بدأها المستشرقون كالمكتبة الجغرافية وغيرها.

نشر المعاجم والكتب:

ج-يوصي المؤتمر بأن تُعنى المجامع ودور الكتب ومعهد المخطوطات بنشر المعاجم وما في بابها، والكتب الكبيرة، وأن تعمل المؤسسات العلمية في كل قطر على نشر الكتب المتعلقة بقطرها.

نشر المخطوطات:

د- يوصي المؤتمر بأن ينسَّق العمل بين المجامع ومعهد المخطوطات على الوجه الآتي:

١- التقريب بين طرائق نشر المخطوطات في البلاد العربية.

٢- يرسل معهد المخطوطات قوائم دورية بأسماء الكتب التي صوّرها إلى المجامع.

٣- تتبادل المجامع ومعهد المخطوطات قوائم دورية بأسماء ما يحقق من المخطوطات أو ما هو تحت الطبع.

٤- يوصي المؤتمر بأن تشجِّع المجامع ومعهد المخطوطات تحقيق الكتب القديمة بطبع ما تراه جديراً بالنشر، وبمكافأة المجيدين من المحققين.

٢- التعريب ومؤتمراته :

صدرت قرارات جعل التعليم باللغة العربية في جميع مراحل التعليم في البلاد العربيّة عن مؤتمرات لوزراء التربية العرب، وللجامعات العربية، والمجامع اللغوية متكرِّرة على النحو الآتي:

١- سنة ١٩٤٦م عن وزراء التربية العرب في الكويت.

٢- سنة ١٩٥٦م عن مؤتمر المجامع العربية في دمشق.

٣- سنة ١٩٦٩م عن المؤتمر الثقافي الثامن في القاهرة.

٤- سنة ١٩٧٣م عن مؤتمر التعريب العربي الثامن في الجزائر.

٥- سنة ١٩٧٨م عن مؤتمر التعريب في بغداد.

٦- سنة ١٩٩٧م عن مؤتمر المجامع اللغوية العربية في الدورة ٦٣ في القاهرة.

٧- سنة ٢٠٠٨م عن مؤتمر التعريب الحادي عشر في عمّان.

ولست أشك أنني أسقطت بعض المؤتمرات التي لم تقع وثيقته بيدي. ومعنى ذلك أننا أمّة تراوح في مكانها زاعمة أنها تسير وتتقدّم! فإذا كان الوزراء - وهم التنفيذيّون في الحكومات والدول - لا ينفّذون ما اتفقوا ووقَّعوا عليه، فمن المسؤول عن التنفيذ؟! وإذا كان القرار ذو الشأن يبلغ من عمره الخمسين، وما زال ينتظر التنفيذ، فمتى يبلغ الأمر تمامه؟! ومتى تحقّق

الأمّة مطالبها وتبلغ غاياتها؟ وإن لنا في سورية، والقطر السوداني لدرساً في هذا الميدان؛ فقد كان التعليم في مرحلة التعليم الثانوي في السودان باللغة الإنكليزية، فأصدرت وزارة التربية أمراً في سنة ١٩٦٥م بتعريب الدراسة في جميع موادّ المرحلة الثانوية... وفي سنة ١٩٩٢م انطلقت مسيرة التعريب في التعليم العالي، وتم تدريجيّاً سنة بعد سنة، حتى شمل التدريس الجامعي بكل سنواته، وكانت النتيجة بعد عشر سنوات، كما جاء في تقرير الدكتور دفع الله عبد الله الترابي هي:

١- «إن استيعاب الطلاب للعلوم باللغة العربية فاق بقدرٍ كبير استيعابهم لها باللغة الأجنبية.

٢- ارتفع مستوى الأداء باللغة العربية للأساتذة والطلاب.

٣- فتح التعريب باباً واسعاً للتأليف والترجمة العلمية، وقد كان هذا الباب مغلقاً منذ خمسين سنة.

٤- ازداد عدد الجامعات والكليات، وأصبح لديهم العدد الكافي من الأساتذة.

٥- تضاعف عدد الطلاب في الجامعات عشرين ضعفاً في المدّة التي انطلقت فيها مسيرة التعريب.

٦- تبيّن أن تأخّر صدور القرار السياسي بالتعريب هو السبب المباشر لتراجع الحركة العلمية عند العرب، وعدم القدرة على المشاركة الفاعلة في إنتاج المعرفة العلمية، وأفقدهم السيطرة الكاملة على مواردهم وطاقاتهم من أن يتمّ تسخيرها لخدمة الأمة».

ولقد كانت التجربة السورية أثبتت من قبل أن العربية قادرة على أن تلبي حاجة التعليم في جميع مراحله، وأن المعاهد والكلّيّات التي أنشئت

في ثلاثينيّات القرن الماضي، والتي كانت تخرّج طلابها في الطبّ والعلوم، وما زالت تخرّجهم، وهي تعلّم بالعربيّة منذ أنشئت = لم تكن أقلّ نجاحاً من مثيلاتها التي علّمت العرب بغير لغتهم، وأثبتت سورية أن طلابها حين تابعوا دراساتهم في البلاد الأجنبية كانوا متفوّقين.

ولقد أثبت الواقع الذي عرفناه في بلاد العرب كلّها، أن التعريب ينطلق بنجاح، ويتمّ تنفيذه وتعميمه حين يكون اعتماده على عاملين اثنين هما: الوعي اللغويّ السليم، والقرار السياسي الحازم، وهي قاعدة عامّة هامّة لنجاح الأمم، تلك هي المعاضدة والاتفاق بين علم العالم ووعيه، وحكمة الحاكم وحزمه، وقد ظهر ذلك جليّاً حين كان ابن عساكر علّامة الشام ومؤرخها، يعضد حكم نور الدين زنكي، ومن بعده حكم صلاح الدين الأيوبي، فأعطى التعاون بين العالم والحاكم أطيب الثمرات في جميع المواقف.

* * *

ويغيب نجم

أ. د. محمود أحمد السيّد(*)

ما أمرَّ أفولَ النجوم الثقافية من سماء وطننا العربي في وقت نحن في أَمسِّ الحاجة فيه إلى إشعاعاتها!

وما أقسى غيابَ قامات شامخة وقفت نفسها لخدمة أمتها عبر مسيرتها، فكانت القدوة والمثال الحيّ سموّاً معرفيّاً، وكمالاً مناقبيّاً، وعطاءً فكريّاً متعدد المناحي!

لقد فقدت أمتنا العربية عالماً كبيراً من علمائها، ألا وهو الصديق الصدوق الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب رئيس المجمع العلمي اللغوي في بغداد، رحمه الله الرحمة الواسعة سعة ما قدمه لأمته من أفانين العطاء العلمي الهادف.

ومن يطلع على السيرة العلمية للأستاذ المرحوم الدكتور أحمد مطلوب يجد أنه كان متميزاً في أدائه منذ أن كان طالباً في مرحلة الإجازة الجامعية الأولى إذ حصل على الشهادة من قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم ببغداد بدرجة امتياز عام ١٩٥٦، وكان الأول على جميع أقسام الكلية، وكان متميزاً في دراساته العليا، فقد حصل على شهادة الدكتوراه في البلاغة والنقد بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة سنة ١٩٦٣.

(*) رئيس اللجنة الوطنية العليا للتمكين للغة العربية في سورية، ونائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

وكان رحمه الله متميزاً في عمله التدريسي الجامعي ومشهوداً له في الكفاية العلمية في جميع الأماكن التي عمل فيها، إنْ في جامعة بغداد، أو في جامعة الكويت، أو في الجامعة المستنصرية، أو في جامعة وهران بالجزائر، أو في جامعة مارتن لوثر في ألمانيا، إضافة إلى عمله أستاذاً محاضراً في معهد البحوث والدراسات العربية العليا بالقاهرة سنتي ١٩٦٨ و١٩٧٠، وفيه ببغداد سنوات ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، وعمله أستاذاً محاضراً في معهد التطوير الإذاعي في السنوات ١٩٨٣ و١٩٨٤ و١٩٨٥ وما بعدها.

لقد عرفتُه في سبعينيات القرن الماضي عندما كان أستاذاً في قسم اللغة العربية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الكويت برفقه قرينته الفاضلة المرحومة الأستاذة الدكتورة خديجة الحديثي، وكنت آنئذ أعمل في كلية التربية ومعهد التربية للمعلمين ومعهد التربية للمعلمات في الكويت، وكان الصديق العراقي المرحوم الأستاذ الدكتور صدقي حمدي زميلاً لنا في العمل في المعهد، وكان جاراً لي في السكن.

ولقد كانت للمرحوم الدكتور مطلوب ورفيقة دربه المرحومة الدكتورة خديجة جهود طيبة في ترسيخ دعائم التدريس الأكاديمي والبحث العلمي في كلية الآداب، وقد أشرفا على طلبة عدة في الدراسات العليا بعضهم من العرب وبعضهم الآخر من غير العرب، وكانا مضرب المثل في الموضوعية والنزاهة والاستقامة، فإذا ذُكِرا ذُكِرتِ المناقب الرفيعة، والقيم السامية، والجدية في العمل وإتقانه، والحرص على المستوى العلمي الراقي.

وشاءت الظروف أن ألتقي الدكتور مطلوب رحمه الله في رحاب مؤتمر التعريب الذي عقد في دمشق عام ٢٠٠٢، وكنت آنئذ وزيراً للتربية في الجمهورية العربية السورية، ورئيساً لهذا المؤتمر. ولا يمكنني أن أنسى

إسهاماته الغنية في المؤتمر مناقشةً للمصطلحات المنجزة والمعروضة، وتعقيباً على أوراق العمل المقدمة، وكانت آراؤه وملاحظاته محلّ تقدير المؤتمرين كافة.

وتتالت لقاءاتنا في مؤتمرات مجمعَيِ اللغة العربية بدمشق والقاهرة، وفي اجتماعات اتحاد المجامع اللغوية العلمية في الوطن العربي في القاهرة، فكان نعم الصديق، ونعم العالم الرزين والرصين، ونعم الناصح الأمين.

وإن أنسَ لا يمكنني أن أنسى مشاركته الإيجابية والمتميزة في المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠٠٨، وكان عنوان المؤتمر (التجديد اللغوي)، وقد ألقى فيه بحثاً أصيلاً عن التجديد اللغوي في البلاغة، تحدث فيه عن التجديد اللغوي في البلاغة، وفرَّق فيه بين دعوات هدامة للقضاء على أهم مقومات وحدة الأمة العربية وبين دعوة المخلصين من أبناء الأمة الغيارى على عروبتهم ولغتهم، وهي دعوة تنطلق في تجديدها من أصول اللغة العربية وخصائصها التي تتميز بها، والتجديد عندهم ليس الهدم الذي دعا إليه بعض المستشرقين ومن والاهم، وإنما هو التيسير الذي يجعل اللغة على كل لسان؛ وأبان أن التجديد في البلاغة تجلّى لدى أمين الخولي وعبد الله العلايلي وأحمد الشايب وأحمد مطلوب ومحمد عبد المطلب، وكان لهم دور في رسم منهج البلاغة وتيسير مباحثها، وكان تجديدهم ينبع من التراث ومما استجد في العصر الحديث من دراسات تتصل بالبنيوية والأسلوبية والشعرية وما بينها وبين الدرس البلاغي من صلات.

وأشار إلى أن الاكتفاء بالمؤتمرات لا يحلّ مشكلة اللغة، ولن يجدي نفعاً كبيراً ما لم يُنْجَزِ التعريبُ في الوطن العربي كله، ويكن البحث والتأليف والتدريس باللغة العربية كما هو الآن في سورية التي صمدت أمام

التحديات قرناً كاملاً، وستصمد إلى ما شاء الله، لأن هذا قدرها وقدر كل مخلص من العرب.

وكان ثمة توجه في المؤتمر المتعلق بالتجديد اللغوي في البلاغة إلى:

١- إلغاء التقسيم الثلاثي وجعل البلاغة فنّاً واحداً، وبحث موضوعاتها في ضوء الترابط بين واحد وآخر، وما أشار إليه البلاغيون الجدد من مستويات: المستوى الصوتي والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي.

٢- الاهتمام بالمستوى الصوتي والألفاظ ودلالاتها وما فيها من جمال وجرس له أثر في التعبير، وأن يكون البحث في الفصاحة من صميم المستوى الصوتي، وهو ما عُني به القدماء كابن سنان الخفاجي وضياء الدين بن الأثير.

٣- البحث في الجملة وأحوالها، وما يحدث فيها من حذف وذكر وتقديم وتأخير، وارتباط الجمل مما بحثه البلاغيون في موضوع الفصل والوصل.

٤- البحث في الفقرة والقطعة الأدبية والنص الكامل ما أمكن ذلك.

٥- البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من مباحث علم البيان.

٦- التقليل من التقسيمات والتفريعات التي يضل الدارس فيها.

٧- توحيد المصطلحات والأخذ بأكثرها دلالة على الفن البلاغي، وترك التسميات المتعددة للفن الواحد، إذ بلغت مصطلحات البلاغة الأساسية والفرعية أكثر من ألف مصطلح.

٨- تنقية البلاغة مما علق بها من مصطلحات الفلاسفة وأهل

المنطق والعلوم التي لا تمت إليها بصلة وثيقة مثل: الكم، الكيف، العرض، الجوهر، المؤمن، الدهري، الماهية، التأسيس، الموجبة، السالبة، اللذة، الألم، حرارة الحروف وبرودتها ورطوبتها ويبوستها... إلخ.

٩- تحلية البلاغة بما استجدّ ويستجدّ من دراسات بلاغية ونقدية وأدبية وجمالية، مما يرفدها بكل جديد لا يهدم أصولها، ولا يمحو معالمها.

١٠- الاهتمام بعرض الفنون البلاغية بأسلوب رفيع يثير المشاعر، ويحرّك النفوس قبل أن ينفذ إلى العقول فتدركه، لأن البلاغة فن يرتبط بالذوق والإحساس الروحاني.

١١- اختيار النصوص الرفيعة، وتلمُّس البلاغة فيما استجدّ من فنون أدبية تعبر عن المعاصرة.

١٢- تحليل النصوص تحليلاً أدبيّاً، والابتعاد عن المماحكة والتحليل الذي يجعلها طلاسم.

١٣- توحيد أسلوب التأليف، وعدم الانتقال من أسلوب إلى آخر كما كان القدماء ينتقلون إلى أساليب الفلاسفة وأهل المنطق عندما يناقشون، وأساليب الفقهاء حين يعلّلون، وأساليب النحاة حين يعرضون لمباحث علم المعاني، ويفصّلون القول فيها.

١٤- الدعوة إلى التكامل بين النحو والبلاغة، بمعنى أن نضع ما يتصل بموضوعات النحو من موضوعات علم المعاني في البلاغة في سنة واحدة، فالمعارف في النحو ترافقها في السنة نفسها دراسة دواعي التعريف والتنكير من علم المعاني، ومواضع ذكر

المبتدأ والخبر وحذفهما وتقديمهما وتأخيرهما ترافقها دواعي الذكر والحذف ودواعي التقديم والتأخير، حرصاً على وحدة الموضوعات التي فرقتها مناهجنا وأساليب تعليمنا تأليفاً وتوزيعاً للموضوع الواحد بين المدرسين والامتحانات حتى تمزّقت في عقول الطلبة، ولم يقم في عقولهم أنها مادة واحدة وأن لها جميعاً هدفاً واحداً يحسن أن نبلغه ونبلّغه على حدّ تعبير الأستاذ الدكتور مازن المبارك.

لم يكن الدكتور مطلوب مجلّياً في أدائه التدريسي والأكاديمي فقط، وإنما كان متميزاً في الوظائف الإدارية التي شغلها عبر مسيرته، وقد عمل عميداً لكلية الآداب في جامعة بغداد بالوكالة سنتي ١٩٦٦ و١٩٦٨، ثم بالأصالة عامي ١٩٨٤- ١٩٨٦، وعمل رئيساً لهيئة العناية باللغة العربية خلال الأعوام ١٩٩٢-١٩٩٦، ثم عيّن أميناً عامّاً للمجمع العلمي العراقي من ١٩٩٦ حتى ٢٠٠٣، وأصبح رئيساً للمجمع منذ سنة ٢٠٠٧ إلى أن توفاه الله، وتسلّم وزارة الثقافة والإرشاد في العراق من قبلُ سنة ١٩٦٧.

وتجدر الإشارة إلى أن فقيدنا الكبير كان عضواً عاملاً في المجمع العلمي العراقي منذ عام ١٩٨٥ وعضواً عاملاً في المجمع الملكي (مؤسسة آل البيت الملكية للبحوث الإسلامية في الأردن) منذ عام ١٩٩٢، وعضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ٢٠١٦، وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق منذ عام ٢٠٠٠، ومؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني منذ عام ١٩٨٨، وعضو اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في القاهرة منذ عام ٢٠٠٧، وعضو المجلس العلمي في مكتب تنسيق التعريب بالرباط منذ ٢٠٠١.

لقد كان فقيدنا معطاء بكل ما تحمل كلمة العطاء من معانٍ ودلالات، إذ لم يقتصر عمله على التدريس، وإنما كان له في الصحافة باع كبير، فقد شارك في تحرير بعض المجلات رئيساً للتحرير أو عضواً لهيئة التحرير أو عضواً استشاريّاً في هيئة التحرير، وقد زادت المجلات التي عمل فيها على ثلاث وعشرين مجلة. وألقى كثيراً من الأحاديث الإذاعية في ستينيات القرن الماضي، كما قدّم عدة ندوات تلفزية حاور فيها أعلاماً بارزين.

أما اللجان الدائمة التي كان عضواً فيها فقد بلغت سبعاً وعشرين لجنة أغلبها في المجمع العلمي العراقي، إضافة إلى مئات اللجان المؤقتة، ومنها لجان مناقشة رسائل الدراسات العليا في العراق والأردن ومصر والكويت، ذلك كله إلى جانب كونه عضو مجلس أمناء هيئة المعجم التاريخي للغة العربية منذ عام ٢٠٠٧.

وإذا وقفنا على الكتب والبحوث التي ألَّفها فقيدنا الكبير فإننا لنقدِّر عالياً وفرة هذه الكتب المؤلفة والمحققة ووفرة البحوث العلمية المنشورة في المجلات العلمية المحكمة، إذ إنه ألّف واحداً وتسعين كتاباً في البلاغة والنقد والأدب والثقافة والمعاجم والتعريب والتراث والمصطلحات، وأصدر ستة عشر كتاباً محققاً من كتب التراث في الشعر وبلاغة القرآن والأدب، ونشر أكثر من مئة وثلاثين بحثاً علميّاً داخل العراق وخارجه. وقد نشرت كتبه في بغداد والكويت والقاهرة وبيروت والموصل وعمان وديالى، وكانت أغلب الكتب المحققة التي نشرها بالمشاركة مع قرينته الفاضلة المرحومة الدكتورة خديجة الحديثي.

ولقد أسهم عالمنا الجليل الدكتور مطلوب في تأليف الكتب المدرسية في وزارة التربية بالعراق بمشاركة نوري القيسي وعبد المطلب الهاشمي في

بعضها، ومشاركة الدكتور عمر الملا حويش وعبد الرضا صادق في تأليف كتاب البلاغة للمدارس الإسلامية، وقد طُبع عدة مرات.

وغني عن البيان أن فقيدنا كان شاعراً مشهوراً أيضاً، وقد صدرت له عدة كتب شعرية منها: مرافئ الصبا، أحبك يا عراق، حبيبتي بغداد، حبيبتي وفاء، حبيبتي سناء، حبيبتي فداء، رفيف المنى، لولا حبك، إضافة إلى مجموعة رباعيات منها: أنين الزمن، أنين الشجن، أنين الوطن.

ولقد نال بكل جدارة وكفاية عدداً من الأوسمة والجوائز والدروع، ومن الأوسمة التي حازها وسام الدولة للآداب في العراق سنة ١٩٨٧، ونوط الامتياز من الطبقة الأولى من مصر سنة ١٩٩٠، ونوط الاستحقاق العالمي من العراق سنة ١٩٩٣ و٢٠٠٠ و٢٠٠٢، ووسام العلم سنة ٢٠٠٠، وشارة العلم سنة ٢٠٠٠ و٢٠٠١ و٢٠٠٢، ثم وسام جائزة الملك فيصل العالمية سنة ٢٠٠٨. ومن الجوائز التي نالها جائزة الدولة التقديرية للآداب في العراق سنة ١٩٨٧، وجائزة الملك فيصل العالمية سنة ٢٠٠٨ في قضايا المصطلحية.

ومن الدروع التي سُلّمت له تقديراً لعلمه وجدارته درع وزارة الثقافة والإعلام عام ١٩٨٧، ودرع كلية التربية في الجامعة المستنصرية سنة ١٩٩٢، ودرع جامعة مؤتة في الأردن عام ١٩٩٨، وجامعة الكوفة عام ٢٠٠٩، وجامعة ديالى عام ٢٠١٠، ودرع بيت الحكمة عام ٢٠١٢، وجامعة الزيتونة الأردنية عام ٢٠١٣، ودرع يوم اللغة العربية العالمي من مجلس الوزراء بالعراق عام ٢٠١٣.

ومن الفعاليات والمناشط التي قام بها فقيدنا الكبير إسهامه في أعمال المؤتمرات والندوات على جميع الصعد محليّاً وعربيّاً وإقليميّاً وعالميّاً، وبلغ عدد الندوات والمؤتمرات التي حضرها وشارك فيها في العراق وخارجه أكثر من مئة ندوة ومؤتمر.

ولكم كنت أنتظر بشوق عارم لقاءه في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة واجتماع اتحاد المجامع العلمية اللغوية العربية على هامشه، فقد كنا نستقل السيارة معاً من الفندق الذي كنا نقيم فيه إلى مقر المؤتمر في المجمع، ومن المؤتمر إلى الفندق، ونتناول الغداء معاً، ونتبادل الأحاديث والآراء في أعمال المؤتمر وهموم اللغة.

وكان مجمع القاهرة في مؤتمره الذي يمتد أسبوعين كاملين يخصص ثلاثة أيام منها للقيام برحلة إلى أحد المنتجعات السياحية، فكنا نتزامل في هذه الرحلات، وصادف أن اعتذر رحمه الله عن عدم اشتراكه في إحدى الرحلات، وكنت أصطحب معي مخطوطة لكتابي «أزاهير أدبية»، وفيه مختارات لأدباء اتسموا بفرط الحساسية واتقاد المشاعر ورهافة الوجدان، واشتمل على عشرة فصول في الأمثال والحكم والتصوف والحب والعشق والحنين والتعلق بالوطن وقضايا الأمة والوصف والسمات الشخصية والنفسية والتربية والتحلي بالمناقب... إلخ؛ وطلب إليَّ أن يحتفظ بالمخطوطة معه في الفندق ليطلع عليها، وهو مقيم فيه في أثناء اشتراكي في الرحلة، واطلع رحمه الله على المخطوطة، وسجّل بعضاً من ملاحظاته القيمة، واقترح أن أضيف إلى فصل أزاهير مسقية بالدمع قصيدة الشاعر نزار قباني في رثاء زوجته بلقيس، فهي من عيون الشعر والأدب، وأخذت بمقترحه وشكرت له ذلك مسجلاً له الشكر في مقدمة كتابي.

لقد افتقدته في المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة عام ٢٠١٨، إذ لم يحضر أعمال هذا المؤتمر، بسبب وضعه الصحي، وإنما أرسل بحثاً إلى المؤتمر عنوانه «الغزو اللغوي» وُزّع على المؤتمرين، وكان آخر بحث أطلع عليه لفقيدنا الكبير، وقد أبان في بحثه أن أهم معالم الغزو إعلاء لغة المحتل

والتبشير بها، وفتح المعاهد لتعليمها وتكريم دارسيها، وتعيينهم في الوظائف العامة دون غيرهم ممن لا يعرفون لغة الغازي، ظنّاً أن لغته عالمية. ومن معالم الغزو الادعاء بأن اللغة العربية ليست لغة علمية، والدعوة إلى العامية، وهذه من أخطر أهداف الاستعمار؛ والدعوة إلى الأخذ بالحرف اللاتيني، وإهمال الشهور العربية، واستعمال أسماء الشهور الفرنسية في المغرب العربي، وأسماء الشهور الإنجليزية في دول الخليج العربي، والتراجع في التعريب، ومحاولة إلغاء تدريس العربية في أقسام غير الاختصاص، والسماح للدول الأجنبية بفتح كليات وجامعات تدرس بلغات دولها، والسماح لرياض الأطفال ومدارس التعليم الأساسي والثانوي بالتعليم بالأجنبية، واتخاذ اللغة الأجنبية لغة السوق. وأبان الباحث أن الاهتمام باللغة الأجنبية شيء، والتدريس بها شيء آخر، ففي الأول انفتاح على الثقافة والحضارة والعلوم، وفي الثاني قهر للغة الأم.

ووقف الباحث على ما يروّجه دعاة العولمة من أنهم يريدون عالماً موحداً يسيطر عليه القطب الواحد الذي يفرض لغته وثقافته ونمط حياته، ويَسْعَون إلى نشر اللغة الأجنبية وإشاعة العامية، وصهر المجتمعات في بوتقة واحدة. وأوضح أن الاهتمام بالعربية والحفاظ عليها يقتضي إيمان السلطة بأهمية العربية، وأن تكون حارساً أميناً عليها، وإصدار قوانين لحمايتها، ونشر الوعي اللغوي بين المواطنين في وسائل الإعلام المختلفة، وتشكيل هيئات عامة للعناية بالعربية، تكون مسؤولة عن تنفيذ قوانين الحفاظ على اللغة، وأن يكون لمجامع اللغة سلطة تنفيذية، وأن ينفذ التعريب بقرار سياسي كما فعلت سورية في مطلع القرن العشرين، وما حدث في العراق في سبعينيات القرن الماضي، والاهتمام بالترجمة، وألّا

يسمح للتعليم الأجنبي بمَدِّ خيوطه اللغوية ليبعد المواطنين عن لغتهم، ودراسة التراث اللغوي دراسة معمقة وإجراء بحوث مستفيضة، وإنشاء منظمة دولية تُعنى باللغة العربية على غرار المنظمة الدولية الفرانكفونية، مهمتها وضع الخطط الكفيلة بالحفاظ على سلامة العربية وتنميتها ونشرها في العالم، على أن يكون لها سلطان تنفيذي في جميع أنحاء الوطن العربي، ويكون ارتباطها بالمنظمة الإسلامية أو بجامعة الدول العربية.

وخلص الباحث في نهاية بحثه إلى أن الغزو اللغوي الذي أعقب الاحتلال أفقد العرب هويتهم حين جنحوا للغة المحتل، وكادت العربية تصبح نسياً منسيّاً حين بدأ التعليم بالأجنبية، وأن الأخذ بالأجنبية في التعليم والعمل كاد يفضي إلى التشرذم، وفي هذا ضياع الهوية العربية، وهو ما تسعى إليه العولمة وقطبها الواحد. والغزو اللغوي أول الشرر، فهل من يخمده قبل أن يصبح ناراً تحرق الأخضر واليابس؟.

ذلكم هو آخر بحث أطلع عليه لفقيدنا الكبير. أما آخر اتصال هاتفي جرى بيننا فقد كان في شهر آب الماضي عندما اتصل بي مهنئاً بحصولي على جائزة الدولة التقديرية في البحوث والدراسات، إلا أن فرحتي بهذا الاتصال لا تعادل إلا جزءاً يسيراً جدّاً من الألم الذي أحدثه نبأ رحيله عنا إلى الدار الآخرة، ورحم الله حكيم المعرة القائل:

إنّ حزناً في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

رحمك الله أيها العالم العلّامة الجليل القدر والمكانة، والمشهود له بالرزانة والرصانة، فكم في بحوثك من فِكَر مستنيرة ورائعة ومن توجهات خيّرة ولامعة! وجزاك الله عن أمتك ولغتها الخالدة خير الجزاء.

* * *

(ما) و(لا) النافيتان والفروق بينهما

أ. د. مكي الحسني(*)

الأداة (ما) على اثني عشر وجهاً، منها:

(ما) النافية، والاستفهامية، والموصولية (بمعنى الذي)، والتعجبية... وبمعنى (مَن) للتفخيم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣]: أي القادر العظيم القدرة الذي قَدِرَ على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]. قال الإمام الزمخشري في الكشاف في تفسير هذه الآية: «**تعظيماً** لمولودها، وتجهيلاً لها بقدْرِ ما وهب لها منه، والمقصود بـ (ما) السيدة مريم أم سيدنا عيسى عليه السلام». لذا يقال – عند الحديث عن رجُل عظيم –: وهو ما هو!

١ – إن (لا) يمكن أن **تعمل عمل (ليس)** بلغة أهل الحجاز. قال الشاعر:

تَعَزَّ فلا شيءٌ على الأرض باقياً ولا وَزَرٌ مما قضى الله واقيا

(الوَزَر: الملجأ والمُعتصَم).

فهي تدخل على المبتدأ والخبر، فترفع المبتدأ (الذي يصير اسمها) وتنصب الخبر (الذي يسمى خبرها). وهي – عاملةً ومهملةً – تنفي الجنس برجحان؛

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

لأن النكرة في سياق النفي تعمّ، ما لم يقترن الكلام بقيد دال على نفي الواحد، كقولك: لا رجلٌ في الدار بل رجلان.

٢- (لا) **النافية للجنس تعمل عمل إنَّ**، فهي تدخل على المبتدأ والخبر، فتنصب المبتدأ الذي يصير اسمها، ويكون **مبنيّاً** على الفتح في محل نصب، إلا إذا كان مضافاً أو شبيهاً بالمضاف[(١)]، وترفع الخبر (الذي يسمى خبرها). ومعناها **نفي جنس ما بعدها** المتصل بها، نحو: ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، و(لا رجُلَ في الدار). فهذا يعني **نفي وجود جنس الرجال**، أمّا (لا رجلٌ في الدار) (لا هنا = ليس) فهذا نفي وجود رجل واحد. وربما كان هناك رجلان أو رجال.

ولكن يقال أيضاً: (ما من رجلٍ في الدار). وكلتا العبارتين **نصٌّ في نفي الجنس**، فما الفرق بينهما؟

العبارة المنفية بـ (لا) **جوابٌ** لسؤال حاصل أو مقدَّر هو: (هل من رجلٍ في الدار)؟ وهذا الجواب يكون إعلاماً للمخاطب بما لم يكن يعلم ، أو ما نُزِّل هذه المنزلة. أما العبارة المنفية بـ (ما) **فهي ردٌّ على قولٍ وتصحيحُ ظنّ**.

٣- (لا) تفيد النفي، وتعطف بشروط ثلاثة:

أ- أن يتقدمها **إثبات**، نحو (أقبل زيد لا عمرو)، أو **أمر**، نحو (أرسلْ سعيداً لا خالداً)، أو **دعاء**، نحو (غفر الله لك لا سارِقِك) أو **تحضيض**، نحو (هلّا تكرم سعداً لا مازناً)، أو **تَمَنٍّ**، نحو: (ليت لي بستاناً لا حديقةً).

ب- ألّا تقترن بعاطف، فإذا قلت: (ما جاء سليم ولا خالد) كانت الواو هي العاطفة و(لا) زائدة **لتوكيد النفي**.

جـ- أن يتغاير متعاطفاها نحو (أقبل رجل لا امرأة) بخلاف (أقبلت هند

(١) فحينئذٍ يصبح معرباً، نحو: لا رَجُلَي شَرٍّ محبوبان؛ لا قبيحاً خُلُقُه ممدوحٌ.

لا امرأة)؛ لأن هند امرأة!

٤- وتدخل (لا) على **المعارف** فيجب **إهمالها وتكرارها**، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، ونحو: (لا محمد حاضر ولا خالد مسافر)؛ وذلك لأنها عند ذاك لا يراد بها إلا إشراك أكثر من طرف في النفي، كأن يقول لك قائل: (خالد كاتب وإبراهيم شاعر)، فتقول: (لا خالد كاتب ولا إبراهيم شاعر). وهذا من باب **دخولها على الجُمل**.

٥- وقد تدخل (لا) على **الأسماء المفردة**، وهي العاطفة، نحو (جاء محمد لا خالد)، وتدخل على **الخبر** نحو: (هو لا شاعر ولا كاتب)، وعلى **النعت** نحو قوله تعالى: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤]، وقوله: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣]، وعلى **الحال**، نحو (جئتُ لا مسرعاً ولا مبطئاً).

ولا تقع (ما) في هذه المواضع الأربعة، فلا يقال (جاء محمد ما خالد)! ونلاحظ عند دخولها على المعرفة والخبر والنعت والحال أنه **يجب تكرارها**، لأن المراد حينئذ هو نفي أكثر من حالة. فإذا أريد نفي حالة واحدة، تُستعمل (غير) فيقال: (هو رجل غيرُ كريم)، (هذه فاكهة غيرُ ناضجة)، (رأيت سعيداً غيرَ راكب).

٦- ومن أقسام (لا) النافية (لا) المعترضة بين الجار والمجرور، نحو (جئت بلا زاد) و(غضِب من لا شيء).

٧- وتدخل (لا) على **الفعل المضارع**، فلا تُقيّده بزمن على الأرجح، ويرى النحاة أنها تخلِّصه للاستقبال.

والحق أنها قد **تكون للحال**، كقوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾

[الصافات: ٩٢]، وكقولك: لا أدري، لمن سألك عن شيء تجهله.

وقد **تكون للاستقبال**، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقد **تكون للاستمرار**، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وكقولك: فلان لا يُريح ولا يستريح. وتقع جواباً للقسم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

٨- ولا تدخل (لا) على الفعل الماضي **لإفادة النفي** مفردة، فلا يقال: (لا جاء فلان) بل (ما جاء فلان)، بل حين تدخل على الماضي **يجب تكرارها** نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١]، ونحو قولك: (لا جَلَبَ خيراً ولا دفع ضرّاً) **إلا في حالتين**:

أ- إذا كان المراد **الامتناع عن الفعل في المستقبل**، نحو: (والله لا فعلتُ ذلك أبداً). ورُوِيَ عن الجاحظ أنه قال: (... والله **لا تركتُ النادرةَ** ولو قتلتني في الدنيا وأدخلتني النار في الآخرة). وقال الأعرابي للخليفة معاوية الذي نبّهه إلى الشعرة في لُقمته: والله **لا آكلتُك** بعد اليوم! وكتب قاضي البصرة سوّار بن عبد الله إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي طلب منه أن يُخرج أرضاً (متنازعاً عليها) من يدي فلان التاجر ويدفعها إلى فلان القائد: «واللهِ الذي لا إله إلا هو **لا أَخرجْتُها** من يدي فلان التاجر إلا بحقّ!».

* وكقول أحدهم: «فَوَاللهِ **لا نسيتُ** ذلك اليوم أبداً!» طوق الحمامة لابن حزم/ ٢٠٦.

* وقول الآخر: لا زِلْتَ أو آخُذَ حقِّي منك.

هنا (زِلْتَ) من زال يزول زوالاً: تَحوَّل (تنقَّل) وانتقل من موضع إلى آخر. و(أو) بمعنى (إلى أنْ)، **وينتصب** بعدها الفعل **المضارع**، ومعنى العبارة: لن تَذهبَ إلى أنْ آخُذَ حقِّي منك!

* قال أحدهم لِعُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، أَتَقِفُ لهذه العجوز هذا الوقوف كلَّه؟ فأجابه: والله لو حَبَسَتْني من أول النهار إلى آخره ما زِلْتُ إلا للصلاة المكتوبة! العجوز هي خولة بنت ثعلبة التي نزلت بشأنها سورة المجادلة.

ب- **أو إذا أريد الدعاء**[٢] نحو: (لا فُضَّ فُوْك؛ لا سمح الله، لا قَدَّر الله؛ لا عَدِمتُك؛ ولا أراك الله مكروهاً، لا جَعلَ الله لك حاجة إلى لئيم). أعاذنا الله من البلاء، وسَتَرنا في كفايته، و**لا سلبنا** ما بنا من نعمته.

ويحتاج دخول (**لا**) و(**ما**) **على الفعلين (زال، يزال)** إلى مزيد بيان. فهذان الفعلان ناقصان يدخلان على المبتدأ، فيرفعانه وينصبان الخبر. ويلزم هذين الفعلين تقدمُ أداة النفي، **فيُدَلُّ بهما على الاستمرار**.

يقال: مازِلتُ أفعل كذا، **وما زال الهواء بارداً، وما يزال الهواء بارداً**، وما زلت بزيدٍ حتى فعل كذا، ولكن **لا يقال** في الإخبار: (لا زال الهواء بارداً). **وهذا خطأ شائع جدّاً!** بل (ما زال أو لا يزال الهواء بارداً)، لأن (لا) تدخل على الماضي (زال) والمضارع (يزال) **لتفيد الدعاء** كما ذكرنا آنفاً، نحو: (لا زال بيتك عامراً) و(لا تزال سبّاقاً إلى الخير).

٩- (ما) أيضاً تعمل عمل (ليس) بلغة أهل الحجاز، فتدخل على

(٢) تُستعمل بعض الأفعال بصيغة الماضي مجرّدةً من (لا) في أسلوب الدعاء بالخير، وهو - من غير شك - يشير إلى المستقبل، نحو: سامَحكَ الله، حيّاك الله وبَيّاك، رضي الله عنه، رحمه الله، غفر الله له، أحسن الله إليك (أُخرِج الكلام في صورة الخبر ثقةً بالاستجابة).

المبتدأ والخبر فترفع المبتدأ (فيصير اسمها) وتنصب الخبر (فيصير خبرها)، نحو: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]. ولكنها لا تفعل ذلك إلا إذا تحققت ثلاثة شروط، وهي:

أ- ألّا يتقدم خبرها على اسمها، فإن تقدم لم تعمل، نحو: (ما مسافرٌ زيدٌ)، الأصل: ما زيدٌ مسافراً.

ب- ألّا تَلِيَها (إنْ)، فإن تَلَتْها لم تعمل، نحو: (ما إنْ زيدٌ شاعرٌ). الأصل: ما زيد شاعراً.

جـ- ألّا يكون في جملتها (إلّا). فإن كانت لم تعمل، نحو: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

- إن الجملة الاسمية المنفية بـ (ما) أثبتُ من الجملة الفعلية المنفية بها أو بـ (ليس).

١٠- نفيُ الجمل الاسمية بـ (ما) يكون **للحال** عند الإطلاق، وإذا قُيِّد يكون بحسب القيد، تقول: (ما هو مسافراً): أي الآن، وتقول: (ما هو مسافراً غداً).

قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦].

وهي في ذلك **للاستقبال**.

- وقد تكون **للمُضِيّ**، نحو: (ما سعيدٌ ظلمني حقّي بل خالد).

وقد تكون للحقيقة غير مقيدة بزمن كقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢].

١١- وتنفي (ما) **الفعلَ المضارَع** فتخلّصه **للحال** عند جمهور النحاة، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، وكقولك: ما أدري، لمن سألك عن شيء تجهله.

ولكن قد تدل **على الاستمرار** أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

- وهي **تنفي الماضي**، نحو (ما ذهبتُ إليه). وذكر بعضهم أنها تكون عند ذاك لنفي **الماضي القريب من الحال**. والحقيقة أنها كثيراً ما تكون كذلك، وقد تأتي لنفي **الماضي البعيد**، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

أهم المراجع التي استفدت منها عند كتابة هذه الصفحة اللغوية:

- الكفاف ليوسف الصيداوي، دار الفكر - دمشق ١٩٩٩م.
- معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي- دار إحياء التراث العربي- ط١- بيروت -٢٠٠٧.
- معجم أخطاء الكتّاب لصلاح الدين الزعبلاوي - دار الثقافة والتراث- دمشق ٢٠٠٦م.

* * *

الرِّسَالَةُ البِدْعُ
في التَّعبير عن المتكلّم المُفْرَدِ
من دون إرادة التعظيم والتفخيم
بصيغةِ الجَمْع

أ. د. محمَّد رضوان الدّاية(*)

(١)

في المُصطلحات البلاغية نوع يدعى: «الالتفات»(١)؛ على أَنْ له أسماءً أُخرى مثل: «الصَّرف» و«الاعتراض» و«الاشتراك» و«الاستدراك»؛ وأدخله ابن قتيبة في: «مُخَالفة ظاهر اللفظ مَعْناه»؛ ومن أَمثلته عليه قولُ النابغة الذبياني(٢):

يا دارَ ميَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأَبَدِ

بدأ بأسلوب الخِطاب، ثم التفتَ إلى أُسلوب الغَيْبَة.

وبعد زمانٍ من ظُهور مصطلح (الالتفات) والكلام فيه، جَعل ابنُ الأثير هذا النوع البلاغي (وهو عنده من الصّناعة المعنوية) ثلاثة أَقسام(٣):

(*) أستاذ الأدب والنّقد في جامعة دمشق.

(١) جمع ما يخصّ هذا النّوع وفَصَّل فيه د.أحمد مطلوب في «معجم مصطلحات البلاغة»، الجزء الأول منه: ٢٩٤-٣٠٣.

(٢) ديوان النابغة الذّبياني (المعلقة).

(٣) د. أحمد مطلوب، معجم مصطلحات البلاغة: ٢٩٨-٣٠٢.

الأوّل: الرّجوع من الغَيْبَةِ إلى الخِطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ويكون ذلك لفائدةٍ اقتَضَتْه. و**مثال الأوّل**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤] ثم قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. و**مثال الثاني**: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١ – ١٢]. فإنه قال: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ و: ﴿أَوْحَىٰ﴾(*).

ومن الرُّجوع من خِطاب النَّفْسِ إلى خِطاب الواحد قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ١ – ٥].

– ومن الرُّجوع من الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ...﴾ [يونس: ٢٢].

والثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأَمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، ومِن الأول: ﴿...إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ...﴾ [هود: ٥٤]. ومن الثاني: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٩].

والثالث: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي. فالأول مثل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...﴾ [فاطر: ٩]. والثاني مثل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

(*) هذا المثال ليس مناسباً للنوع الثاني من القسم الأول، وهو الانتقال من الخطاب إلى الغيبة؛ والالتفات فيه في ضوء العبارة الشارحة المفسِّرة من الغيبة إلى المتكلم بضمير الجمع. = [المجلة].

على أنَّ في الأساليب العربيّة **ما لم يقف عنده اللغويون** (في ملاحظة الأساليب ودراستها) **ولا البلاغيون** (عند استعراض علمَي البديع والمعاني): **مثل استعمال صيغة الجمع للمتكلّم المفرد، من دون إرادة التعظيم، أو التوقير، أو ما شابه ذلك.**

: **ومثل كلام المتكلّم يُريد نفسَهُ ويلتفتُ ابتداءً إلى ضمير الغائب،** وأَخصّ الشعراء بمزيّة في استعمال هذا النمط.

: ومثل **الالتفات عن الذّات** (الاسم الظاهر والضَّمير المناسب) **إلى شخص آخر يتحدّث عنه وهو يريدُ نفسه.**

ونقول في هذه الظَّواهر مثل ما قيل في أَنواع الالتفات التي ذكرها أَهْلُ التفسير والبَلاغة واللّغة: إن هناك أَغراضاً رَمى إليها الشّاعر (وغيره) ومقاصد: جليّةً كانت، أَو هي، تحتاجُ إلى إيضاحٍ واسْتِخْراج.

وفي **الأَساليب العربيّة** أن يتحدّث أحدهم عن نفسه وبعض شؤون حياته مستعملاً أُسلوب الغائب، أو ضمير الغائب. ومنه قولُ القَتّال الكلابي[٤]، مُصَوّراً نفسه، مفصّلاً:

إذا هَمّ هَمّاً لم يَرَ اللّيلَ غُمَّةً ... عليه، ولم تصعُبْ عليه المراكبُ[٥]

جَلِيدٌ، كريمٌ خِيْمُهُ، وطباعُهُ ... على خَير ما تُبْنى عليهِ الضَّرائبُ[٦]

إذا جاعَ لم يفرَحْ بأكلةِ ساعةٍ ... ولم يَبْتَئِسْ من فقدها وهو ساغِبُ[٧]

---

(٤) عبادة (أَو عبيد) بن مجيب من بني كلاب بن عامر، شاعر لصٌّ فاتك بدوي كان يألفُ القفر، (توفي نحو سنة ٧٠ كما قدّره د.عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي ١: ٤٣٣-٤٣٥).
- وللقتّال ديوان مجموع من مصادر التراث اعتنى به الدكتور إحسان عباس.

(٥) همّ بالأمر همّاً: عزم على القيام به. والغُمّة، كالغمّ: الكرب.

(٦) جليد من جَلُدَ: صبور على المكروه. والخِيْمُ: السجيّة والطبيعة. والضرائب جمع ضريبة، والضريبة: الطبيعة والسجيّة.

(٧) ساغب: جائع.

يَرى أَنَّ بعد العُسْـرِ يُسْـراً ولا يَـرى إذا كانَ يُسْرٌ أنَّـهُ – الـدَّهْرَ – لازِبُ[٨]

– ومنه قول أميّة بن أَبي عائذ الهُذَليّ[٩] يتشوّق إلـى أهلـه بمكّـة، وكـان نزيلَ مصر عند واليها عبد العزيز بن مروان، وكان عبدُ العزيز قـد رَغِـبَ إليـه في البقاءِ بمصر:

مَتى راكبٌ من أَهْلِ مِصْـرَ، وأَهْلُـه بمكَّةَ، من مصر العشـيّةَ راجِـعُ[١٠]

بلى! إنَّها قد تَقْطَـعُ الخَـرْقَ ضُـمَّرٌ تباري السُّرى، والمُسعفون الزَّعـازعُ[١١]

– فالشاعر يتحدّث عن نَفْسِه هنا بصيغة الغائب. وقال: «راكبٌ من أَهـل مصر» يعني نفسه، زائر لمصر قد طال مُكْثُه فيها حتى أصبح كأَنه مـن أَهلهـا. وأَهلُه (من زوج وولد وقريب...) يسكنون مكَّة. وفـي شـرح د.عمـر فـروخ على البيت: «العَشِيّةَ: آخر النَّهار (في آخر عُمره، قـد أَصْـبَح كبيـراً جِـدّاً فـي السنِّ، فيريدُ أَن يرى أهله قبل أَن يموت).

واختيار المتكلّم صيغة الجمع بدلاً عن صـيغة الإفـراد لغـرض التَفـاخر والتَّعاظُم، وإظهارِ التّفَوُّقِ على الخصم أو المُنَافِس معروفٌ مـن قـديمِ حيـاةِ اللغة، وحركةِ الأَدب، وخُصوصاً في الشعر، والأدلة على هذا كثيرة. (وليس الاستطراد إليها من منهج هذا البحث).

– وللمفسّرين كلام مطـول فـي أسـاليب القـرآن الكـريم، ومنهـا اسـتخدامُ

---

(٨) لازب: لازم.

(٩) أُمية بن أَبي عائذ العَمْري، من هُذَيل، من أَهل بادية الحجاز. من شعراء العصر الأُمـوي. وله ترجمة في كتاب الأغاني. وقدّر الزركلي في الأعلام وفاة أمية سنة ٧٥هـ.

(١٠) في أخبار أمية أنّ عبد العزيز أَذِن له بالعودة إلى الحجاز، وكان قد نال عنـده، وعنـد بنـي أميّة عامةً مكانةً، وحُظوة.

(١١) الخَرْقُ: الفلاةُ المقفرة الواسعة. الضُّمَّرُ (جمع ضـامر وضـامرة): الناقـة المضـمَّرة، السـريعة القادرة على قطع المسافات الطوال. والسّرى: السير، السفر ليلاً. الزعازع: الرياح الشديدة.

صيغة الجمع: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١] و﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ.. ﴾ [الشرح: ١ – ٢]...، واستخدام صيغة الإفراد ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر: ١١ – ١٣].

وفي: لمسات بيانية[١٢] قال د.السّامرائي: إنه سبحانه وتعالى، «في كل موطن في القرآن الكريم – وبلا استثناء – إذا استعمل ضمير التعظيم لا بدّ من أن يأتي بعده بما يدل على الإفراد حتى يُزيل أيَّ شك من شائبة الشرك؛ لأنَّ مَنْ نزل عليهم القرآن كانوا عريقين في الشرك... ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا... ﴾ [الفتح: ١ – ٣].

وللكلام في هذا الملمح تبيانٌ وتفصيلٌ في مظانّه.

وورد الأسلوبان في حديث رسول الله ﷺ:

١ – في الحديث: «بَلّغوا **عني** ولو آية»[١٣].

٢ – وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما أُعطيكم ولا أَمنعكم، إنّما **أنا قاسمٌ**: أضَعُ حيثُ أُمِرْتُ»[١٤].

٣ – وفيه أَيضاً «نَضّر الله امرأً سَمِعَ **مِنّا** حديثاً فحفظه حَتّى يُبلّغه غيره، فإِنَّه رُبّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيه، وربّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه»[١٥].

---

(١٢) فاضل السّامرائي: لمسات بيانية: ٢٥٠.

(١٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب: الأنبياء (ما ذُكر عن بني إسرائيل) برقم ٣٤٦١.

(١٤) رواه البخاري في كتاب: فرض الخُمس باب قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾، برقم ٢٩٤٩.

(١٥) أخرجه أحمد في مُسنده (برقم: ٢١٥٩) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه بإسنادٍ صحيح، ولفظه: نضّر الله امرأً سمع عَنّا فحفظه مني يبلغه غيره، فإنه ربّ حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه. وفي سنن ابن ماجه: ٢٣٠، وهو في سنن أبي داود: ٣٦٦٠، والترمذي ٢٦٥٨. وروي «وربّ حامل فقهٍ ليس بفقيه».

٤- وفيه أَيضاً: «...اتَّقُوا اللهَ فإِنَّ أَخونكم **عندنا** من طلَب العَمل» وفي فيض القدير (شرح الجامع الصغير) للمناوي عند كلمة (عندنا) قال: أي: «معشر المسلمين، أو النون للتعظيم». انتهى[١٦].

وللكلام على هذا الملمح في الحديث النبوي مقام مستقلّ مستوفى إن شاء الله تعالى.

وفي الالتفاتِ نوعٌ جَرى على أَلسنةِ الشّعراء من أَيّام العصر الجاهليّ، واستمرّ مع شعراء كُثُرٍ وأدباء في العُصور التالية، وصولاً إلى العصر الحديث: **وهو التفاتٌ ينتقلُ فيه الشّاعِرُ (وغيره) من أسلوب المتكلّم بصيغة المُفرد إلى المتكلم بصيغة الجمع، يقصدُ نفسَهُ في الحالين، دون أن يكون المراد باستعمال أسلوب المتكلّم بصيغة الجمع، الفخرَ أو التّعاظمَ أو التفخيم. يورد الشاعر الصّيغتين، وهو يريد نفسه.**

ويقال مثلُ هذا في استخدام ضميرِ المخاطَب بصيغة الجمع، وهو يريد المُفرد، دون قصد التّعظيم.

وورودُ هذا الأُسلوب في الشّعر القديم يُؤصِّله، ويتيحُ للشعراء المُحْدَثين أن يجروا على ذلك النّسْق، ويفيدوا منه في كلامهم شعراً ونثراً.

وفي شعر **حاتم الطّائي** المشهور قصيدةٌ حاورَ فيها زوجته **ماويّة** وعرَض عليها، وعلى النّاسِ مذهَبَهُ في الجُود، ورأيه في قضيّة الفقر والغنى، وأصَرَّ على ما اختار من سُلوكٍ انتقل من العادة إلى ما يُشبه الطّبع[١٧]:

أَماوِيَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ ... ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

(١٦) شرح الجامع الصغير: فيض القدير ١: ١٣٠. وفي رواية لأحمد في المسند ١٩٥٠٨ «عندي» بدل: عندنا.

(١٧) ينظر نص القصيدة كلها في الأغاني (دار الكتب) ١٧: ٣٨٤-٣٨٧.

أَمــاوِيَّ إنــي لا أقــولُ لســائلٍ إذا جاءَ يوماً: حَلّ في مالنا نَزْرُ
أَماوِيَّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عن الفَتى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ
أَماوِيَّ إن يُصبحْ **صَداي** بقفرةٍ من الأَرضِ لا ماءٌ **لديَّ** ولا خَمْرُ
تَرَيْ أنّ ما **أنفقْتُ** لم يكُ **ضَرَّني** وأَنَّ يدي ممّا **بخلْتُ** بِهِ صِفْرُ
وقد عَلِمَ الأقوامُ لو أَنَّ حاتماً أَرادَ ثراءَ المالِ كانَ لهُ وَفْرُ
غَنِيْنا زماناً بالتَّصعلك والغِنى كما الدَّهْرُ في أَيامِهِ العُسْرُ واليُسْرُ[(١٨)]
فما **زادنا** بَغياً على ذي قَرابَةٍ غِنانا، ولا أَزْرى **بأحسابنا** الفَقْرُ
وما ضَرَّ جاراً يا ابْنَةِ القومِ فاعلمي **يُجاوِرُنا** أَلَّا يكونَ لهُ سِتْرُ
بَعينيَ عن جاراتِ قَوْمِيَ غَفلةٌ وفي السَّمْعِ منّي عن حَديثِهِمُ وَقْرُ

تحدّث حاتم عن نفسِه بضمير **المتكلّم المفرد**: «لا أَقولُ» و«صداي» و«لديَّ» و«أنفقتُ» و«ضرّني» و«بخلْتُ» واستوفى مراده من خطاب ماويّة، وتقرير مذهبه في الجود والإنفاق، (اقْتَنعَتْ بما قال أو لم تقتنع).

ثم **التفت الشاعر**، وتحدّث عن نفسه بصيغة **الغائب**: «لو أن حاتماً أراد ثراء المال»، واكتفى من هذا الأسلوب ببيت واحد.

ثم **التفت مرّة أُخرى** فرجع إلى ضمير المتكلّم؛ ولكنه **ضمير المتكلم بصيغة الجمع**، واستغرق ذلك منه ثلاثة أبيات، وضّح فيها مذهبه من الصَّعلكة؛ وذكر أحوال حياته التي تراوحت بين الفقر الشديد (بالتصعلك كما قال) وبين الغنى. وهذا موقفٌ لا يقتضي أن يكون ضمير الجمع للتفاخر والتعاظم، ولكنه: **التعبيرُ بصيغة الجمع نيابةً عن صيغة الإفراد على نوع من الالتفات**،

(١٨) في حواشي (الأغاني) ط دار الكتب أنَّ هناك رواية بالعين المهملة «عُنينا»، وقد اختارها د.عمر فرّوخ (من دون الإشارة إلى غَنينا)، وأعتقد أنها رواية ضعيفة أو تصحيف.

ولعلّ من المناسب أن نـدعوه **الالتفـات الـذاتيّ**[١٩]، ونلاحـظ قولـه فـي الثلاثـة الأبيات: «غنينا زماناً» و«فما زادنا» و«غِنانا» و«أحسابنا» و«يجاورنا».

فلما استَفْرَغَ حاتمٌ ما أرادَ أن يقوله بصيغة الجمع **التفت مـن نفسِـه إلـى نفسِه**، وقال:

بِعَيْنِـيَ عـن جـاراتِ قـوميَ غفلـةٌ وفي السَّمْعِ منّي عن حديثِهِمُ وَقْـرُ

وكـأنّ الشـاعر أراد توكيـد سُـلوكه الأَخلاقـي الـذي اختـاره فـي العِفّـة وصيانة الجوار، وتكريم المرأة بنبلٍ منه وأريحيّةٍ؛ فرجَع إلى ضـمير المـتكلّم بصيغة الإفراد؛ وهذا يشبه مَنْ يُقْسِمُ على أمر، أو يتعهّدُ بشيء، أو يُصِـرُّ علـى مَسْلَكٍ نبيل، فهو يُخْلِصُ كلامَهُ لِذلك الأُسلوب، ويكتفـي بأسـلوب الإفـراد لأنه أليقُ بالمقاصدِ التي يريد.

وفي شعراء عصر الخضرمة بين الدّولة الأمويّة والعباسيّة نَبَـغ بشـار بـن برد[٢٠]، ومن شعره (ممّا نحن بسبيله):

مليكـةُ قـد وُصِـفْتِ لنـا بِحُسْـنٍ **وإِنَّـــا لا نَـــراكِ فأَلْمِســـيْنا!**

وهو يتحدّث عن نفسه، فأَوْرَد صيغة الجمع، بديلاً عـن صـيغة المفـرد، وليسَ في مَقْصِد الكلام تعظيمٌ لنفسه ولا تفخيم.

وفي قطعة لمحمود الورّاق[٢١] في الغزل (وهو من شعراء صـدر الدولـة العباسيّة):

سَـــقْياً لأَيـــامٍ خَلَـــتْ وكـأَنَّ أَوْجُهَهـا ريـاضُ

---

(١٩) وسيمر – بعد – أنه يمكن أن يدعى: **الالتفات الوجداني**، و**الالتفات الداخليّ**.

(٢٠) ديوان بشار (٤: ٢٠٦). والأصل في الأَغاني (دار الكتب المصرية) ٣: ٦٧، و: ١٥، ٦١. وللشعر قصّة مروية ثمّة.

(٢١) شاعر توفي نحو سنة ٢٣٠هـ.

أيّــامَ **يُحيينــا** الهــوى وتُميتنا الحَدَقُ المِرَاضُ!

فالكلام منظومٌ عن ذكرياتٍ للشّاعر يتذكّرها، فعبّر عن نفسِه بصيغة المتكلم الموضوع للجماعة: «يُحيينا، وتميتنا».

وفي قصيدة: «واحَرّ قلباهُ» يرتَفِعُ صوتُ المتنبي بين وَصْف الذاتِ، بوقائع يذكرها، وبين العِتاب الصَّدّاح الذي يضعُ الرَّجُلَيْن: الشاعر المادحِ والأمير الممدوح على صعيد من المخاطبة والاستماع، في ظُهورٍ لشخصيّةِ أَبي الطيّب مُصَاحَبِ برنينٍ[٢٢]؛ ونبدأ من البيت السابع عشر:

وجاهلٍ مَدّهُ في جَهْلِهِ ضَحكي حتَّــى أتَتْــهُ يَــدٌ فَرّاسَــةٌ وفَــمُ
ومُهْجةٍ مُهجتي من هـمِّ صاحبها أدركتُهــا بجــوادٍ ظهــرُه حَــرَمُ
ومُرْهفٍ سرتُ بين الجحفلين بهِ حتّى ضربْتُ وموجُ الموتِ يلتطِمُ
فالخيلُ والليل والبيداء تعرفني والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ
صحبتُ في الفَلَواتِ الوحشَ منفرِداً حتّى تعجّب مِنِّي الغَورُ والأَكَمُ
يا من يعزُّ **علينا** أن نفارقَهُمْ **وجدانُنا** كلَّ شيءٍ بعدكم عَدَمُ
ما كان **أَخْلَقنا مِنكم** بتكرمةٍ لو أَنَّ **أَمْرَكمُ** من **أمرنا** أَمَمُ
إن كان **سرّكُمُ** ما قال **حاسِدُنا** فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ
وبيننا لو **رعيتم** ذاكَ معرفةٌ إن المعارفَ في أهل النّهى نِعَمُ
كم تطلبون **لنا** عيباً **فيُعجزكم** ويكرهُ اللهُ ما **تأتونَ** والكرمُ

والتفت المتنبي عند البيت الرابع والعشرين، **وعَبّر عن نفسه بضمير الجمع، كما عَبّر عن شخصِ سيف الدولة بضمير الجمع أيضاً**. وكان المقام يقتضي، على ما جَرى عليه الشعراء غالباً في شعر المديح، أن يُبقي على

(٢٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح التبريزي (الموضح ٤: ٥٢٤ وما بعدها).

ضمير المتكلم المُفرد وهو يعبّر عن نفسِه، ولكنْهُ التفتَ، وعَدَل، وخرج إلى ضمير المتكلم الموضوع – عادةً – للجمع.

ورجع أبو الطيب في البيت التاسع والعشرين إلى ضمير المتكلم المفرد على الأصل المعروف في مجرى الأداء اللغوي (الاعتياديّ). قال:

ما أبعَدَ العَيْبَ والنُّقصانَ عن **شرفي** **أنا** الثريّا وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

ليت الغَمام الذي **عندي** صَواعِقهُ يُزيلهنّ إلى مَنْ عنده الدِّيَمُ

وأَلْمحَ في البيت الحادي والثلاثين إلى عَزْمِه على المَسِيْرِ عن حلب، وذكر أنَّ طريقه يمرّ على ضُمَير، قبل دمشق بمراحل قليلة، فقال في البيتين الحادي والثلاثين والثاني والثلاثين:

أَرى النّوى تقتضيني كلَّ مرحَلةٍ لا تستقلُّ بها الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ

لئن تَركْنَ ضُمَيْراً عن مَيامِننا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهم نَدَمُ!

والتفت ثانيةً، في بيتٍ يجري في مجرى القصيدة، ويتوجَّهُ الكلام فيه على وجهين:

أحدهما: الظاهر من الخطاب العام، كأنّه حكمةٌ أَو ما يشبه الحكمة:

إذا تَرحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا أَلَّا تفارِقَهُمْ فالرَّاحِلُونَ هُمُ

والثاني: المعنى الملموح، المُستفاد من السياق. ويكونُ الكلام من الشاعر إلى نفسه، وتسميعاً لغيره؛ فهو الذي سيفارِق، مُضطراً؛ ومَنْ غادرَ مضطراً فالرَّاحِل المُغادِر على الحقيقة المعنوية (والاجتماعية والإنسانية) هو الطرف الآخر المتسبّب؛ ويكون المعنى مستفاداً من الأثر المشهور: «قتله الذي أَخْرَجَه»[٢٣]!

وعَقّب المُتنبي في البيت التالي:

(٢٣) انظر ترجمة عمار بن ياسر رضي الله عنه في الإصابة مثلاً.

شَـرُّ الـبلاد مكـانٌ لا صـديقَ بـهِ وشَرُّ ما يكْسِبُ الإنسـانُ مـا يَصِـمُ

فلمـا تـمَّ لـه مـا أراد مـن الالتفـات، والإدلاءِ بِمُـرادهِ مـن المعـاني والإشارات، رَجع إلى الكلام بصيغة المفرد:

شَـرُّ الـبلاد مكـانٌ لا صـديقَ بـهِ وشَرُّ ما يكْسِبُ الإنسـانُ مـا يَصِـمُ

وشَـرُّ مـا قَنَصَـتْهُ **راحتـي** قَـنَصٌ شُهْبُ البُزاةِ سَواءٌ فيه والرَّخَمُ[٢٤]

وتبدو هذه الظاهرة التي نتابعها جليّةً في شعر ابن زيدون في بعض قصـائده التي أَنشدها في «ولَّادة»، وأقف هنا عند أمثلة من ثلاثة نصوص من ديوانه.

١) قال في قطعةٍ من ثلاثةِ أَبيات - كما وردت في الديوان[٢٥]:

لـو تُركْنـا بـأنْ **نعـودَكِ عُـدْنا** **وقَضَـيْنا الـذي عَلينـا، وعُـدْنا**

غيـرَ أَنَّ الهـوى اسـتفاضَ حـديثاً **فانْتَحَتْنـا** العيـونُ لمّـا **حُسِـدْنا**

فلـوَ انَّ النّفـوسَ تُقْبَـلُ مِنَّـا **لَسَـمَحْنا** بهـا - فِـداءً - **وجُـدْنا!**

فالخطاب من الشَّاعر إلى من يخاطبُ، وهي واحدةٌ، «نَعُودكِ» وهو يتحـدّث عن نفسه، ولكنه اختار ضمير الجمع «تُركْنـا» و«قَضَـيْنا». والبيـت الثـاني يحتمـل الكلام على اثنين (هو والمخاطبة)، ثم قال في البيت الأخير:

فلو انَّ النفوس تُقْبَلُ «مِنّا» «لسمحنا» و«جُدْنا». وهذا جميعاً يخصُّه وحده.

٢) وقال في قصيدة أخرى مشهورة[٢٦]:

---

(٢٤) الموضح ٤: ٥٢٥.

- قال في الشرح: يقول: شرّ البلاد مكان يُعـوزكَ فيـه الصـديق. وشـرّ مـا يَقْتنصـه الإنسان قَنَصٌ تشترك فيه البزاةُ الشهب والرخمُ؛ لأنّ البزاة تصيدُ، والرَّخَمُ إنّما تقعُ علـى الجِيَف. فكأنه جعل ما يصيبه في هذه البلاد من الرزق شيء لا خير فيه، لأن الرخم يقـع عليه فيصيبُ منها كما تصيب البزاة.

(٢٥) ديوان ابن زيدون (تحقيق علي عبد العظيم): ١٥١-١٥٢.

إنـي ذكرتـك بـالزهراء **مشـتاقا** والأفق طَلْقٌ ووَجْهُ الأرضِ قد راقا
والروضُ عن مائِه الفضّـيّ مبتسـمٌ كمـا شَـقَقْتِ مـن اللَّبَـاتِ أطواقـا

فذكر نفسه بصيغة المُتكلم المفرد «ذكرتُكِ»، وذكر ولَّادةَ على الإفراد أيضاً: «شَقَقْتِ».

ومرَّ على ذكر أشياء ممّا سلف بينهما في الزَّهراء، وقال[٢٧]:

كـلٌّ يهـيجُ **لنـا** ذِكـرى تُشَـوقُنا إليكِ لم **يَعْدُ عنها الصَّدْرُ** أَنْ ضاقا
لا سَـكّن اللهُ قلبـاً عَـنّ **ذِكـركمُ** فلـم يطِـرْ بجنـاحِ الشـوق خَفَّاقـا

وجعل الضميرين (عنه وعنها) على هذا الوجه:

لو كان وَفّى المُنى في **جمعنـا** بِكُـمُ لكـان مـن أكـرم الأَيـام أَخْلاقـا

وختم القصيدة، على هذا المنهج:

فـالآن، أَحْمـدَ مـا **كُنّـا** لعهـدكمُ **سـلوتمُ وبقينـا نحـنُ عُشّـاقا!**

٣) ونختم الوقفة عند ابن زيدون مع قصيدته الذائعة: (أضـحى التنـائي) وقد استخدم ضمير المتكلم بصـيغة الجمـع؛ تعبيـراً عـن نفسـه، فـي أبيـات القصيدة جميعاً، وذكر ولّادة بالنوعين الإفراد والجمع.

---

(٢٦) ديوان ابن زيدون ١٣٥-١٤٠.

(٢٧) ديوان ابن زيدون (علي عبد العظيم): ١٣٥-١٤٠.

- والزهراء: ضاحية بناها عبد الرحمن الناصر لـدين الله، الخليفـة الأمـوي (حكـم مـن ٣٠٠ إلى ٣٥٠هـ)، وكانت بلدةً نموذجيّة في حسن المباني وجمال التقسـيم، وروعـة الهندسـة. وكان يطيفُ بها حدائق واسعة جـدّاً، أحكـم صـنعتها مهندسـون زراعيـون بـارعون، أشـرف عليهم الحكم بن عبد الرحمن (تلقب حـين ولـي الخلافـة بالمستنصـر بـالله ٣٥٠-٣٦٦هـ)، وكان مولعاً بالبستنة والتنظـيم واسـتجلاب الـزروع، علـى أن شـهرته كانـت بـالعلم والأدب والفن، وبمكتبة قرطبة التي أنشأها، وكانت تضارع أكبر مكتبة في العالم القديم.

- وهذا يوضح وقـوف ابـن زيـدون علـى جِنـانِ الزَّهـراء وخلطـه الغـزل بوصـف الطبيعة، وبالذكريات الموصوفة.

وقد أفاد هذا الأسلوبُ القصيدةَ في إضافةِ ملمحٍ موسيقيٍّ وبَلاغيّ. وفيها، من أَوَّلها:

١- أَضْحى التّنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيبِ لُقيانا تجافينا

فالكلام هنا يشملُ ولادة وابن زيدون معاً، وقد قال بعده:

٢- ألّا، وقد حان صبحُ البَيْنِ **صَبَّحَنا** حَيْنٌ فقامَ **بنا** للحَيْنِ ناعينا

والكلام هنا يخصّ ابن زيدون وحده، فالموتُ كانَ أخفَّ عليه من فراق الأحبة أَو جفائهم. ثم قال بعد:

٣- مَنْ مبلغ **المُلبسينا** بانتزاحهمُ حُزناً مع الدَّهر لا يَبْلى و**يُبلينا**

٤- أنّ الزمان الذي ما زال **يُضحكنا** أنساً بقربهمُ قد عاد **يبكينا**

فـ«الملبسينا» و«بانتزاحهم» عن ولادة وحدها، و«يُبلينا» خاص بابن زيدون.

والبيت الرابع من شأن الشاعر، وذكر ولادة بصيغة الجمع «بقربهمُ» فهي مجموعة، ويخاطَبُ بها المذكر عادةً.

وتستمر القصيدة على هذه الشاكلة، ولم يذكر ابن زيدون نفسه، ولم يشر إليها، ولو مرّة واحدة، بصيغة الإفراد. وهو هنا حَتْماً لا يريد من صيغة الجمع التفاخر ولا التعاظم، وأظنّ ظن الاعتقاد أنه على العكس من ذلك، وانظر قوله في هذه القصيدة (في البيت الثلاثين):

ما ضَرَّ أَنْ **لم نكنْ أكفاءَهُ شَرفاً** **وفي المودَّةِ كافٍ** من تَكافِينا

ونقف عند قصيدة لشاعر من العصر المملوكي هو: أبو العَبّاس أحمد بن أبي القاسم اللَّخميّ القُطْرُسِيّ، الشهير بلقب: النَّفيس (توفي سنة ٦٠٣). وقد اختار ابن خلّكان من شعره، وأثنى عليه، وترجم له في الوفيات[٢٨]. ومطلع القصيدة:

(٢٨) وفيات الأعيان ١: ١٦٤-١٦٨.

قل للحبيبِ أَطَلْتَ صَدَّكْ وجَعَلْتَ قلبي فيه وَكْدَكْ

وفيها قوله:

أَخلَفْتَ حتى في زيا ... رتنا بطَيفٍ منك وَعْدَكْ

وقوله:

يا قَلْبَ مَنْ لانت مَعَا ... طِفهُ **علينا** ما أشدّكْ

ونلاحظ التفاتَ الشاعر (التفاتاً ذاتيّاً)، وهو يخاطب الحبيب: «أَخْلَفْتَ وعدك في **زيارتنا** بطيف منك...» وقال: «يا قلبَ مَنْ لانَتْ معاطفه **عَلَيْنا**...» وهو يتحدث عن نفسه مفرداً، شاكياً ممّا أصابه من عَنَتِ المحبوب شخصاً، وطيفاً. ولا مَدْخل للتكبُّرِ أو التعاظم في الكلام صراحةً أو إشارةً.

ولأحمد شوقي قصيدة نظمها في الأندلس حين كان منفيّاً عن بلده مصر، أولها[٢٩]:

يا نائح الطَّلْحِ أشباهٌ عَوادينا نَشْجى لواديك أم نأسى لوادينا؟!

وقد اجتمع للشاعر أسى بُعْدِه عن وطنه (الصّغير): مصر، وأَسى ضياع الفردوس المفقود: الأَندلس؛ كنّى عن مصر بـ(وادي النّيل) - وهي كناية مشهورة -، وكنّى عن الأندلس بوادي الطلح وهو وادٍ بظاهر إشبيلية «كان المعتمد بن عَبّاد أمير إشبيلية (من ملوك الطوائف) شديد الولع به».

ونائح الطلح: طائر رَجَّع صوتَهُ، فنبّه الشاعِرَ، وجرى الشعْرُ على لسانِه، وحَرّكَ أَسَاهُ على الوطنَيْنِ: بلده مصر، وديار الأندلس التي كانت من أوطانِ العرب والمسلمين زماناً طويلاً. وقد أَكْثرَ الأدباء والشعراء والمؤرخون من وصفها بـ(الفردوس المفقود).

واختار شوقي في هذه القصيدة للحديث عن نفسه وأحواله وشكاواه،

(٢٩) ديوان أحمد شوقي (بعناية د.أحمد الحوفي) ١: ١٤٧.

وهواجسه وأَشواقه وذكرياته **ضمير المتكلم الدالّ على الجمع**، ولم يخرج عن هذا الأسلوب.

وفي آخر القصيدة، التفتَ الشاعر إلى مصر، وذكرياتِهِ فيها، وصارت ضَمائر الجمع عامّة: يُدخِلُ نَفْسَهُ فيها وتشملُ الآخرين، وذلك ابتداء من قوله:

سقياً لعهدٍ كأكنافِ الرُّبَا رِفَةً ... أَنّى ذَهبْنا وأعطافِ الصِّبا لِيْنا

وبعد مطلع القصيدة قولُه يخاطب ذلك الطائر (الصّديق):

مَاذا تقصُّ علينا، غيرَ أنّ يداً ... قصَّتْ جناحَكَ جالت في حَواشينا

رَمَى بنا البينُ أَيكاً غير سامرنا ... أَخا الغريب وظلَّا غَيْرَ نادينا

كلٌّ رَمَتهُ النَّوى، رِيْشَ الفراقُ لنا ... سَهْماً، وسَلَّ عليك البَيْنُ سكِّينا

والقصيدة طويلة. وممّا قاله في انتقاله عن الموطن إلى «المنفى» أَبياتٌ أَحسنَ فيها التَّناول، ومزج بين الخُلْدَين: خُلد بلده الحاضر (الذي انتقل عنه قسراً) وخُلدِ تاريخه القديم – الجديد (الأندلس)؛ وأَتْقَنَ الدخول، والتعبير، والاستفاضة، وأَحاط ذلك كله بنفحاتٍ عاطفيّةٍ متعدّدة الجوانب:

لمّا نَبا **الخُلْدُ** نابت عنه **نُسْخَتُهُ** ... تَماثُلَ الوَرْدِ: خِيْريّاً ونِسْرِينا

نسقي ثراهُمْ ثناءً، كلّما نُثِرَتْ ... **دموعُنا** نُظِمت منها **مراثينا**

كادت عيونُ **قوافينا** تحرّكهُ ... وكِدْنَ يوْقِظْنَ في التُّربِ السَّلاطينا

لكنَّ مِصْرَ وإن أَغْضَتْ على مِقَةٍ ... عينٌ من الخُلْدِ بالكافور **تَسْقينا**

وقد أَثنى شوقي في هذه القصيدة، وفي سائر أندلسياته على بُناة الحضارة في الأندلس، وخَصَّ بني أُميّة بكثير من ثنائه ورثائه وإشادته وتكريمه؛ واستطرد إلى شيءٍ من هذا في بعض شاميَّاتِهِ، كالذي صنعه في «قم ناجِ جِلّق»...

والتفتَ بنفسِه، وكُلِّ ما عنده من حُبٍّ وودٍّ وشوقٍ ولهفةٍ إلى مصر[٣٠]:

(٣٠) ديوان شوقي ١: ١٤٩.

يا ساريَ البرقِ يرمي عن **جوانحنا** بعد الهُدوءِ ويَهْمِي عـن **مآقينا**[٣١]
لمّا تَرَقْـرَقَ فـي دمـع السَّـماءِ دمـاً هَاجَ البكا **فَخضَـبْنا الأرض باكينا**
اللّيـلُ يشـهد لـم تهتِـكْ دياجِيَـهُ علـى نيـامٍ ولـم تهتـفْ **بسـالينا**
والـنجمُ لـم يَرنـا إلَّا علـى قَـدمٍ قيـامَ ليـل الهـوى للعَهْـدِ **راعينـا**
كَزفـرةٍ فـي سـماءِ اللّيـل حـائرةٍ ممّـا تـردّد فيـهِ حـين **يُضْـوِينا**

واستمر شوقي في اختيار ضمير المتكلم الموضوع للجماعة، وهو يريد نَفْسَهُ، وَحْدَها، في «انسجامٍ» واسترسال وتدفّق.

- وفي قصيدة (والزمان وليد)[٣٢] قال شوقي (في أوّلها):

يَمُـدّ الـدُّجا فـي **لـوعتي** ويزيـدُ ويُبْـدِئُ بَثّـي فـي الهـوى ويُعِيْـدُ
إذا طال واستَعْصَـى فمـا هـي ليلـةٌ ولكـنْ ليـالٍ مـا لهـنَّ عديـدُ
أَرِقْـتُ وعـادتني **لـذكرى أحبّتـي** شـجونٌ قيـامٌ بالضـلوع قُعـودُ
ومن يحملِ الأشواقَ يَتْعَبْ ويختلفْ عليـه قـديمٌ فـي الهـوى وجديـدُ

ثم استطرد الشاعر إلى صفة روضٍ مونق مُعْجبٍ حتى قال: إنّه دَخَل ذلك الرَّوض مع مَنْ يُحبّ:

غشـيناهُ والأيّـامُ تَنْـدى شـبيبةً ويقطـر منهـا العـيشُ وهـو رغيـدُ
رأتْ شـفقاً ينعـى النَّهـار مضـرّجاً **فقلـتُ** لهـا: حتـى النَّهـارُ شـهيدُ
فقالت: وما بالطير؟ **قلـت** سكينة فمـا هـي ممّـا نبتغـي ونَصـيدُ
أُحِلَّ لنا الصَّيْدان يوم الهـوى مَهـاً ويـوم تُسَـلُّ المُرْهَفـاتُ أسـودُ
يحطَّـمُ رمـحٌ **دوننـا** ومُهَنَّـدٌ **ويقتلنـا** لحـظٌ ويأسِـرُ جِيـدُ
و**نَحْكُم** حتى يقبل الـدهرُ **حُكْمَنـا** و**نحـن** لسـلطان الغَـرام عبيـدُ

(٣١) الهدوء، والهدوّ: السكون في الليل (وغيره).

(٣٢) ديوان شوقي ٢: ١١٠، والعنوان من صنعة د.أحمد الحوفي.

أقـول لأيـام الصِّـبا كلّمـا نـأت ... أما لكَ يـا عَهْـدَ الشباب مُعيـدُ؟!
وكيفَ نأتْ والأمسُ آخِـرُ عهـدها ... لأمـسِ كبـاقي الغـابراتِ عَهِيـدُ
جزعتُ فراعَتْني من الشَّيبِ بَسْـمةٌ ... كـأني علـى درب المشـيبِ لَبِيْـدُ
ومن عَبثِ الدُّنيا وما عَبَثتْ سُـدًى ... **شَـبَبْنا وشِـبْنا**، والزّمـانُ وليـدُ!

وأسلوب الالتفات الـذاتي الـذي نـديرُ الحـديث عنـه شـائع فـي كـلام النّاس مكتوباً ومنطوقاً، وهو جـارٍ علـى مـا بيّنّـا مـن التـراث العربـي القـديم الموصول بالحديث.

- يكتبُ أحدهم لصديقه بطاقةً، ويتركها عند البـاب أَو فـي مكتبـه، ومـا شابه، ويقول: «**حضرنا** ولم نجدكم»، وهو يريد نفسه.

- ويسأل أحدهم زميله: هل صلّيتَ؟ يريـد إقامـةَ صـلاةِ جماعـةٍ، فيـردّ صاحبه: «**دعونا** لكم»: أي صليت وذكرتك في الدعاء الذي أعقب الصلاة.

- وتقول السيدة، وهي تغادر منزل صديقتها: «**أودعنـاكم**»[٣٣]، فتـردّ صـاحبة الدار: مع السّلامة، وهي عبارة يقولها الفرد للفرد والجماعة للجماعة.

- ويقول أحدهم لصديقٍ غاب مدَّةً: **سألنا** عنكم، انشغل بالنا...

- ويقول أحدهم لربّ العمل: **جئنا** لنعيّدكم...

ومثل هذا كثيرٌ فاشٍ، يؤكـد وصـول هـذا الأُسـلوب إلـى كـلام النـاس؛ وإيراده من دون أن يخشى المتكلم وقوع لبسٍ فيما يقول.

هذه الظاهرة:

لقد نَبّه هذا البحث، كما تَبيَّنَ مما سبق، علـى هـذا النـوع مـن الالتفـات الذي اقترحنا له: **الالتفات الذّاتي**، ويصـحُّ أن يقـال فيـه: **الالتفـات الـدّاخلي** أَيضاً، **والالتفات الوجداني**. وفيه ينتقل المـتكلم المفـرد مـن صـيغة الإفـراد

(٣٣) والعبارة جارية على المنهج الفصيح؛ أي تركتكِ في حفظ الله ورعايته.

وهي المناسبة لدرج الكلام – دون قصد التّبجيل للذات أَو التعظيم، أَو التفخيم – إلى صِيغة الجمع، ونبّه البحث على اطّراد هذا الملمح من العصر الجاهلي، استمراراً في العُصور المتوالية، ولجأ إليه بعض الأدباء (الشعراء خاصّة)، وكان في ذلك تلوينٌ للأسلوب، وزيادةٌ يريدها المتكلّم قد تبدو واضحةً، أو هي تُستَنْتَجُ من سِيَاقِ الكلام.

وتنفتحُ للدّارس أسبابٌ لانتقال المتكلم من صيغة الإفراد إلى صيغة الجمع، وهو يعني نفسه دون قصد التعظيم والفخر والتفخيم. وهي أسباب قد تجتمع في نصّ، وقد تكون كلُّ حالٍ في حاجة إلى تعليل محدّد. وهي أسبابٌ مستنبطة من النصوص المختلفة على امتداد العصور الأدبيّة.

تحليل وتعليل:

أولاً: العدول عن صيغة المفرد المتكلِّم إلى صيغة الجمع، أو تداخل الأسلوبين في النصّ الواحد يكونُ **تلويناً أُسلوبيّاً**، أراد الأديب (ولا سيما الشاعر) أَن يُضْفِيَ جدّةً أو حيويّة على الكلام، أو يُفيد من اختلاف الإيقاع والإيحاء.

ثانياً: قد يكون الالتفات إلى صيغة الجمع **عُدولاً عن صيغة المفرد كيلا توحي صيغةُ المفردِ بإبراز «الذّات»، وليتجنّب المتكلم أي ملمحٍ قد يلاحَظُ؛ يكونُ فيه تَعالٍ من المتكلم على المخاطب أو اقتحامٌ لمكانته.**

هنا يكون اللجوء إلى صيغة الجمع إدخالاً من المتكلم لذاته في «آخَرِين» خشيةَ أن تبرز الـ«أنا» صريحةً قويّةً.

وتكونُ **صيغةُ الجمع في هذه الحال مخفِّفة لإيحاء صيغة الإفراد من التّعاظم في درج الكلام.**

ثالثاً: قد يكون ذلك من باب **الاستغراق الشّخصي في القضية** أو الموقف؛ وهو استغراقٌ يُتيح الانتقال من المفرد إلى الجمع، فإذا تحقّق له

ذلك رجَع إلى صيغة المفرد **لتوكيد الذات**. ولنقرأ بعضَ ما قاله حاتم:

أَمـاوِيَّ إن يُصـبحْ صَـدايَ بقفـرةٍ من الأَرضِ لا مـاءٌ لـديَّ ولا خَمْـرُ
تَرَيْ أنّ ما **أنفقْـتُ** لـم يـكُ ضَـرَّني وأَنَّ يـدي ممّـا **بخلْـتُ** بِـهِ صِـفْرُ
وقـد عَلِـمَ الأقـوامُ **لـو أَنَّ حاتمـاً** **أَرادَ** ثـراءَ المـالِ كـانَ **لـه** وَفْـرُ
غَنِيْنـا زمانـاً بالتَّصـعلك والغِنـى كما الدَّهْرُ في أَيامِهِ العُسْرُ واليُسْرُ[٣٤]

فهذه ثلاثـة أسـاليب متواليـة: المـتكلم المفـرد: (مـا أنفقـتُ، بخلـتُ)، والغائب: (أراد... كان له)، والمتكلّم بصيغة الجمع: (غَنينا).

وقد استمرّ حاتم على هذا الصيغة حتى انتهى مـن الفكـرة كاملـةً. لقـد اسـتغرقت الأبيـاتُ شَخْصَـهُ موصـولاً بقضـيّته: الكـرم والجـود، ومكـارم الأخلاق... فلما استوفى هـذا الجانـب بالصّـوت الصـدّاح عـاد إلـى **توكيـد الذات** مع سَكينةِ الاطمئنانِ إلى **تبليغِ الموقفِ إلى ماوية وسائرِ النَّـاس** (وقـد مرّت الإشارة إلى جانبٍ من هذا الملمح).

رابعاً: قد يرتفع الصوتُ الصَّدّاحُ للشَاعر، وهـو ينتقـل مـن المُفـرد إلـى الجمع، وهو في معرض **الدفاع عن الذّات، وإثباتِ الشَّخصيّة**، ورفعِ الغُبْنِ، والإيحاءِ بصوتٍ جَماعي مفيدٍ لمثلِ هذهِ المَواقف، ومنه قول أبي الطيّب:

مـا كـان أَخْلَقَنـا مـنكم بتكرمـةٍ لـو أَنَّ أَمْـرَكُم مـن **أمرنـا** أَمَـمُ
وبيننـا لـو رعَيْـتُم ذاك معرفـةٌ إنَّ المعارفَ في أهل النهى ذِمَـمُ

خامساً: قد يبدو للقـارئ أَنّ الشـاعر خـرج إلـى صـيغة الجمـع **لإثبـات القضيّة، وليسَ لتوكيد الذات**، فإنَّ ابنَ زيدون – مثلاً – استرسـل فـي صـيغة المفرد في قصيدة: إني ذكرتك بالزهراء....

(٣٤) يقول: اكتفينا في حال الفقر بما تيسّر، وإن قلّ، واستمتعنا بأيام الغنى بأحوال الغِنى.

واستمرّ على هذا الأسلوب إلى أواخر القصيدة حتى قال في آخر بيتين:

كان التّجازي بِمَحْضِ الوُدِّ مذ زَمنٍ ميدان أُنس جَرَيْنا فيه أطلاقا

فـ(نا) «جرينا» لابن زيدون ومخاطَبتِه معاً، ثم قال:

فالآنَ أَحْمَدَ ما **كنَّا** لعهدكمُ سلوتُمُ، **وبقينا نحنُ عُشاقا!**

فهو يعلنُ استمرارَ الوُدّ قويّاً من جِهته (أحْمَد ما كان للعهد، واستمرار حال العِشق). وهذه يناسبها أو يزيدُ في مناسبتها ضميرُ الجمع لإثبات الاستمرار والاستغراق والدَّيمومة...

ثم أقول: كأنَّ المرادَ من قول ابن زيدون: «وبقينا نحن عُشاقا» هو: بقي عشقي الكبير العظيم الذي لا يُذْهِبُ جِدَّتَهُ ولا يَفُلُّ حِدَّتَهُ مرورُ اللّيالي والأَيّام!....

سادساً: نلاحظ ملمحاً آخر في انتقال المتكلم المفرد إلى صيغة الجمع في شعر أحمد شوقي، وهو **الإشباع النّفسي للحال** التي يكون عليها الشاعر؛ **أَوْ يَسْتَحْضِرُها**؛ فبعدَ أَنْ ذكرَ الشاعر أحبّته استطرد إلى صفةِ روضٍ (وشوقي يُتقن مثل ذلك الوصف) وأطال - كما سبق في قصيدته (والزمان وليد) - حتى ختم الفقرة وجمع فيها (في آخر بيتين) بين صيغة الإفراد وصيغة الجمع:

جزعتُ **فراعَتْني** من الشيبِ بَسْمَةٌ **كـأَنّي** على دَرْبِ المشيبِ لَبِيدُ

ومن عبَثِ الدُّنيا وما عبثَتْ سُدًى **شَبَبْنا وشِبْنا** والزَّمانُ وليدُ!

فقد **أعان الشّاعِرَ على مقصده من ذكريات أَيّام الشَّبابِ هذا الانتقالُ إلى صيغةِ الجمع** أكثر من مرَّةٍ، فقد روَى ما أمْتَع قلبه ونفسه فيما مضى، واستعادَ تلكَ الذكريات مُستمتعاً بتلك الإعادة، مستعيناً بالأُسلوبِ الذي نَتحدّث عنه.

إذن:

يضاف إلى نوع **الالتفات** في علم البديع فَرْعٌ لم يذكره السّابقون هو ما أطلقنا عليه: **الالتفات الوجداني**، ويصحّ أن يقال فيه: الالتفات الذاتي، والالتفات الداخلي.

المصادر والمراجع

- الأصفهاني (أبو الفرج) – الأغاني – دار الكتب المصرية – القاهرة.
- ابن بُرد (بشار) – ديوان بشار – تحقيق محمد الطاهر بن عاشور – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ٣ أجزاء، والجزء الرابع المتمّم.
- ابن بسام الشنتريني – علي بن بسام، أبو الحسن – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ت. إحسان عباس – الدار العربية للكتاب – ليبيا – ١٣٩٥هـ-١٩٧٥.
- التبريزي (يحيى بن علي) – المُوضح في شعر أبي الطيب – دراسة وتحقيق د.خلف رشيد نعمان – دار الشؤون الثقافية – بغداد – الطبعة الأولى – بغداد – ٢٠٠٤.
- الحموي (ياقوت) معجم البلدان – دار صادر – بيروت.
- ابن خلّكان (أحمد بن محمد، شمس الدين) وفيات الأعيان – تحقيق د.إحسان عباس – دار صادر.
- الذبياني (النابغة) – ديوان النابغة الذبياني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – القاهرة.
- الذهبي (أحمد بن محمد بن عثمان بن قايماز) – سير أعلام النبلاء – مؤسسة الرسالة – دمشق.
- الزركلي (خير الدين) – الأعلام – دار العلم للملايين – بيروت.
- ابن زيدون – ديوان ابن زيدون – تحقيق علي عبد العظيم.
- السامرائي (فاضل) – لمسات بيانية (نسخة إلكترونية).

- شوقي (أحمد) - ديوان شوقي - عناية أحمد الحوفي - نهضة مصر - القاهرة - د.ت.
- فَرّوخ (عمر) - تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت.
- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد) - الشعر والشعراء - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.
- ابن قميئة (عمرو بن قميئة) - ديوان عمرو بن قميئة - معهد المخطوطات - القاهرة.
- مطلوب (أحمد) - معجم مصطلحات البلاغة - بغداد.

* * *

عبد المعين الملّوحي
المجمعي والأديب المعطاء
١٩١٧- ٢٠٠٦

أ. عيسى فتوح(*)

عبد المعين الملّوحي مربٍّ، وأديب، وشاعر، ومحقِّق، ومترجم معطاء. ولد عام ١٩١٧م في حمص، في بيت علم وأدب، وفضيلة، وتقوى، ودين، وفي أسرة شعبية ومحافظة، فقد كان والده عالماً ورجل دين، وإماماً لجامع «النوري» الكبير في حمص.

تلقى دراسته الابتدائية في مدارس حمص، ثم انتقل إلى مدرسة التجهيز الأولى في دمشق، حيث حصل على شهادتيَ (البكالوريا) الأولى والثانية، ثم انتسب إلى دار المعلمين الابتدائية، وبعدئذ إلى دار المعلمين العليا في كلية الآداب بجامعة دمشق، ونال شهادة الإجازة، ثم أُوفِد في بعثة دراسية إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة، ونال شهادة الإجازة في آداب اللغة العربية وعلومها عام ١٩٤٥م.

مارس التعليم الابتدائي بين عامَيْ ١٩٣٩م و١٩٤٢م، ثم التعليم الثانوي بين عامَيْ ١٩٤٥م و١٩٧٥م في العديد من المدارس السورية،

(*) باحث في اللغة والأدب من سورية.

وردت المقالة إلى مجلة المجمع بتاريخ ٤/ ٧/ ٢٠١٨م.

وعمل مفتِّشاً للغة العربية في محافظات حمص وحماة واللاذقية بين عامَيْ ١٩٥٨م و١٩٦٠م.

في عام ١٩٦٠م انتقل من وزارة التربية إلى وزارة الثقافة، وعُين مديراً للمركز الثقافي العربي في حمص، وفي عام ١٩٦٣م نُقِل مديراً للمركز الثقافي العربي في دمشق حتى عام ١٩٦٥م، ثم عين مديراً للتراث العربي في وزارة الثقافة حتى عام ١٩٦٨م، وبعد ذلك مديراً للمراكز الثقافية حتى عام ١٩٧١م.

في عام ١٩٧١م اختير مستشاراً ثقافيّاً في القصر الجمهوري حتى عام ١٩٧٦م، وفي نهاية هذا العام أُحيلَ إلى التقاعد، فسافر إلى الصين، حيث عُين أستاذاً مشرفاً على تدريس اللغة العربية في جامعة بكين، وبعد عودته انصرف كليّاً إلى الكتابة والترجمة والتحقيق، حتى بلغ عدد كتبه المطبوعة في هذه المجالات كلها واحداً وثمانين كتاباً.

اختير الملوحي عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وقُبل عضواً في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، وحصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة بكين، ونال وسام الاستحقاق الفيتنامي تقديراً للجهود التي بذلها في ترجمة كتاب «تاريخ الأدب الفيتنامي» في أربعة مجلدات، و«تاريخ الأدب الصيني» في مجلدين.

توفي الأديب عبد المعين الملّوحي في حمص في ٢١/ ٣/ ٢٠٠٦م يوم عيد الأم، وقدوم فصل الربيع، وهو في التاسعة والثمانين من عمره، بعد حياة حافلة بالعطاء الأدبي، والمآسي التي تمثّلت بوفاة ابنته الشابة «ورود» وزوجته «بهيرة» التي فجّر موتها قريحته، فرثاها بديوان كامل تجاوزت أبياته فيه ثلاث مئة بيت، وحين قرأ جميل صليبا هذه القصيدة النائحة قال : «لم أقرأ لشاعر شرقي أو غربي قديم أو حديث أعظم من هذه القصيدة التي ضمنت لناظمها الخلود».

أقامت له وزارة الثقافة في ٧/ ٦/ ٢٠٠٦م حفل تأبين كبير في مكتبة الأسد الوطنية، تكلم فيه عدد من الأدباء والشعراء والأصدقاء الذين أشادوا بعلمه وفضله ونبله، وسعة معارفه، وغزارة إنتاجه، وانفتاحه على الأدب العربي القديم والحديث، والأدب العالمي، ولا سيما أدب الصين، وفيتنام وبلغاريا، وداغستان، والسويد وروسيا.

* * *

يقول الأستاذ الدكتور عمر الدقاق في كتابه (فنون الأدب المعاصر): «لقد امتاز الأستاذ عبد المعين الملّوحي بحسن اطلاعه على التراث العربي القديم، مما كان له أبعد الأثر في تكوينه الأدبي، وإغناء قريحته، ثم انفتح على آفاق جديدة من الفكر العربي المعاصر، وبخاصة الاتجاه الاشتراكي، فأعجب بالماركسية، وأخذ يجهر بضرورة انقلاب الأوضاع الفاسدة في ثورية صلبة، وناله من جرّاء فكره التقدمي أذى السلطة».

أما عن أسلوبه وفكره فيقول: «وأسلوبه مشرق يحرص فيه على فصاحة العبارة، وقوة سبكها، وهو في مضمونه يبشّر بقيم ومُثُل تنمُّ على تفاؤله بالحياة والإنسانية، ويصدر في أكثر ما يكتب عن عقيدة الالتزام التي تدأب في سبيل كرامة الإنسان عامة، وحق الإنسان العربي في حياة أفضل ترفرف عليها رايات التحرر والمساواة، في دولة عربية اشتراكية واحدة».

ويضيف الدكتور الدقاق قائلاً: «أما نتاجه فيعكس ذينك التيارين المتعانقين في نفسه: التيار العربي العريق بأصالته في مثل كتابه عن (ديك الجن الحمصي) وكتابه (اللاميتان)، وتيار الواقعية الاشتراكية، الوافد بطرافته، من مثل كتبه العديدة المترجمة عن الأدب السوفييتي، وبخاصة لـ(مكسيم غوركي) مثل: (ذكريات حياتي الأدبية)، و(حادث فوق العادة)،

و(مذكرات جاسوس)، و(المتشردون)، وكتاب (في سردابي) لـ(دستويفسكي)، و(دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع) لـ(قسطنطينوف)... ومما كتبه في جريدة «الطليعة» الحمصية عام ١٩٥٤م».

* * *

ويقول الأستاذ الدكتور حسين جمعة في مقاله «الملّوحي وملحمة العروبة الخالدة»: «كان الملّوحي واحداً من أصحاب الثقافة الواسعة والشاملة، والمعارف العميقة، والأفكار الشاردة... وواحداً من أمراء شعر الرثاء في القرن العشرين، لأن قصائده الرثائية صارت من غرر الشعر العربي في معالجة قضايا الأمة، وهموم أبنائها، وأبناء الإنسانية، سواء أكان في رثائه لزوجته في قصيدته الطويلة «بهيرة» أم في معارضته لقصيدة مالك بن الريب التي رثى بها نفسه، أم في رثاء أقرانه من الشعراء والأدباء والمفكرين والمناضلين أمثال: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، ومصطفى صادق الرافعي، ويوسف العظمة، وإبراهيم هنانو وغيرهم».

«كان في رثائه يقدّس رجال الأدب والفكر والنضال، ممن أسهموا في الحفاظ على العروبة، وضَحَّوا من أجلها، وأغنَوا تراثها ولغتها، ولا يقل تقديسه لهم عن تقديسه للعروبة ذاتها ولغتها، وهو القائل في وصيته للشباب: «حافظوا على لغتكم العربية، كما تحافظون على نور عيونكم...».

«كان عروبي العقيدة حتى النخاع، جعل انتماءه العربي ملحمته الكبرى، دون أن يرهقها بعصبية أو عداء للبشرية، وفق وصيته للشباب: «شاركوا في جعل العالم أكثر سعادة، وفي جعل الإنسانية أكثر إنسانية»، لهذا كان متفائلاً بانتصار العروبة، وانتصار الشعوب الفقيرة...».

* * *

لقد صرّح الأستاذ عبد المعين الملوحي في الحوار الذي أجراه معه الدكتور فاضل الربيعي، ونشر في جريدة «الحرية» بالكثير من آرائه التقدمية الجريئة، وتجاربه العملية في الحياة، منذ أن كان طفلاً في العاشرة من عمره، حين رأى أحد الثوار في حمص، محمولاً على حمار، وهو قتيل، ويقرع رأسه الأرض، والفرنسيون يحتفلون بقتله، كأنهم عائدون من نصر كبير...وحين طرده بعنف أحد الإقطاعيين من قصره وأغلق بابه، لأنه لا يجوز للفقراء أن يدنّسوا قصر الإقطاعي، وحين جعله أحد الأساتذة الأرستقراطيين يرسب في صفه، مع أنه نال الدرجة الأولى؛ لأنه كشف له عن أصل عائلته في حمص، ولأنه – وهو ابن الشيخ الفقير – لا يجوز أن يصل إلى الصف الحادي عشر!..

ويفخر الملوحي في الحوار بأنه شارك في إيقاظ الشعب العربي الغافل من سباته – مع أصدقائه اليساريين – في العالم العربي، وبأنه ما يزال حتى اليوم قوميّاً عربيّاً، يريد وحدة أمته العربية وحريتها، ولكنَّ لهذه الوحدة مضموناً اجتماعيّاً اشتراكيّاً، لا يمكن أن تتخلى عنه، ولا أن تقوم بغيره.

ويعترف بأن الفقر والبؤس اللذين عاناهما في حياته، هما ما جعلا عقيدته الماركسية تثبت وتترسّخ، وبأنه ليس ثمة تناقض بين الدين والماركسية؛ فهو يصلّي ويصوم إذا استطاع، ويؤمن في الوقت نفسه بضرورة تغيير النظام الاجتماعي، وعلى كل شعب من شعوب العالم أن يأخذ من الماركسية ما يتناسب مع وضعه الاجتماعي.

وتحدّث في المقابلة عن فوضى النقد في بلادنا العربية، وعن صلة الثقافة بالحياة الاجتماعية، ومشكلة الثقافة العربية فيقول: «إن مشكلة الثقافة العربية الأولى التي تجمع كل المشكلات، هي فقدان الحرية فقداناً تامّاً...فالنقد إما نقد مترجم يريد أن يفرض على الأدب العربي مقاييس الآداب العالمية الأخرى،

فيكوّم الاصطلاحات والكلمات الكبيرة دون فهم معناها، أو القدرة على تطبيقها على أدبنا، بل دون فهم لها عند ترجمتها - ويا للأسف - ؛ وإما نقد سطحي، ينقسم هو أيضاً إلى قسمين: الأول نقد مجامل مدّاح، بسبب العلاقات الشخصية، والثاني نقد قدّاح ناقم، بسبب العلاقات الشخصية كذلك... وقد استدعى هذان النوعان من النقد غياب المقاييس الدقيقة للأدب نثراً وشعراً».

وتحدّث عن ضرورة إيجاد أوزان للشعر الحديث فقال: «التجديد في الموسيقى والأوزان ضرورة تستلزمها أوضاع العصر الحديث، ولكن ليس معنى ذلك أن يكون الشعر دون موسيقى... نحن نطالب بالتجديد واختراع أوزان جديدة، ولكني لا أقرّ التخلي عن الأوزان كليّاً... لست ضد الشعر الحديث، ولكني ضد أن يتحوّل هذا الشعر إلى نثر عادي، لا يحتفظ بأوزان الشعر، ولا يحتفظ بحرية النثر... وفي رأيي أن كثيراً من الشعر الحديث ليس شعراً، فالشعر ليس ألفاظاً ولا أوزاناً، وإنما هو شعور ومضمون... لا غنى للشعر عن الموسيقى، كما لا تستغني أوراق الشجر عن الحفيف، ولا تستغني أمواج البحر عن الهدير...».

وقال أخيراً: «ما قيمة الثقافة إن لم تُنْشر في الشعب وترفع مستواه؟ إن الثقافة تصبح عندئذ حلية في جيد تمثال ميّت يُعرَض في واجهات المخازن، وحقها أن تكون في جيد حسناء، تزيدها الحلية جمالاً، أو تزيد هي حليتها جمالاً... لا يمكن أن نفصل الثقافة عن الحياة الاجتماعية، إلا إذا فصلنا الأزهار والأشجار والأنهار عن الروضة المعطار، لتصبح صحراء مجدبة...».

* * *

الدكتور ممدوح خسارة
وعنايته بالعربية الراهنة

أ. د. عبد النبي اصطيف(*)

لا يسع المتتبع لما ينشره الدكتور ممدوح خسارة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق وغيرها إلا أن يغبط الرجل على نشاطاته واهتماماته بحال العربية الحديثة والمعاصرة. ولا ريب أن مسعاه الراهن إلى إكمال بعض مواد المعجم العربي مسعى نبيل ووجيه وله الكثير مما يُسوِّغه، وهو كذلك بحاجة إلى شجاعة كبيرة لا تنقصه. فاللغة – أية لغة – إنما هي بالناطقين بها، وعنايتهم المستمرة بها هي ما يجعلها حيّة فاعلة في حياة الأمة، بوصفها أداة التفكير، والتعبير، والتواصل فيما بين أبنائها، ومع تراثها، وما دُوِّن بها من مواريث الأمم الأخرى.

وقد تيسّر لي الاطلاع على آخر ما خطه يراعه في بحثه (الثالث)[1] مما يتصل بمادة علم وغيرها، ونُشِر في الجزء الثالث من المجلد التسعين من مجلة مجمع اللغة العربية، الذي يقترح فيه إضافة بضعة وعشرين مدخلاً يكمل بها مادة «علم».

(*) أستاذ في جامعة دمشق – كلية الآداب.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٥/ ٩/ ٢٠١٨م.

(١) أ. د. ممدوح خسارة، «إكمال مادة لغوية (٣)»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد التسعون، الجزء الثالث، رمضان ١٤٣٨هـ- تموز ٢٠١٧ م، ص ص ٥٨٣-٥٩٤.

لقد وجد الدكتور خسارة أن «ثمة كلمات جديدة من أفعال وأسماءٍ دخلت اللغة العربية المعاصرة وَفق أبنية عربية، ولكن بدلالات محدثة لم تكن لها عند القدماء، مثل فعل (اعتقل، انعدم(*)، أزم، حاسوب). ونظراً لشيوعها، فإن الحاجة تدعو إلى دراسة كل منها على حدة، ولاسيما الأفعال، لمعرفة مدى صلوحها لدخول المعجم العربي، بعد أن دخلت ميدان الاستعمال اللغوي. وإذا كان بحثنا سينصب على الأفعال، فذلك لأن إقرارها يستتبع مشتقاتها من أسماء فاعلين ومفعولين وسائر الصفات» (ص ٥٨٣).

هذا وقد أحصى الدكتور خسارة، عند العودة إلى معجمين رأى فيهما مُمثِّلين للمعاجم العربية والحديثة، أولهما قديم هو «تاج العروس» للزبيدي، وثانيهما حديث هو «المعجم الوسيط» الذي صنعه مجمع اللغة العربية في القاهرة، نحواً من ستة وخمسين مدخلاً مأخوذاً من الجذر «علم». وتبين له مِن تَتَبُّعه للاستعمال اللغوي المعاصر أن «ثمة سبعة وعشرين مدخلاً تتضمن نحو ستين دلالة جديدة، منها ما هو جديد تماماً بناء ودلالة، مثل (عَوْلَم، والعَلْمَنة)، ومنها ما اكتسب دلالات إضافية على ما كانت له، مثل (الإعلام والمَعْلَم). واستناداً إلى ما تقدم يقترح سبعة وعشرين مدخلاً لإكمال مادة «علم».

ولدى مراجعة ما اقترح الدكتور خسارة إضافته على الجذر «علم» من مداخل، وجدتُ أن من واجبي أن أشدّ على يده، عملاً بالآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]، وأعزِّز مسعاه النبيل ببعض ما بدا لي من ملاحظات، يُمليها حبنا المشترك للعربية، وإن قصر باعي في خدمتها عن باعه:

(*) من المناسب التنبيه على أن استعمال «انعدم» كما يستعمله المعاصرون قديم، ورد في بعض ما انتهى إلينا من كلام القدماء في القرن الرابع الهجري وما بعده، وربّما قبل ذلك، وقد ورد أكثر ما ورد في كلام المتكلّمين. لكنّ اللغويين تحفّظوا منه، ووصموه بالغلط واللحن، ولذلك أهملوه. = [المجلة].

أولها: أن من الضروري، عند إحصاء دلالات أي مادة لغوية، عدم الاكتفاء بالعودة إلى معاجم قديمة وحديثة محدودة أخذاً بصفتها التمثيلية، ذلك أن **لكل معجم قديم أو حديث إسهامه النوعي** الذي يُسوِّغ صنعه وإخراجه للناس. صحيح أن الدكتور خسارة يشير في حواشي بحثه إلى معجم **لسان العرب** لابن منظور، و**التعريفات** للجرجاني، و**كشف الظنون** لحاجي خليفة، و**مفتاح العلوم** للسكاكي، و**معجم اللغة العربية المعاصرة** لأحمد عمر مختار، و**المعجم الكبير** الذي يعدّه **مجمع اللغة العربية** في القاهرة، غير أن من الحكمة أن يستعين في تقصيه للاستعمالات الحديثة للمفردات بمعاجم حديثة من مثل **متن اللغة** لأحمد رضا، و**المعجم العربي الأساسي** الذي أصدرته **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** عام ١٩٨٩ في تونس، وغيرهما، وهي كثيرة، والعودة إليها ضرورية في تقصّي الدلالات الحديثة والمعاصرة للمفردات العربية، لأنها ستكون المرجعية المعتمدة في هذه الدلالات.

وثانيها: أن من الحكمة بمكان البحث عن مصدر كل مفردة جديدة وتبيُّن واقع صلة دلالتها بالحياة العربية الحديثة، خاصة أن الكثير من المفردات المولّدة حديثاً هي من الاقتراض اللغوي بطريق الترجمة (Loan-translation calque). ومعنى هذا أنه لا بد من العودة إلى المعاجم ثنائية اللغة التي تم اقتراض هذه المفردات من لغتها الأجنبية الثانية، أي من الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية وغيرها. وبعبارة أخرى: من المهم الإشارة إلى الأصل الأجنبي للكلمة وإلى ما طرأ على دلالتها من تحولات إلى أن استقرّت في النظام اللغوي العربي بدلالتها المحددة. ويمكن أن يشير المرء هنا إلى بعض المعاجم المساعدة في هذا المجال من مثل **قاموس أكسفورد الحديث** لدارسي اللغة الإنكليزية (Oxford Wordpower) الذي عنيت به د. نجاح الشمعة، وصدر عن مطبعة جامعة أكسفورد عام ٢٠٠٠، الذي يشرح كل مفردة بالإنكليزية أولاً، ثم يعقب عليها

بمقابلها العربي، و**قاموس أكسفورد: إنكليزي عربي** (**Oxford English-Arabic Dictionary**) الضخم (يقع في ١٤٠٠ صفحة من القطع الكبير) الصادر عام ١٩٨١ عن الناشر نفسه بتحرير (ن. س. دونياك N. S. Doniach)؛ فضلاً عن معجمي **المورد** لـ منير بعلبكي و**المغني** لـ حسن الكرمي.

وكذلك من المهم التنبيه في هذا المقام على أن الاقتراض اللغوي عن طريق الترجمة ينبغي أن يكون مشفوعاً بالإحاطة بدلالات المفاهيم المترجمة ومصطلحاتها[٢]، فعلى سبيل المثال إن كلمة العولمة[٣] ليست غير ترجمة حديثة للكلمتين الإنكليزية (Globalization) والفرنسية (Mondialisation). وفي حين إن الكلمة الإنكليزية مشتقة من كلمة (Globe) أي الكرة الأرضية، (الأمر الذي دعا بعض العرب إلى ترجمة (Globalization) بالكوكبية) والكلمة الفرنسية مشتقة من (Le monde) أي العالَم، تشير كلتاهما إلى منظور يتزايد تأثيره في التفكير السياسي والاقتصادي والعسكري المعاصر، يسعى إلى تدبّر كل قضية من خلال

(٢) انظر بغرض الاطلاع على المزيد في هذه المسألة: عبد النبي اصطيف، «التأصيل وما أدراك ما التأصيل في الثقافة العربية الحديثة»، الأسبوع الأدبي، العدد ١٢٨٣، السنة السادسة والعشرون، تاريخ ١١-٢-٢٠١٢، ص ٦.

(٣) انظر بغرض الاطلاع على مفهوم العولمة: Derek C. Maus, "Globalization", in: The Encyclopaedia of Literary and Cultural Theory, 3 Volumes, General Editor Michael Ryan (Wiley-Blackwell, 2011), pp.1094–1098; وكذلك مادة "Globalization":

Key Concepts in Cultural Theory, Second Edition, edited by Andrew Edgar and Peter Sedgwick (Routledge, London and New York, 2008), pp. 146–149.

وكذلك: Dr. Nayef R.F. Al-Rodhan and Ambassador Gérard Stoudmann, Definitions of Globalization: A Comprehensive Overview and a Proposed Definition, (Geneva Centre for Security Policy, Geneva, 2006).

النظر إليها من منظور شامل للعالَم الأرضي، أو الكرة الأرضية، متجاوزاً مختلف الحدود التي تتخلل هذا العالم، أو هذه الكرة.

وكذا الشأن في دلالة مصطلح **العَلمانية**[٤] (Secularism) الذي يشير إلى نوع من التفكير الذي يُحيّد الدين عند النظر في شؤون الإنسان الحديث والمعاصر، دون أن يعني ذلك محاربتَه، أو محاربة المتدينين، وإنما فصل الدين عن الدولة التي ينبغي أن تقوم، فيما يراه أتباع العلمانية، على قاعدة من القانون الوضعي الإنساني، لأن الإنسان أعلم بما يمكن أن يقوم شأنه أو شؤونه به. **ولا ريب أن إحاطة القارئ علماً بأصول الكلمتين ضرورة لازبة، لأن هذه الأصول تشكل المرجعية التي يُستند إليها في تحديد دلالتها، وهو ماغاب عن ذهن الدكتور خسارة.**

وثالثها: ضرورة التنبُّه إلى أن بعض المفردات الحديثة خاصة بعلوم وميادين معرفة محددة، ولذا فإن دلالاتها محكومة بأنظمة هذه العلوم والسياقات الإشارية الخاصة بها؛ فعلى سبيل المثال إن كلمة **علامة**[٥] التي تقابل كلمة (Sign) هي المحور الأساسي لعلم العلامات (Semiology) الذي بشّر به (فردينان دوسوسير Ferdinand de Saussure) في كتابه **مساق في علم اللغة العام (Course de linguistique générale)**، ومن ثَم كل ما يتصل بها ينبغي تدبّره من منظور هذا العلم الذي ازدهر وتطوّر على مدى أكثر من قرن في أوربا وأمريكا وغيرهما. ويمكن أن يلاحظ القارئ المدقق أنَّ الدكتور خسارة لم يورد أساساً هذا المعنى، لأنه عوّل على مابين يديه من مراجع محدودة.

---

(٤) عزيز العظمة، العلمانية من منظور مختلف، ط ٣، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨).

(٥) بغرض الاطلاع على مفهوم العلامة وموقعها في علم العلامات Semiology:
"Semiotics/Semiology", "Sign", in: Key Concepts in Cultural Theory, ibid, pp. 306–309 and p. 311.

وكذا الشأن في كلمة «استعلامات»، فهي ليست غير ترجمة (Calque) للمفردة الإنكليزية والفرنسية (Information)، ولكن لها دلالات عديدة في هذه اللغات يميزها الاستعمال والسياق، فهي بمعنى **الإعلام في «وزارة الإعلام»** (Ministry of Information)، وهي بمعنى **المعلومات** في (Information Technology)، أي **تقانة المعلومات**، وكل ذلك إلى جانب ما أورده الدكتور خسارة في بحثه الذي أغفل مرجعيات هذه الدلالات، ومن ثَمَّ رأى أن ما ذهب إليه يشكِّل مرجعية كافية.

ورابعها: التنبُّه إلى أن الكثرة الكاثرة من هذه المفردات هي استعمالات في اللغة المحكية(*)، وهي لذلك محكومة بالنظام اللغوي الذي يهيمن على الإنشاء الفردي العامي؛ مثل: **التَّعليمَة**، التي أشار إليها الدكتور خسارة، والتي دخلت إلى العربية المحكيّة مع دخول الهاتف المحمول، أو الخلوي، أو النقال، سمّه ما شئت. ومن المهم في هذا المقام الدعوة إلى دراسة هذه المفردات، ومن ثم دمجها في المعجم العربي الحديث لتكون جزءاً من النظام اللغوي الخاص باللغة العربية الفصيحة.

وخامسها: التنبّه إلى أن كل مفردة من هذه المفردات لها تاريخ دخول محدد في اللغة العربية، وأن ثمة عوامل أملت دخولها في هذا التاريخ، أهمها حاجة الأمة إلى اللحاق بركب الأمم الأخرى في ميادين العلوم والمعارف والصناعات. صحيح أن العربية لا تزال حتى يومنا هذا تفتقر إلى معجم تاريخي، ولكن أخذ هذا العامل بالحسبان مهم في مناقشة دلالة أية

(*) لعلّ الصحيح أن معظم تلك الألفاظ من اللغة العربية المعاصرة، التي لا تُعَدّ مطابقة للهجة العاميّة، وإن كان فيها شيء منها؛ فكأنّ الصحيح أنّ أقل القليل من تلك الألفاظ يمكن أن يوسم بالعاميّ، أو أنّ أصله من العاميّة المحكية. = [المجلة].

مفردة، ومادام الدكتور خسارة قد أخذ على عاتقه هذه المهمة الجليلة فإن عليه أن يشفع كل معنى جديد بتاريخ دخوله إلى العربية.

وسادسها: ضرورة الأخذ بالحسبان تلك المعاني التي يُكسِبها بعض فصحاء العربية لمفردات معينة نتيجة تأثرهم اللاواعي بلغة أجنبية يتقنونها، (مفردة «يختلف» بمعنى «يتردد على» ترجمة لكلمة (frequent) الإنكليزية والفرنسية(*) وتكثر في كتابات طه حسين). ومعنى هذا أن كتابات هؤلاء يمكن أن تكون مصدراً مهماً للكلمات الجديدة ذات المعاني الجديدة التي أدخلوها إلى اللغة العربية.

وأخيراً يرى صاحب هذه السطور، في معرض مراجعته لما أضافه الدكتور خسارة من دلالات للجذر علم، أن من الأفضل استعمال كلمة «**درجة**» (بدلاً من كلمة **علامة** التي يقترحها الدكتور خسارة)؛ لأن كلمة «**درجة**» هي **المستعملة في السجلات الامتحانية في المؤسسات التعليمية المدرسية والجامعية السورية**. وكذلك «**العلامة الموسيقية**»، على غير ما ذكره الدكتور خسارة الذي رأى فيها رمزاً «يدل على نوع الصوت ومستواه الموسيقي»، **تشير في الكتابات العربية المعاصرة إلى ما يعرف بـ «المستديرة والبيضاء والسوداء وذات السن إلخ» التي تحدد الزمن، أما طبقة الصوت Tone فتتحدّد بموقع العلامة على سُلّم القطعة الموسيقية مثل دو ري مي**(٦).

والله من وراء القصد.

(*) هكذا قال الأستاذ الكريم! وهذا – بما فيه من نفي كون هذا الاستعمال عربياً – لا يمكن قبوله؛ لأنّ استعمال الفعل «اختلف إلى» بمعنى: تردّد على = قديم مشتهر عند القدماء، وقد نصّ عليه بعض المعاجم نصًّا؛ ففي تاج العروس: «واختلف إليه اختلافة واحدة، وهو يختلف إلى فلان: يترَدّد.». = [المجلة].

(٦) للمزيد عن التدوين الموسيقي يُنظر:
Joseph Machlis, The Enjoyment of Music: An Introduction to Perceptive Listening, Revised Edition (W. W. Norton & Company, New York, 1963), pp. 73–78.

المحاضرات والمدارسات(*)

(*) **المدارسة**: هي المقابل العربي لكلمة (سيمِنار seminar) الأجنبية، وتعني بحثاً يقدمه أحد أعضاء المجمع، للتذاكر به ومناقشته في مجلس المجمع.

التطور اللغوي في العربية المعاصرة
إطلالةٌ عامّة

أ. د. عبد الناصر إسماعيل عسّاف(*)

تتحرّك المحاضرة بموضوعها بين قطبين لا يخلو أحدُهما مصطلحاً أو مفهوماً من خلاف: الأوّل التطوُّر، والآخر العربيّة المعاصرة، وتدور في فلك قضيّة تتناهبها آراءٌ تصل أحياناً إلى حدّ التناقض. ولهذا وذاك قد تجد الإجماعَ في بعض مكوّناته العلميّة والمنهجيّة يفرّ ويترك مقعده للاختلاف.

*** التطوُّر:**

التطوّر مصدر قياسيّ للفعل «تَطَوَّر»، وهو فعلٌ يدلّ ببنيته ودلالته الاستعماليّة على الانتقال والتحوّل من طور إلى طور، انتقالَ تغيّر. وقد لهِج به المحدثون، ولاسيّما بعد ظهور بعض الآراء والنظريات التي عُنيت برصد التغيّرات الاجتماعية والسياسية، أو بتقديرات خلق الإنسان وتحوّلاته كنظرية التطوّر لـ(دارون).

وهذا اللفظ فعلاً ومصدراً ومشتقّاتٍ ممّا لم ينتهِ إلينا فيه دليل على استعمال العرب له في زمن الفصاحة الأولى. ومن هنا منع بعضُ المحدَثين

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ الدكتور عبد الناصر عساف هذه المحاضرة بتاريخ ٣١/ ٥/ ٢٠١٧م.

استعمالَه بحُجّة مخالفة المنقول والمسموع؛ لأنّ في اللغة من الأفعال وتصريفاتها ما يُفيد هذا المعنى، ومنها تحوَّل وتغيَّر وتبدّل.

على أنّ ذلك لا يعني أنّ هذا الاستعمال مُحْدَث كما يحلو لبعض الباحثين أن يرى؛ لأنّ هذه الكلمة فعلاً ومصدراً ممّا استعمله متأخّرو القدماء. ولك أن تقول باطمئنان: إنّ هذه الكلمة كانت مستعمَلة مستقرّة قبل نحو ثمانية قرون على الأقلّ. فقد وردت مثلاً في كلام أبي الحسن الحَرَالِيّ (ت ٦٣٨هـ):

«قال في كتابه (المفتاح) ما نصّه: الباب الرابع في رُتَب البيان عن تَطَوُّر الإنسان بترقّيه في دَرَج الإيمان وتردّيه في دَرَك الكفران:...»[(١)].

ووقعت أيضاً في كلام أبي حيّان الأندلسيّ (ت ٧٤٥هـ) وابن عرفة (ت ٨٠٣هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)[(٢)].

ونصوصُ هؤلاء الأئمّة دالّةٌ على أنّ مصطلحَ «التطوُّر» لم يغادرِ المعنى اللغويَّ الذي تنبئ عنه صيغة الفعل والمصدر من التحوّل والانتقال من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، دون أن تلابسَه أحكامُ قيمة. فهو بعبارة أخرى: مصطلحٌ محايد، خالٍ في ذاته وأصله من معنى الحُسْن والرقيّ. وعلى هذا جرى مجمع اللغة العربيّة في القاهرة إذ أقرَّه وأثبته في المعجم الوسيط، بعد الوثوق من صحته.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، تح عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٥، ٣/ ٣٣٩، وطبعة دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، ٥/ ٨١٠.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية،٥/ ٤٦٠؛ وتفسير ابن عرفة، ابن عرفة، دار الكتب العلمية، ٤/ ٩٩؛ و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨، ٢/ ٨٦.

ورد في المعجم الوسيط (طور) في تبيين المعنى اللغويّ والاصطلاحيّ: «تطوَّر: تحوَّلَ من طور إلى طور (مج). (التطوُّر): التغيُّر التدريجيّ الذي يحدث في بنية الكائنات الحيّة وسلوكها؛ ويُطلَق أيضاً على التغيّر التدريجي الذي يحدث في تركيب المجتمع أو العلاقات أو النظم أو القيم السائدة فيه».

ولذلك يمكن القولُ: إنّ دلالة مصطلح «التطوّر» وتصريفاته على التقدّم والرقيّ دلالة عرفيّة مُحْدَثة لا تخلو من قيمة مُضافة ربّما خلعتها عليها بعضُ النظريات والأفكار الاجتماعيّة والفلسفيّة. على أنّ دلالة التطوّر الاقتضائيّة أو الضمنيّة على التقدّم في مجرى الزمن وحركة الحياة والتاريخ ليست مصادرةً تهدم ذلك وتنقضه. ومن هنا ليس للمرء أن يحكم على هذه الصورة أو تلك من صور التطوّر بقيمة الترقّي إلّا إذا كانت بنّاءة تُفضي إلى فائدة في متعلّقاتها، وكانت خطوة في الطريق الصحيح والسعيِ المثمر. وإلّا فهل لك أن تعدّ كلّ صورة من صور التطوّر في واقع العالم المعاصر وجهاً من وجوه التقدّم والرقيّ، وفيها عشراتُ الصور التي لا تعدو عند التأمُّل والتحقيق أن تكون ضرباً من النكوص والقهقرى؟!.

*** العربيّة المعاصرة:**

«العربيّة المعاصرة» مختصرٌ من مصطلح «اللغة العربيّة المعاصرة»، وهو أحد المصطلحات أو الأسماء التي سُمِّيَت بها اللغةُ التي يستعملها العرب المعاصرون. وهو من أكثر المصطلحات شيوعاً ودقّة تعبير. ووصفُ «المعاصرة» فيه لا يؤذن بانقطاع حبل مسيرة اللغة العربيّة، واستقلال صورها بعضها عن بعض بحسب مراحلها، بل هو وصف زمنيّ مناسب لهذا الواقع

اللغـويّ المحـدّد[٣]، لا ينفـي أن تكـون هـذه اللغـة التـي يتـداولها العـرب المعاصرون امتداداً للغة العربيّـة الفصـحى، وإن كـان فيهـا شـيء مـن اخـتلاف وتغيّر مردُّه إلى ما يصيب اللغة العربيّة كسائر اللغات من تطوّر طبيعـيّ وحتمـيّ، وما ينتهي إليها من آثار اللغات الأخرى واللهجات أو العامّيات المعاصرة.

وقـد حـاول بعـضُ البـاحثين المختصّـين تعريـفَ هـذه اللغـة العربيّـة الفصيحة المعاصرة، مستندين إلى الاستعمال اللغـويّ الفعلـيّ للمعاصـرين، والخصائص البِنَوِيّة لهذه اللغة المتداولة، وجملـة مـا قيـل عنهـا، فكـان مـن ذلك تعريفات عدّة، منها مثلاً هذان التعريفان:

قال د. محمّد حسـن عبـد العزيـز: «ومـن جملـة مـا قيـل عـن (العربيّـة المعاصرة) نستخلص التعريف الآتي: «لغة فصـحى، مكتوبـة، تُسـتخدَم فـي التعليم وفي العلم وفي الأدب وفي الصحافة، وهي اللغة الرسميّة المشـتركة في العالم العربي اليوم».»[٤].

وقال د. جمعان بن عبد الكريم: «اللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة: لغـة مكتوبة منطوقة ذات خصائص صـوتيّة وصـرفيّة ونحويّـة ودلاليّـة وأسـلوبيّة معيّنة، تتّصل مع الفصحى القديمة في كثيـر مـن خصائصـها، وتتواصـل مـع عصرها في خصـائص أخـرى، تتعلّـق بالحتميّـة التطوريّـة للغـات خصوصـاً التطوّر الدلالي»[٥].

(٣) انظـر: اللغـة العربيّـة الفصـيحة المعاصـرة: محاولـة لمقاربـة المصـطلح والمفهـوم، د. جمعان بن عبد الكريم، مجلة اللسان العربي، ع ٦١، ٢٠٠٦، ص ١٧.

(٤) خصائص العربيّة المعاصرة، د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة اللسـان العربـي، ع ٤٥ ، ١٩٩٨، ص ١٤٣.

(٥) اللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة: محاولة لمقاربة المصـطلح والمفهـوم، مجلـة اللسـان العربي، ع ٦١، ٢٠٠٦، ص ٣٠.

*** التطوُّر اللغويّ:**

التطوّر في اللغة سُنَّة من سننها، فهي عرضة للتغيّر في مختلف عناصرها: أصواتها ومفرداتها وتراكيبها ودلالاتها. وعلاقتها بالمجتمع والفكر والحضارة والعالم كلّه ممّا يجعلها كالكائن الحيّ تخضَع لما يخضع له من نموّ وتطوّر. ومستويات اللغة ليست سواءً في قبول التطوّر وسرعته، فهو يختلف من مستوًى إلى آخر كما يختلف في سرعته ودرجته من زمن إلى آخر.

واللغة العربيّة كسائر اللغات عرضةٌ للتغيّر في كلّ ما فيها، فهي ليست لساناً فذّاً بين الألسن، والتغيّر فيها لذلك لا بدّ منه، لكنّه تطوّر يغلب عليه البُطء. وهو شيء لم يغادرها في مرحلة من مراحل حياتها وتاريخها المتطاول. وكان في كلّ ذلك طاقةَ خلقٍ وتوليد دالّةً على مرونة العربيّة وطَواعِيَتِها في النظام الصرفيّ والدلاليّ والتركيبيّ، وقدرتها على التجدّد والنمو، وتحقيق حاجات مستعمليها، ومواكبة متغيّرات الزمان وحركة الفكر والحياة والحضارة.

واللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة، وهي قِطعةٌ من العربيّة لا تنفصل عنها، وما قد يتراءى لك فيها مختلفاً عنها لا يكاد يساوي شيئاً ممّا يجمعها بها ويشدّها إليها = شاهدٌ قريب منّا نمسكه بحواسّنا دالٌّ على ذلك التطوّر والنموّ. والتطوّرُ الذي يبدو للباحث في العربيّة المعاصرة في مستويات اللغة كافّة إمّا أن يكون تغيُّراً نسبيّاً، وإمّا أن يكون تغيّراً كلّيّاً، فقد يكون ذلك في إحداث ما لم يكن مستعمَلاً معهوداً في زمن الأوّلين من تركيب أو دلالة أو كلمة، أو في اختلاف نسبة استعمال المستعمل القديم قلّةً أو كثرةً.

*** التطوّر الصوتيّ:**

أنكر بعضُ الباحثين وقوعَ التطوّر الصوتيِّ في اللغة العربيّة إنكاراً

نازعتهم فيه الغيرةُ، وناقش أ. محمّد الأنطاكي «بعضَ أولئك الباحثين[٦] من أولي الغيرة على العربيّة والاعتزاز بها الذين يَرَون أنّ أصواتَ العربيّة الفصحى ثابتةٌ لم ينلها التطوّرُ، وأنّنا ننطقها اليوم كما كان العرب ينطقونها منذ أربعةَ عشرَ قرناً على الأقلّ، وينتهون من ذلك إلى أنّ ما استنبطه علماءُ الغرب من قانون التطوّر الحتميّ الذي يصيب أصوات اللغة لا ينطبق إلّا على ألسنهم وحدَهم»؛ ورأى أنّ الغيرة على العربيّة ليست مسوِّغاً للخروج عن جادّة العلم الصحيح، فليست العربيّة شيئاً فذّاً بين الألسن، إنّها لسان من ألسُن خَلْقِ الله جميعاً، ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها، وتخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الألسن.

ثمّ بيّن أنّ واقع الاستعمال اللغوي يدلّ على شيء من اختلاف في الأداء الصوتيّ، ومثّل لذلك بما رآه، ومنه اختلافُ نُطْق صوت الضاد اختلافاً كبيراً عمّا ذكره العلماءُ لهذا الصوت من صفات. وانتهى إلى أنّ العربيّة - مع ذلك - محافِظةٌ، تميّزت خلال تاريخها الطويل بشدّة المراس وعدم الانقياد والاستسلام للتطوّر العنيف؛ وأنّ ما أصابها من تغيّر خلال عمرها الطويل لا يُعَدّ شيئاً مذكوراً إذا نُسِب إلى ما أصاب غيرَها من الألسن، ولكنّ الثباتَ الذي يزعمونه شيءٌ، والمحافظةَ التي يقول بها شيءٌ آخرُ مختلف[٧].

وقولُ الأنطاكي في رأيي صحيح، فالتغيير في صفات بعض الأصوات ومخارجها أحياناً واقعٌ لا مفرَّ منه، يؤكّده تأمُّلُ واقع الاستعمال ومعارضتُه بما انتهى إلينا من نصوص علماء العربيّة والقراءات. ومثلُه يُبين عن شيء

(٦) نصّ الأنطاكيُّ في الحاشية على أنّ من أولئك الباحثين الأستاذَ محمّد المبارك في كتابه (فقه اللغة وخصائص العربية) ص ٢٥١ وما بعدها.

(٧) دراسات في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ، دار الشرق العربي - بيروت ، ط ٤ ،ص ٢٢٤-٢٢٥.

من اختلاف لا يمكن إنكارُه. لكنّ دقّةَ ذلك الاختلاف وقلّتَه قلّةً تقارب النّدرةَ، بإزاء غلبة الثبات، وذلك ما يجعلُ من الصعب إدراكَه = تُخيِّلان للباحثين الثباتَ وانعدامَ التغيّر.

ومن مظاهر التطوّر الصوتيّ النادرةِ التي تبدو للمتأمّل في العربيّة المعاصرة اصطباغُ الجيم بصفة الأصوات الشمسيّة عند اقترانها بـ «أل» التعريف، يقولون: الجَّبَل، والجَّمال، والجُّندي،.... ولو نطقوا الجيم على أصلها العربيّ القديم لقالوا: الْجَبل، والْجَمال، والْجُندي،.....

وهذا من النُّطق الطاغي الغالبِ على الناس في زماننا، تسمع ذلك من الأميّ والمثقّف والمتعلّم والعالم. لا فرق في ذلك بينهم إلا في النادر. وهو عندي أثرٌ من أثر اللهجات والعامّيّات المعاصرة.

وهذا التغيّر ترى فيه ما نصّ عليه العلماء من خصائص التطوّر الصوتي من بطءٍ وتدرّجٍ، وأنّه غير شعوريّ، فهو تلقائيٌّ غيرُ متعمَّد، ولا دخلَ للإرادة الإنسانيّة فيه، وأنّه مطّرد غير فرديّ [٨].

*** التطوّر الصرفيّ:**

إذا نظرت في مدوّنة العربيّة المعاصرة نظرَ الباحث الفاحص أسلمك نظرُك بلا شكّ إلى القطع بأنّ فيها من مظاهر التطوّر الصرفيّ حظّاً وافراً، وأنّ أكثرَه عند التحقيق ينبثق من «جَوَّانيّة» اللغة العربيّة وإمكانيّاتها الخلّاقة.

ومن صور التطوّر اللغوي في المستوى الصرفي في العربيّة المعاصرة كثرةُ استعمال المصدر الصناعيّ. وليس من المغالاة في شيء إذا قلت: إنّ المصادر الصناعيّة التي استُعمِلَتْ في العربيّة المعاصرة في نصف قرن أو بِضعة عقود أكثرُ

(٨) انظر: التطوّر اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط٣، ١٩٩٧، ص ٢٠-٢٣.

ممّا كان في العربيّة من ذلك في قرون. ولك أن تدرك ذلك إذا نظرت فيما انتهى إليه بعضُ من درس المصدرَ الصناعيَّ عند فلاسفة الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وما انتهى إليه بعضُ من درس المصدر الصناعيَّ في العصر الحديث، فقد كان مجموع المصادر الصناعية التي استقصاها أحدُ الباحثين في مؤلّفات فلاسفة الإسلام: الكنديّ والفارابيّ وابن سينا (١٨٢) مئة واثنين وثمانين مصدراً، وهو عددٌ قليل بالنسبة إلى كثرة مؤلّفاتهم الفلسفية، في حين كان عددُ المصادر الصناعيّة التي رصدها باحثٌ آخرُ في ستِّ صحف مصريّة رسميّة في سنتين: ما بين عام ١٩٩٦ وعام ١٩٩٨ (٥٠٩) خمسَ مئة وتسعةَ مصادر[٩].

ومن تلك الصور الانصرافُ عن صيغ التصغير الصرفيّة في التعبير عن معاني التصغير والتقريب والتقليل، والتعبيرُ بصيغ التصغير أبلغُ في الدلالة وأوجز في اللفظ. فالسمةُ الغالبة على اللغة المعاصرة في هذا الاستغناءُ عن تلك الصيغ بالوصف، فيقولون: ورقة صغيرة، لا وُرَيقة، وكلمة قصيرة، لا كُلَيمة، ولحظة قصيرة، لا لُحَيظة، وذهب قبل العصر بوقت قصير، لا قُبَيل العصر، وهكذا.....

وقد وصم بعضُ الباحثين ذلك بالضعف؛ لما تؤدّيه هذه الأبنيةُ (صيغ التصغير) من دلالات تعبّر عن المعنى بلفظها، وتحقّقه من إيجاز؛ لأنّ البناء الصرفيَّ يغني عنِ اللفظ الكثير؛ وعدَّ اختفاءَ التصغير من الخطاب المعاصر اكتفاءً بالوصف من أثر اللغات الأجنبيّة[١٠].

---

(٩) انظر: المصدر الصناعي في العربية: دراسة صرفية دلالية من خلال مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا، د.محمد عبد الوهاب شحاتة، دار غريب - القاهرة ، ١٦٨-١٦٩، والمصدر الصناعي والصحافة المصرية (١٩٩٦-١٩٩٨)، مجلة علوم اللغة، م ٢، ع ١، ١٩٩٩، ص ٢٤٧.

(١٠) البناء الصرفيّ في الخطاب المعاصر، د. محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي - القاهرة، ٢٠٠٩، ص ١٤٨.

ومن مظاهر التطوّر الصرفيّ في العربيّة المعاصرة توليدُ عشراتِ، بل مئاتِ المفردات، بالاشتقاق والمجاز والترجمة، للتعبير عمّا استجدّ. وبذلك جادت علينا العربيّةُ المعاصرة بألفاظِ: الطِّباعة، والسُّعال، والطيّار، والمِصْعَد، والحاسوب، والناسوخ، والمَجْمَع، وصوّتَ، وابتكر، واستقال، والبيئة، والمَلحمة، والدرّاجة، والدبّابة، والمِذياع، والصاروخ، وجنون البقر، والفأرة (فأرة الحاسوب).

ومن تلك المظاهر والصور كثرةُ الاشتقاق من المعرّب والدخيل وأسماء الذات، نحو: أتمت، وبرمج، وبستر، وجيَّر(حوَّلَ)، ودبلج، ودشّن، وقرصن، ومغنط، وقنَّن، وفلتر،.....

ومن ذلك أيضاً إحياءُ بعضِ الصيغ المهجورة في التعبير عن بعض المستجدّات، فكان لصيغة «فَعْلَن» وتصريفاتها جولةٌ وصَولةٌ في نحو: أنسنَ الشيء: إذا صبغه بشيء من حقيقة الإنسان وطبيعته، وعلمن: إذا جرّد العلمَ من صفته الدينيّة، وعقلن الشيء: إذا جعله علميّاً وخلع عليه سمةَ العقل(١١). وقُلْ مثلَ ذلك في صيغة «تَمَفْعَل» وتصريفاتها، نحو: تمركز، وتموضع، وتمحور، وتمرحل، وتمفصل، وتمترس؛ وصيغة «فَوْعَلَ»، نحو: عولم، وحوسب، وقولب....

ومن مظاهر التطوّر الصرفيّ في العربيّة المعاصرة تأنيثُ بعضِ الصفات التي يستوي فيها المذكّرُ والمؤنّث إذا أُريد بها المؤنّث، فيقولون: بلادٌ معطاءة، وبنتٌ مِهذارة، وفتاة طَمُوحة، وامرأة جريحة، وإدارة غَيُورة. ولو جارى المتكلّمون قواعدَ العربيّة واستعمالَ العرب الفصحاء لقالوا: بلاد

(١١) انظر: خصائص العربية المعاصرة، د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة اللسان العربي، ع ٤٥ ، ١٩٩٨، ص١٥٤.

مِعطاءٌ، وبنت مِهذارٌ، وفتاة طَموحٌ، وامرأة جريحٌ، وإدارة غَيُورٌ.

و لعلّ المناسبَ التزامُ التذكيرِ إلّا إذا خلا السياقُ ممّا يُبينُ عن جنس المقصود المؤنّث، فيحسنُ حينئذ تأنيثُ هذه الصيغ إذا أُريد بها المؤنّث(١٢). ولا شكّ أنّ أَمْنَ اللَّبس مَدعاةُ إباحةٍ وتسويغٍ تدعو أحياناً إلى خَرْقِ القاعدة. وربّما وجد المرءُ في كلام القدماء ونصوصِ العلماء دليلَ جواز وإباحةٍ لهذا الاستعمال عند فقدان القرينة الدالّة المُزيلة للَّبْس.

*** التطوّر الدلالي:**

التطور الدلالي بمجازه واتّساعه وتخصيصه وتعميمه ارتقاءً بالمعنى أو انحطاطاً به ممّا لم يفارق اللغة العربيّة في تاريخها المتطاول. ولو نظرت في دلالة الألفاظ التي تخرج من جذر أو مادّة واحدة في معجم من المعاجم لأدركت ذلك. وهذا الضرب من التطور ربّما كان أنأى الضروب من هيمنة المعياريّة وما يصدر عنها من الاعتراض والردّ والنقد، في وقت كان جمهرة من علماء العربيّة ينظرون فيه إلى ضروب التغيّر الأخرى بشيء من شزر وصغار تمليه عليهم تلك المعياريّة، ينتهي بهم بأَخرة إلى رميٍ ما يصدر عن تلك الضروب باللحن والخطأ والضعف.

وامتداد هذا التطوّر في بُنيان العربيّة المعاصرة ممّا لا يُخطئه الباحثون. وربّما كان هذا التطوّرُ في العربيّة المعاصرة أوسعَ ألوان التطوّر. وهو وجهٌ بيّنٌ من وجوه التطوّر الداخلي للغة، دالّ على تلاقح اللغة والفكر والحياة، ومثالٌ شاهد على تغيّر المعاني مع ثبات البُنية بتغيّر الزمن.

وهذه أمثلة من أمثلة التطوّر الدلالي في العربيّة المعاصرة:

فمن أمثلة الانتقال بالدلالة على وجه المشابهة والمجاز قول

(١٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٥٦-١٥٧.

المعاصرين: «طَمُوح»، و«الطُّمُوح» بمعنى الهمّ إلى نيل العلا وطلب المزيد[١٣]. وهذا مستفادٌ بالمجاز من قول العرب: «طَمَح بصري إلى الرجل: امتدّ إليه وعلا، وبحرٌ طَمُوحُ الموج: مرتفعُه، وبئر طَمُوح الماء: مرتفعةُ الجُمّة، وهو ما اجتمع من مائها».

ومنه قولهم في العربيّة المعاصرة: «شَحَذَ همَّتَه وعزيمته». ولا يخفى نقلُه بالمشابهة من قول العرب: «شَحَذَ السِكِّين: إذا أحدَّها»، فكأنّ الهمّة والعزيمةَ تُحدَّان كما تُحدُّ السكّين.

ومن ذلك ما تراه في استعمال «القراءة» وتصريفاتها، فللقراءة في استعمال المحدثين دلالة ناميةٌ مكتسبة بالمجاز لم ينصَّ عليها علماء العربية، وهي الدلالة على الوصف أو التفسير أو التحليل أو الاستنتاج أو البحث. وكلُّ ذلك من عقابيل المعنى المعروف للقراءة وتجلّياتها، فقراءة الكتاب تعني تتبُّعَ كلماته نظراً نطَقَ بها أم لم ينطق، وقراءة القرآن تعني النُّطْقَ بألفاظه عن نظر أو عن حفظ.

ومن أمثلة تخصيص الدلالة استعمال العروس للمرأة وقت عُرْسها، وتوليد كلمة «العريس» للدلالة على الرجل يوم عُرْسه، و«العروس» في العربيّة تُستعمَل للرجل والمرأة، ولا تختصّ بالمرأة.

ومنه أيضاً تخصيص «الدواجن» في زماننا بالدّجاج والطيور التي تربّى في البيوت والحقول. والدواجن في العربيّة: كلّ ما أَلِف البيتَ ولَزِمه من الشاء والإبل والحمام.

ومن أمثلة التخصيص المشهورة في العربية المعاصرة استعمال

(١٣) انظر: العربية تاريخ وتطوّر، د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المعارف – بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص١٥١.

«البُرهة» بمعنى المدّة القصيرة، خلافاً للغالب المشهور.

قال الكفويّ [١٤]: «البُرْهة: بالفتح والضمّ: الزمان الطويل، أو أعمّ. وأكثرُ استعمالها في الزمن الطويل».

ومن أمثلة انحطاط الدلالة في العربيّة المعاصرة استعمالُ كلمة «شرذمة» مصطبغةً بشيء من نبز وتنقّص. ومنها بنى المعاصرون «التشرذم» للدلالة على التفرّق والانقسام[١٥]. والدلالة المعجمية لهذه الكلمة دلالة محايدة، فالشِّرذِمةُ: القليلُ من الناس، أو الجماعة القليلةُ منهم.

وربّما كانت دلالةُ الاحتقار والتنقّص قديمةً لم تُدوَّن في المعاجم. يدعوني إلى مثل هذا القول قولُ ابن عطيّة في تفسيره[١٦]: «الشِّرذمةُ:الجمع القليلُ المحتَقَر. وشِرذمةُ كلّ شيء: بقيّته الخسيسة».

ولك أن تعرف أنّ في استعمال المعاصرين لكلمة «المؤامرة» وما دار في فلكها من تصريفاتٍ انحطاطَ دلالة؛ لأنّ دلالتها الثابتة في المعاجم هي المشاورة، ففي اقترانها في عبارة المعاصرين بمعنى الشرّ والكيد هبوطٌ من المحلّ الأرفع.

ومن أمثلة التطوّر الدلاليّ الدالّة على انحطاط الدلالة في العربيّة المعاصرة غلبةُ اقتران كلمة «بؤرة» بالفساد وما له به صلة، وكلمة «مباءة» بالانحلال والرذيلة، وهما - أعني البؤرة والمباءة - الكلمتان اللتان كانتا

(١٤) الكليّات، أبو البقاء الكفويّ، تح د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢، ١٩٩٨، ص ٢٤٩.

(١٥) انظر: لغويات محدثة في العربية المعاصرة، د. محمد محمد داود، دار غريب- القاهرة،٢٠٠٦، ص ١٢٣.

(١٦) المحرّر الوجيز، ابن عطيّة الأندلسي، تح عبد السلام عبد الشافي محمّد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠١، ٤/ ٢٣٢.

تستعملان في العربية القديمة في مواطن الخير والصلاح، فقالوا: بؤرة أو مباءة للعلم[١٧]. والبُؤرة: الحفرة والذخيرة، والمباءة: المنزل، يقال: فلان طيّب المباءة، ويقال: هو رحيب المباءة، أي سخيٌّ واسع المعروف.

ومن هذا القبيل أيضاً استعمالُ كلمة «عِصابة» للدلالة على الجماعة تنهض بأفاعيل سوء وشرّ، واستعمالُ كلمة «الاستعمار» وتصريفاتها للتعبير عن احتلال البلاد وهَضْم الحقوق واستعباد الشعوب، مفرَغَةً من دلالة الإعمار والبناء.

ومن أمثلة سُموّ الدلالة والارتقاء بها في العربيّة المعاصرة استعمالُ كلمة «الامتياز» للدلالة على أعلى رُتَب الجودة والحسن، وقد كانت تعني بدلالتها المعجميّة مجرّد الفصل بين شيئين وعزلَ أحدهما عن الآخر[١٨].

ومن ذلك إفادةُ المعاصرين من دلالة كلمة «الحَفْز» على الحثّ والإعجال، والارتقاء بها في كلمة «الحوافز» للدلالة بها في مقام التشجيع على هبات عينيّة أو ماديّة توهب للعاملين والموظّفين للتشجيع على زيادة الإنتاج[١٩].

ومن صور التطوّر الدلاليّ تضاؤلُ أثر ظاهرة الأضداد اللغوية في استعمال المعاصرين تضاؤلاً يضاهي الانقراض، وهجرُ الكثير من المشترك اللغويّ[٢٠].

---

(١٧) معجميات، د. إبراهيم السامرائي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٢٨، ٣٤.

(١٨) التغيّر الدلاليّ في معجم الصواب اللغويّ لأحمد مختار عمر، دو ميلود، رسالة ماجستير، جامعة وهران١ – أحمد بن بلّة، كليّة الآداب والفنون، ٢٠١٦، ص ١٣١.

(١٩) انظر: العربية تاريخ وتطور، د. إبراهيم السامرائيّ، ص ١٠٨.

(٢٠) انظر: خصائص في العربية وإيذانها بالزوال من لغتنا المعاصرة، د. فاروق مواسي، مجلة جامعة، ع ١٢، ص ١٦٩–١٧٠.

*** التطوّر التركيبيّ:**

للتطوّر اللغويّ في بنية الجمل والتراكيب في العربية المعاصرة حضورٌ لا يخفى على متأمّل. وبعض مظاهر هذا التطوّر تعبّر عن تطوّر خارجيّ كان بأثر من اللغات الأخرى.

– فمن مظاهر التطوّر اللغوي التركيبيّ في العربيّة المعاصرة تصدُّر المفعول لأجله الجملةَ. فأنت اليوم تسمع وتقرأ، وقد تقول: **تلبيةً** لدعوة فلان قام بزيارته؛ ورغبةً في تعزيز العلاقات قام بزيارة السودان،.....

وهذا من الشائع المعروف الجائز الذي لا نجد في قواعد العربيّة ونصوص العلماء نصّاً عليه أو إشارة إليه، كما لا نجد في كلام القدماء فيما انتهى إلينا ما يدلّ على استعمالهم له. وقد رأى بعض الباحثين دون حرج أو تردّد أنّ هذا الأسلوب من قبيل التأثّر بالأساليب الأجنبية المترجمة، وأنّه «يسير على نمط الجملة الإنجليزية التي تبدأ بـ (gerund)»[٢١].

ومن صور التطوّر اللغويّ في المستوى التركيبيّ في العربيّة المعاصرة كثرةُ تقدّم الجارّ والمجرور في الجملة وعودة الضمير من شبه الجملة على متأخِّر، فمن هذا الشائع الكثير قولُهم: **من جانبها** قالت وزيرةُ الشؤون الاجتماعية...، وقولُهم: **عن ارتفاع أجره** قال الممثّل.....

وهذا ممّا عاد فيه الضمير في شبه الجملة على متأخّر لفظاً متقدّم رتبةً، وهو جائز. بيد أنّ شواهد هذه الصورة في كلام العرب قليلة. ومن ذلك هذه الأمثال العربيّة القديمة: **على أهلها** جَنَتْ بَراقِشُ. **في بيته** يُؤتى الحَكَمُ. **مِن مأمَنِه** يُؤتى الحَذِرُ[٢٢].

(٢١) العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثيّة ، د. عباس السوسوة، دار غريب – القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٤١–١٤٢.

(٢٢) المصدر السابق ، ص ١٥٢–١٥٤.

ومن صور التطوّر التركيبيّ الظاهرة العُزوفُ عن المفعول المطلق، والاستغناءُ عنه بشبه جملة من جارّ ومجرور يكون فيه المجرور موصوفاً بوصف مناسب، فيقولون: تكلّم **بشكلٍ جيّد**، أو **بصورة جيّدة**، أو كتب مقالته **بشكلٍ سطحيٍّ**. ولو أخذوا أنفسهم بالغالب في كلام العرب لاستغنوا عن شبه الجملة، ولاستعملوا المفعول المطلقَ، فقالوا: تكلّم كلاماً جيداً أو حسناً، أو كتب مقالته كتابة سطحيّة.

وبعض صور التطوّر دالّة على أثر اللغات الأجنبيّة والترجمة الحرفيّة عن تلك اللغات، أو على شيء من أثر العامّيات العربيّة المعاصرة، وهو يسير. فانصراف العربيّة المعاصرة شيئاً فشيئاً عن صيغة المبنيِّ للمجهول إلى أفعال المطاوعة، من كُسِرَ مثلاً إلى انكسر، ومن هُزِم إلى انهزم، فيه عندي شيءٌ من أثر العامّيات المعاصرة؛ والاستغناءُ عن الفعل المبنيِّ للمجهول بالفعل «تمّ» يُسنَد إليه المصدر، نحو: تمّ الحفظ، المستغنى به عن «حُفِظَ»، وتمّت الكتابة، في مقام «كُتِب» = من أثر الترجمة الحرفيّة عن اللغات الأجنبيّة[٢٣].

ومن الصور التركيبيّة التي يلحظها المتأمّل في العربيّة المعاصرة، ولا يرى لها أثراً في استعمال القدماء، ذلك التركيبُ الذي تتقدّم فيه الجملةُ الاسميّة الحاليّة المقترنة بالواو والمصدّرة بالضمير، على صاحب الحال والعامل فيها، نحو: «**وهي في المطبخ**، جاءها صوت بكائه، ليس كالبكاء،..». وهو ما قد نصّ بعضُ الباحثين على أنّه من الأنماط التركيبيّة

(٢٣) كنت أظنّ هذا الوجه من الاستعمال كما يظنّ بعض الباحثين ثمرةً من ثمرات الترجمة الحرفيّة؛ ثمّ بدا لي أنّ له أصلاً موروثاً من زمن سابق ينتهي بنا إلى القرن الخامس أو السادس. على أنّ من سمت المحدثين في ذلك الإكثارَ منه.

الشائعة التي استحدثَتْها العربيّةُ المعاصرة[٢٤].

وهذا النمط كما يدلّ البحثُ ممّا أجازه الكسائيّ والفرّاء وهشام، أجازوا: وأنت راكبٌ تحسُن، وأنت راكبٌ حسُنت، تريد: تحسُن، وأنت راكبٌ؛ وحسُنت، وأنت راكبٌ[٢٥].

ولا يبعد عندي أن يكون استعمال المعاصرين هذا من أثر بعض العامّيات المعاصرة، فإنّ ذلك معروف فيها، ومن أقوالهم: «**وأنا راجع، صادفته، وهو راكض** بالطريق، تعثّر».

- وترى في لغة الكتاب والمتكلّمين في العربيّة المعاصرة ميلاً إلى الاستعانة بالوسائط في التعبير عن مرادهم، دون حاجة. ومن تلك الوسائط الأفعال المساعدة وتصريفاتها، فيقولون: مارس التعليم، ويمارس التمثيل، وقام بسؤاله، وتقدّم بالتهنئة، ويتوجّه بالتحيّة،.... إلخ. ولو تمكّنت منَ القائل روح الإيجاز العربيّةُ لقال: علَّمَ، ويمثِّل، وسألَه، وهنَّأه، وحيَّاه.

وربّما كان في تراثنا العربي شيءٌ من بعض ذلك يسير، لكنّ الظاهر في العربيّة المعاصرة كثرةُ ذلك كثرةً ربما كان وراءها مضاهاةُ ما تجري عليه بعض اللغات الأجنبيّة، مع الرغبة في دلالة التفخيم التي تبدو للمعاصرين في التمهيد للشيء بما هو فضلة أو تُكأة. وفي ذلك ما يدعو المرءَ إلى القول بضعف الإحساس ببلاغة الإيجاز والاختصار وبيانه في زمن كانت الفضفضةُ فيه في المظهر والشكل والحيازة، بمنأى عن التقشُّف والاقتصاد، ظاهرةً طاغية.

---

(٢٤) خصائص العربية المعاصرة ، د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة اللسان العربي، ع ٤٥ ، ١٩٩٨، ص ١٦٠.

(٢٥) انظر: التذييل والتكميل، أبو حيان الأندلسي، تح د. حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا - الرياض، ط١، ٢٠١٠، ٩/ ٩٣.

وهذا ممّا يدلّ على فقدان كثير من متكلّمي العربيّة في هذا العصر الحسَّ اللغويَّ أو تلك الملكةَ الدقيقة التي تجنّبهم وضع اللفظ في غير موضعه، وتصون كلامهم من الحشو والفضول، وترتفع به عن الهذر والتطويل. وهذا ممّا جرّ على العربيّة المعاصرة ظاهرتين خطيرتين: إحداهما انعدام الإيجاز، والأخرى انعدام الدقّة(٢٦).

ولا يحسن بالباحث في هذا المقام أن يغفُل عن ذلك النمط من التراكيب التي ولّدها المعاصرون، أو ترجموها من اللغات الغربيّة، وعلا أكثرها مَسحةٌ من مجاز، فكانت أساليبَ محفوظةً تُستعمَل كالأمثال، نحو: يبكي بكاءً مرّاً، ودموع التماسيح، والعين المجرّدة، وذرّ الرمادَ في العيون، ويصطاد في الماء العكر، وجرح شُعورَه، ويسمّم الرأيَ العامّ، وعاصفة من التصفيق، والجنس اللطيف، ورَجُل الساعة، وفي خندق واحد، والخلايا النائمة، والمجتمع المُخمليّ، والأقلام الصفراء، والكتب الصفراء، والصحافة الصفراء، وزوبعة في فِنجان، والجيل الصاعد، والقطط السِّمان،....

ولا شكّ في أنّ أكثر هذه الأمثلة، ومثلُها كثيرٌ، وليدُ الترجمة، وأنّ العربيّة بسماحتها ولينها وطواعيتها استوعبتها، ولم تتنكّر لها، فقبلها الاستعمالُ وراضها، حتى إنّه ليتوهّم القارئ، وهو يقرأ ذلك، أنّه عربيٌّ لم يعتوره دخيل(٢٧).

---

(٢٦) العربيّة المعاصرة والحسّ اللغويّ، د. نعمة رحيم العزاوي، مجلة الذخائر – بيروت، ع٤، ٢٠٠٠، ص٨.

(٢٧) انظر: معجم ودراسة في العربيّة المعاصرة، د. إبراهيم السامرائي، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١–١٢، والمفيد، د. محمد رضوان الداية، الهيئة العامة للكتاب – دمشق، ٢٠١٥، ص ١٧، ٦٥، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٦١، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤٢، ٣١٩، ٣٤٧.

هذه إطلالةٌ عامّةٌ على ما كان في العربيّة المعاصرة من تطوّر في مستوياتها جميعاً، ألمّت بشيء من مظاهره وصوره. ثمّ إذا كان لي أن أُبيِّن بعضَ ما أملاه عليّ النظرُ في هذا التطوّر ومظاهره قلتُ:

١ – التطوّر سنّةٌ من سنن اللغة، ومنها العربيّة، وهو فيها على اختلاف مراحلها، ومنها المرحلةُ المعاصرة، حتميّ وطبيعيّ. وهو مظهرٌ من مظاهر تطوّر مستعمليها. وذلك التغيير في كثير من جوانبه يجعل العربيّة المعاصرة قادرة على الوفاء بمطالب التعبير عن ثقافة العصر وعلومه وحركة المجتمع، ويشهد لها بمرونة واضحة وتوسّع محمود وانفتاح على العالم.

٢ – إذا كان لك أن تقدّر في كثير ممّا ابتدعه المعاصرون وجرى على أقلامهم وألسنتهم، وحرّكتْه أفكارهم وتقديراتهم من صور التطوّر اللغويّ = حاجةً وغايةً وسعياً صحيحاً واجتهاداً، فإنّ بعض ذلك لا يتعدّى أن يكون ضرباً من تَرَف القول وباذخه، يُضرَب له سُرادقُ من تجريب، وفي التجريب أحياناً يُعشِب اللهو والعبث. فما تقول فيما ولّدَتْه قريحةُ بعض الكتّاب من نحو: يتألهنُ الإنسان، ويُلفظن الفكرَ، ويُفكرن اللفظَ، من مولّدات كانت كما وصفها د. إبراهيم السامرّائي[٢٨] جزءاً من «لغة هزيلة تتعثّر في تَيهاءَ مُضِلَّة بين المولّد الجديد التافه وبين المصطلح العلميّ الفنّي الذي لا يقوم على أساس»؟!.

٣– لا شكّ في أنّ الخطأ الظاهر الصُّراح لا وجه لتزيينه، وليس لنا أن نصنّفه في حظيرة التطوّر. فأيّ تغيير يمكن أن يهدم التصوّرَ الإعرابيَّ الثابت للغة العربيّة، فيفضي مثلاً إلى جرّ المنصوب ورفع المجرور ونصب المرفوع، ليس من التطوّر المعتبَر في شيء. وتأنيثُ ما لا وجهَ لتأنيثه من أسماءٍ إلّا

(٢٨) دراسات في اللغة ، د. إبراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص١٧٧.

التوهّمُ والقياس الخاطئ من هذا القبيل. فلا ينبغي أن يُقبَل لهذا تأنيثُ كلمة «مستشفى» وكلمة «رأس»، وهما المذكّرتان؛ ولا ينبغي تذكيرُ كلمة «بئر»، وهي المؤنّثة. وليس من السائغ تأنيثُ كلمة «درب» في نحو قولهم: «درب طويلة»؛ وهي المذكّرة؛ سواء أكان مصدرُ تأنيثها في العربية المعاصرة قياساً على ما كان التأنيث فيه جائزاً من مرادفاتها نحو: طريق وسبيل وصراط وسكة وزقاق، أم كان تأثّراً بجنس الكلمة في بعض اللغات الغربيّة. ومنعُ صرف ما كان من الجموع على وزن «أفعال» نحو: أنحاء وأسماء وأبناء وأنهار وأسباب.... ضربٌ من الخطأ الذي قاد إليه التوهّم والقياس الخاطئ على كلمة «أشياء» لا يجوز أن نسِمَه بالتطوّر، وأن نتسمّحَ فيه.

٤- ومن هنا لك أن تقول: إنّ التطوّر المعتبَر هو التطوّر الذي يتحرّك بين حدّيِ النظام والحرّيّة. على أنّه ليس من الحكمة أن تستغلّ غيابَ الشيء عن مدوَّنة العربيّة القديمة، وسكوتَ القاعدة عنه، وتتخذَهما سيفاً مُصْلَتاً تمنع به كلَّ جديد وتنكرُه. وليس من العدل أن تتدثَّرَ بالحريّة لتزيّنَ للناس ممارساتٍ لغويّةً عشوائيّةً تُغرقنا في بحر من الفوضى.

٥- من واجب الخبراء اللغويّين والمؤسسات اللغويّة، ومنها المجامع، ضبطُ التطوّر اللغويّ المعاصر وتصحيحُ ما انحرف من مساراته، ولا سيّما ما كان منه تطوّراً عفويّاً. ومن مقتضيات ذلك النظرُ في مدوّنة اللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة ورصدُ مظاهر التطوّر فيها، ودرسُها وغربلتها في إطارٍ علميٍّ محكمٍ معتدلٍ بعيد عن التشدّد والتنطُّع مصونٍ من الترخُّص إلى حدّ التسيُّب والتفلُّت، للانتهاء إلى تشريعات وأحكام لغويّة مناسبة وتوجيهات سائغة.

٦- اللغة العربيّة بروحها وأصولها وواقعها المتحقّق والممكن، أيِ: الموجود بالفعل والموجود بالقوّة، تدلّنا على إمكانياتها التي لا تُحدّ،

والاستعمالُ اللغويّ المعيش يفرض علينا شروطَه. ومن ثمّ كان على رؤيتنا أن تواكب حركةَ اللغة والمجتمع والحياة، وأن نتخفَّف من أغلال المعياريّة التي لم تُنتِجْها اللغةُ نفسُها، بل أنتجها فكرٌ مقيّد بزمن معيّن، واختلف الناسُ في فهمها. والتغيير الذي لا ينقض شيئاً من ثوابت العربيّة وقواعدها في مستوياتها كافّة ينبغي أن نستوعبه ونُفيدَ منه في تشريعاتنا وتنمية لغتنا وسدّ ما نحتاج إليه في التعبير عن المستجدّات.

٧- ومن هنا ينبغي أن تكون نظرتنا إلى التطوّر اللغويّ المعتبَر في لغتنا العربيّة نظرةً علميّة عارية من مشاعر الارتياب والتوجّس، ومن أفكار الخطأ واللحن والخروج على اللغة وانتهاك قواعدها، تلك الأفكار والمشاعر التي ما زالت تستبدّ بفكر كثير من الباحثين والعلماء ورؤاهم، وتستنفِرهم لرفض عشراتِ، بل مئاتِ الألفاظ والمصطلحات والتراكيب التي ولّدها التطوّرُ القَصْديُّ أو العَفْويّ لسدّ الحاجة والنقص في التعبير عن مستجدّات الحياة ومتغيّرات الزمن. فالتطوّر ينبغي الاعترافُ والاعتداد به وتهذيبُ ما بدا فيه من شوائبَ. ومن كان على خلاف ذلك كان فيه ما يحتاج إلى صِيانة.

٨- فُسحةُ الجواز أو الممكِن والمُباح في اللغة العربيّة عند التحقيق أوسعُ من تلك المِساحة التي تُحصَر بين تقليد المسموع والقياس عليه. فكلُّ ما لم يعارض أصولَ العربيّة، ولم ينتهك قواعدَها وثوابتَها جائزٌ مُباح، وإن كان مترجماً. والترجمةُ الحرفيّة عن اللغات الأجنبيّة في ذاتها ليست سبباً داعياً لمنع أو تخطئة العبارة التي تُرجمت، ما خَلَتْ من الخطأ أو ممّا لا يصحّ في العربيّة، وإن كان المناسبَ أو أنسبَ ما يكون أن تُراعَى المعادلاتُ الصوتيّةُ والصرفيّة والتركيبيّة والأسلوبية للغة العربيّة التي يُترجَم إليها من اللغات الأخرى.

* * *

أنباءٌ مجمعيةٌ وثقافية

نعي فاضل

ينعى مجمع اللغة العربية بدمشق

الأستاذ الدكتور

الطيب التيزيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ

العضو العامل في المجمع

ويعد رحيله خسارة كبيرة لما كان يتحلّى به المرحوم من ثقافة فلسفية، ورؤى استشرافية، جامعاً بين الأصالة والمعاصرة، هادفاً إلى النهوض بأمته، باعتماد المنهج العلمي في معالجة قضاياها. رحم الله الفقيد، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله وذويه ومحبيه الصبر والسلوان.

وإنّا لله وإنا إليه راجعون

مجمع اللغة العربية بدمشق

من قرارات مجلس المجمع
في الألفاظ والأساليب(*)

(١٩٣)
الراحة والأريحيَّة

١- المسألة:

يشيع في كلام المعاصرين كلمة (الأريحية) كثيراً، كقولهم: (نستطيع الآن أن نتكلم بأريحية)، (أجبنا عن أسئلة الامتحان بأريحية تامة)، (تجوَّلنا في المدينة بكل أريحية). وهم يعنون بها في مثل هذه العبارات: (الراحة أو الحرية)، وهو استعمال خاطئ بهذه الدلالة، ولا مسوغ له.

٢- الاقتراح:

عدم جواز استعمال كلمة (أريحية) بمعنى الراحة، ولا بمعنى الحرية.

٣- التعليل:

جاء في لسان العرب (ريح)، ومثله في تاج العروس: «الأَرْيَحيُّ: المهتز للندى والمعروف، واسع الخُلُق، والاسم الأريحية والتريُّح..يقال: أخذتْه الأريحية: إذا ارتاح للندى.. وأخذته لذلك أريحية: أي خفَّة وهَشَّة... والأريحية: الارتياح للندى والنشاط إلى المعروف».

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع. (يرجى ممَّن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

وهكذا يتبين أن (الأريحية) صفة خُلُقيَّة نفسية حميدة تعني النزوع إلى الكرم والعطاء والارتياح إلى ذلك، وأنه لا صلة دلالية مباشرة لها بكلٍّ من كلمتي (الراحة أو الحرية)، إذ الراحة هي وجدان الفَرجة بعد الكربة، وهي ضدُّ التعب، وقد تكون الراحة بمعنى الأريحية كما في قولهم: «راح فلانٌ للمعروف رَواحاً وراحاً وراحةً وأريحية ورِياحة: هشَّ له وفرح به»، ولكن الراحة هنا هي بمعنى الأريحية الأصلي، وهو الفرح والارتياح للندى، وليس بمعنى الفرجة بعد الكربة، أو بمعنى ضد التعب.

أما (الحرية) فهي كون الإنسان حُراً ليس بمملوك، وهي الخلوص من الشوائب أو الرق أو اللؤم، ولا صلة لها بدلالة (الأريحية).

ولعل منشأ الخطأ أن بعضهم اجتزأ عبارة اللسان: «والأريحية: الارتياح للندى والنشاط إلى المعروف»، فأخذ الكلمة الأولى في الشرح، وهي (الارتياح) مقطوعة عن متممات دلالتها، فجاءت عنده ابتساراً بمعنى الراحة.

وبناء على ما تقدَّم الصواب أن يقال مثلاً:

- (تصرَّف معنا المدير بأريحية): أي بكرم وحب للمعروف.
- (تجوَّلنا في المدينة بحرية): أي بلا قيود أو موانع.
- (نستطيع أن نتكلم الآن بحرية أو راحة): بعد أن ذهب من نخافه.
- (أجبنا عن أسئلة الامتحان براحة تامة): دون تعب.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة(*):

(*) كان رأي اللجنة الذي تابعها عليه مجلس المجمع عدم جواز استعمال كلمة (أريحية) بمعنى الراحة، أو بمعنى الحرية. ثم اعترض د. عبد الناصر عسّاف على ذلك بمداخلة مكتوبة نُشِرت في مجلة المجمع (المجلد ٩٠ - الجزء ١-٢٠١٧)، نظرت إليها اللجنة بنصفة، واستجابت لما ورد فيها، فعدلت عمّا قرّرته قبلاً، ورأت جواز استعمال كلمة (أريحية) بمعنى الراحة والحرية، وعليه وافق مجلس المجمع. = [المجلة].

عدم جواز استعمال كلمة (أريحية) بمعنى الراحة ولا بمعنى الحرية.

٥- قرار المجلس: الموافقة.

* * *

(١٩٤)
مُسْوَدَّة ومُسَوَّدة

١- المسألة:

يخطئ بعضهم كلمة (مُسْوَدَّة) بإسكان السين وفتح الواو، ويرى أن الصواب هو مُسَوَّدة.

٢- الاقتراح:

صحة قولهم: (مسْوَدَّة) و(مُسَوَّدة)، والفرق بينهما في اختلاف الفاعل.

٣- التعليل:

يقال: (سَوَّدتُ الورقةَ فهي مُسَوَّدة)، و(حمَّرتُ الدجاجة فتحَمَّرت)، و(حمَّصتُ الخبزَ فتحَمَّصَ)، و(اسْوَدَّتِ الورقةُ فهي مُسْوَدَّة)، و(اخضرَّت أوراق الأشجار فهي مُخضَرَّة). قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

وفي اللسان: «سَوَّدَهُ: جعلَه أسود». (من الاسوداد).

فاسوَدَّت الورقةُ فهي مُسْوَدَّة، وسوَّدها الكاتبُ فهي مُسَوَّدة، وكلتا الكلمتين صحيحة، والفرق بينهما في اختلاف المسند إليه.

العضو: د. مازن المبارك

٤- قرار اللجنة:

صحة قولهم: (مُسْوَدَّة) و(مُسَوَّدة)، والفرق بينهما في اختلاف الفاعل، واللزوم والتعدِّي.

٥- قرار المجلس: الموافقة.

* * *

(١٩٥)
الشرق الأوسط والشرق أوسطيّ والشرق أوسطية

١- المسألة:

يشيع في التعابير السياسية في العصر الحديث تراكيب من مثل: (الشرق الأوسط، وشرقٌ أوسطُ، والشرقُ أوسط، والشرق أوسطيّ، والشرق أوسطيّة)، ويَتساءل كثير عن الضبط الإعرابي لكل من هذه التراكيب.

ولمعرفة ضبطها لا بد من تحليل هذه التراكيب المستعملة وأمثالها، كلٍّ على حدة.

١- (الشرق الأوسطُ وشرقٌ أوسطُ): هذا تركيب وصفي لا خلاف في ضبطه، مع مراعاة أن (أوسط) منكَّرةً ممنوعةٌ من الصرف، فيقال: (زار الوفد الشرقَ الأوسطَ، ويتطلع الساسة إلى شرقٍ أوسطَ جديدٍ)، إذ يعرب الموصوف بحسب موقعه من الجملة، والنعت تابع له يعرب بعلامة مناسبة.

٢- (شرقُ أوسطَ): وهو تركيب إضافي يعرب المضاف بحسب موقعه من الجملة، وما بعده مضاف إليه مجرور بعلامة مناسبة، فيقال:

(يسعى بعضهم إلى شرقِ أوسطَ جديد، ويبنون شرقَ أوسطَ جديداً).

٣- (الشرقُ أوسطُ والشرقُ أوسطيّ والشرق أوسطيّة): وهذه تراكيب مزجية، كأن يقال: (غيَّرت أوروبا سياستها الشرق أوسطية، وهذا الشرق أوسط الجديد).

نقول: هذه التراكيب مزجية؛ لأنه لا يمكن أن تكون تراكيب وصفية لعدم التطابق بين جزأي التركيب، ولا تراكيب إضافية لأن المعرَّف لا يضاف إلى نكرة.

وإذا ثبت - وهو ثابت عندنا - أن هذه الكلمات وأمثالها تراكيب مزجية، فالواجب أن تطبق على ضبطها أحكام التركيب المزجي في العربية الذي حدَّهُ (النحو الوافي) (٤/ ٢٢٩) بقوله: «والمراد بالتركيب المزجي كل كلمتين امتزجتا أي اختلطتا بأن اتصلت ثانيتُهما بنهاية الأولى حتى صارتا كالكلمة الواحدة». أما ضبطه الإعرابي فقد جاء معظمه في مباحث الممنوع من الصرف للعلمية والتركيب المزجي، ومعلوم أن لنا في التركيب المزجي خيارين:

الأول: بناء الجزء الأول على الفتح، إذا كان آخر الجزء الأول حرفاً صحيحاً، وبناؤه على السكون إذا كان آخر الجزء الأول حرفَ علَّة، وإعراب الجزء الثاني بحسب موقع المركب المزجي كاملاً من الجملة(*).

الثاني: أن يُعرب الجزء الأول مضافاً بحسب موقعه من الجملة، ويعرب الجزء الثاني مجروراً بالإضافة.

ولمّا امتنع الخيار الثاني؛ لأنه يمتنع كون التركيب المذكور إضافيّاً، إذ لا يضاف المعرَّف بأل إلى المجرد منها، لم يبقَ إلا الحالة الأولى، وهي أن هذا التركيبُ مزجيٌّ يعرب كاملاً بعلامة مناسبة على آخر جزئه الثاني بحسب موقعه من الجملة، أما الجزء الأول فيبنى على الفتح، فيقال مثلاً:

(*) شرح المفصل للزمخشري ١/ ٦٦.

(نجحتْ سياستُنا الشرقَ أوسطيةٌ، وعارض العدوُّ سياستَنا الشرقَ أوسطيةً، ووافق صديقنا على سياستِنا الشرقَ أوسطيةٍ).

ويعضد ما توصلنا إليه أن كلمة (الدار قُطْنيّ) هي تركيب مزجي في النسبة إلى (دار قطن)، وقد ضبطه الزبيدي في (تاج العروس) على ما ذكرنا من القاعدة، إذ جاء فيه:

- «هو عندي من تخريج الدارَقُطنيِّ» (فأل)
- «ذكره الدارَقُطنيُّ» (قرضم)
- «قال الدارَقُطنيُّ» (دخم)
- «من شيوخ الدارَقُطنيِّ» (سكف)

ويُلحظ أنه بنى الجزء الأول على الفتح وأعرب الجزء الثاني بحسب موقع التركيب من الجملة جراً بالإضافة ورفعاً بالفاعلية.

وإلى مثله ذهب الذهبي في (سير أعلام النبلاء) (٢٠/ ٩٤)، قال: «أخبرَنا المقرئ المجوِّد محمد بن جوهر التَّلَّعْفَريُّ».

ولكن قد يحس بعضنا شيئاً من الثقل عندما لا يتطابق آخر كل من الجزأين مع الآخر، فإذا خفَّ على الأذن نحو: (عارض سياستَنا الشرقَ أوسطيةً) فليس الأمر كذلك في نحو: (نجحتْ سياستُنا الشرقَ أوسطيةٌ، ووافقنا على سياستِنا الشرقَ أوسطيةٍ)، لذا نرى أن تُعرب مثل هذه التراكيب المزجية من مكانين، فيُحرَّك الجزء الأخير بحسب موقع التركيب كاملاً من الإعراب في الجملة، ويُتبع به آخر الجزء الأول، فيقال مثلاً: (نجحتْ سياستُنا الشرقُ أوسطيةُ، وعارض العدوُّ سياستَنا الشرقَ أوسطيةَ، ووافق الصديق على سياستِنا الشرقِ أوسطيةِ).

والذي نرى(*) أنه يجوز في ضبط كلمة (الشرق أوسط والشرق أوسطي والشرق أوسطية) وأمثالها من المركبات المزجية وجهان:

الأول: بناء الجزء الأول منها على الفتح وإعراب الجزء الثاني بحسب موقع التركيب المزجي من الإعراب في الجملة عملاً بأحكام إعراب المركب المزجي، فيقال: (نجحتْ سياستُنا الشرقَ أوسطيةٌ، وعارض سياستَنا الشرقَ أوسطيةً، ووافقنا على سياستِنا الشرقَ أوسطيةٍ).

الثاني: إتباع حركة الجزء الأول من التركيب حركة الجزء الثاني الذي يعرب بحسب موقع التركيب المزجي من الإعراب في الجملة، فيقال: (نجحتْ سياستُنا الشرقُ أوسطيةُ، وعارض سياستَنا الشرقَ أوسطيةَ، ووافقنا على سياستِنا الشرقِ أوسطيةِ) استصحاباً لمقولة الإعراب من مكانين، أولظاهرة الإتباع اللفظي في العربية.

٤- قرار اللجنة:

إتباع حركة الجزء الأول من التركيب حركةَ الجزء الثاني الذي يعرب بحسب موقع التركيب المزجي من الإعراب في الجملة، فيقال: (نجحتْ سياستُنا الشرقُ أوسطيةُ، وعارضَ سياستَنا الشرقَ أوسطيةَ، ووافقَنا على سياستِنا الشرقِ أوسطيةِ) وذلك استصحاباً لمقولة الإعراب من مكانين أو لظاهرة الإتباع اللفظي في العربية.

٥- قرار المجلس: الموافقة.

* * *

(*) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي ١/ ٣١٣، وشرح المفصل ١/ ٥٢، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ١/ ٢٣٢.

(١٩٦)
طالَ الشيءَ ويطولُه
بمعنى أدركه ووصل إليه

١- المسألة:

يشيع بين الكتَّاب والمتكلمين المعاصرين استعمال الفعل (طالَ يَطال) بمعنى: أدركه أو وصل إليه في مثل قولهم: (طالَ الفقرُ كثيراً من المواطنين) و(يطال الغزوُ الثقافي اللغاتِ القومية) و(الأثرياء يطالون كلَّ ما يريدون).

وفي أمثال هذه العبارات إشكالان:

الأول: استعمال الفعل (طالَ) بمعنى أدرك الشيءَ وامتدَّ إليه أو وصل إليه.

الثاني: بناء مضارع الفعل (طالَ) على (يَفْعَل) في قولهم: (يَطال)، وما ورد في مضارعه هو يَطُول على بناء (يَفْعُل).

٢- الاقتراح:

١- جواز استعمال الفعل (طالَ) بمعنى: أدرك ولحقَ كما في قولهم: (طال الخيرُ معظمَ المواطنين)، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

٢- عدم جواز بناء مضارع (طالَ) على (يَفْعَل) بأن يقال: (يَطال)، والصواب (يَطُول) على بناء (يَفْعُل)، فيقال: (يطول الخيرُ معظمَ المواطنين).

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «طالَ يطول طُولاً، فهو طويل وطُوال. قال النحويون: أصل (طالَ) فَعُلَ. وفي باب المغالبة: طاولَني فطُلته من الطَّول والطُّول جميعاً.. طالَ الشيء طُولاً وأَطَلتُه إطالة.. وكل ما امتد من زمن أو هَم فقد طال، كقولك: طال الليلُ وطال الهمُّ».

- تاج العروس: «طالَ يطُول طُولاً بالضم: أي امتدَّ. وقال النحويون: أصل طال طَوُل ككَرُمَ، قال ابن جني في (المنصف): «هذا من الطول ضد القِصَر إذا كان لازماً غير متعدٍّ، أما طالَه متعدياً فهو (فَعَل)، ولا يكون (فَعُلَ)؛ لأن (فَعُلَ) لا يتعدى». وقال الكسائي في باب المغالبة: «طاولني فطُلتُه: كنت أطول منه في الطُّول والطَّول جميعاً، قال:

إن الفرزدق صخرة عادية طالت - فليس تنالُها- الأوعالا

أي طالت الأوعالَ [بمعنى غلبَتهم في الطَّول]».

- الوسيط: « طال: علا وارتفع. وطال عليه: أفضلَ وأنعمَ، وطالَ فلاناً: غلبَه في الطُّول والطَّول».

ب- في الدلالة:

يلحظ أنه ليس في المعاجم ما ينص صراحة على أن (طالَ) يأتي متعدياً بمعنى: أدرك الشيء أو بلغَه أو وصل إليه، وهو المعنى المراد في قول المعاصرين: (طال الفقرُ كثيراً من المواطنين) أو (طالتِ المكافأةُ معظمَ العاملين).

ولكن في هذه المعاجم ما يمكن أن يفضي إلى هذه الدلالة، وهو قولهم: (كل ما امتدَّ فقد طال) كقولك: (طال الليل وطال الهمُّ)، فـ (طالَ) إذن تعني الامتداد في الشيء ومنه وإليه وبه، وتتنوع دلالته بحسب الحرف الذي يعدَّى به، فقولهم: (امتد إليه الخير) يعني: انبسط حتى وصل إليه وأدركه، إذ إن من معاني (إلى) الغاية والنهاية، وهذا ما يفهم من العبارات الآتية:

- قول العماد الأصبهاني (٥٩٧هـ) في (خريدة القصر وجريدة العصر) (١/ ١٧٠): «لقد امتدَّ إليه سبب نكيري واحتدَّ عليه لهب ضميري».
- وقول عبد العزيز بن أحمد البخاري (٧٢٠هـ) في كتابه (كشف الأسرار)

(٤/ ٩٤): «لأن السهم لمَّا امتدَّ إليه واتصل به فقد تمَّت العلة».

- وقول إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥هـ) في كتابه (نظم الدُّرر ٨/ ٥٠٦): «فيشهد للمؤذِّن كلُّ ما امتدَّ إليه من رطب ويابس».

وكل هذه العبارات يفهم منها أن امتد إليه تعني: وصل إليه وأدركه.

ولقد ورد الفعل (يُطال) بالبناء للمجهول من (يَطول) في كتب التراث في مواضع عديدة، وكلها مما يمكن أن تحمل معنى (يُدرَك أو يوصل إليه) ومن ذلك:

- قول الإمام علي رضي عنه في نهج البلاغة (٥٧٦٢/ ٥٨٣٣): «بُليت بطلحة لا يُدرك غورُه ولا يُطال مكرُه»

- وقول البحتري:

ونحن من لا تطال هضبته وإن أنافت بفاخر رُتَبُه

- وقول مَنْ رثى أبا العلاء المعري:

فأُقبِر بالمعرة وهو أولى بقبرٍ في المجرَّة لا يُطال

- وقول مهيار الديلمي:

وأكسبك الغنى فغنِيتَ منها أصولٌ لا تعدُّ ولا تُطال

- وقول ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢٥٥٤/ ٢٩٨٣): «فأتعبْن الغنيَّ وكلَّفن الفقير ما لا يُطال».

ولا شك في أن (يُطال) في كل العبارات التي يمكن أن تفسَّر بمعنى: لا يغالَب ولا يُطاوَل، ولكن تفسيرها بمعنى (لا يُدرَك ولا يُلحق أو يوصل إليه) هو ما يتبادر إلى ذهن القارئ العربي، ولا يكاد المعاصرون يفهمونها إلا بهذه الدلالة الأخيرة، ولا أظن أن علي بن أبي طالب كان يعني مغالبة طلحة بالمَكر، وإنما يفسَّر قوله: «لا يُطال مكرُه» بقوله: «لا يُدرَك غورُه»: أي لا

يُلحق مكرُه ولا يوصَل إليه، ومن معاني الإدراك اللحاق بالشيء والوصول إليه. جاء في اللسان: «الدَّرْك: اللحاق والوصول إلى الشيء إدراكاً ودَرْكاً، والإدراك: اللُّحوق».

قد يُعترض بأننا في قولنا: (طال الخيرُ فلاناً) بمعنى أدركَه قد جعلنا الفعل (طال) متعدياً، وهو لازم في الأصل، فنقول: الفعل (طالَ) لازم ومتعدٍّ، ففي قول الشاعر في البيت السابق: طالت - فليس تنالها - الأوعالا، جاء الفعل (طالَ) متعدياً ومفعوله (الأوعالا). وثمة أفعال كثيرة في العربية تأتي لازمة ومتعدية كقولهم: (وقف الرجل أمام القاضي، ووقف الرجلُ حصانَه).

ج- في الصرف:

إذا جاز لنا قبول (طال الشيءَ) بمعنى أدركه ووصل إليه، فإن في استعمال المحدثين إشكالاً آخر، وهو صوغهم المضارع منه على بناء (يَفْعَل) كما في قولهم: (يطال العاملون كلَّ حقوقهم)، كأنهم حملوها توهُّماً على مرادفتها (ينالُ). ولكن المعروف أن عين المضارع من الثلاثي المجرد تُضبط بالسماع، ولم يُسمع الفعل (يَطال) مضارعاً للفعل (طالَ)، ولم نجد فعلاً أجوف واوياً يأتي مضارعه على (يَفْعُل ويَفْعَل) بآن واحد فيُحمل عليه، فقد يأتي على (يَفْعُل) وحدها نحو طافَ يطوفُ، وطالَ يطولُ، أو على (يَفْعِل) وحدها مثل طارَ يطير، أو على (يَفْعَل) وحدها مثل نال ينال.

ومن المعروف أيضاً أن الدلالة اللغوية قد تتطور وتتغير بحسب حاجة أصحاب اللغة، ولكن البنية الصرفية ثابتة إلى حد بعيد، ونرى أن لا حاجة لإدخال بناء جديد لمضارع فعلٍ لا تدعو الضرورة إلى إدخاله، ولا يُبنى على إدخاله دلالة خاصة ليست في البناء المسموع.

العضو: د. ممدوح خسارة

طالَ الشيءَ يطالُه
بمعنى أدركه وأصابه وناله

١-المسألة:

يستعمل الناسُ في زماننا الفعل «طالَ يَطال» في نحو قولهم: «طالَ الفقرُ كثيراً من المواطنين»، و«يطال الغزوُ الثقافي اللغاتِ القومية»، و«الأثرياء يطالون كلَّ ما يريدون»؛ بمعنى أدرك الشيءَ، وأصابه، وناله.

وهو ما ينكره بعضُ الباحثين والنقّاد اللغويّين؛ بحجّة أنّ هذا المعنى لم يرد في معاجم العربيّة، ولا في استعمال العرب؛ وأنّ الفعل «طال» في العربيّة لازمٌ غير متعدٍّ، إلّا إذا كان لمعنى المغالبة.

٢- الاقتراح:

جواز استعمال «طالَ الشيءَ يطالُه» بمعنى: أدركه ولحقَه وأصابه وناله؛ وإضافة ذلك إلى المعجم.

٣-التعليل: - في المعاجم:

طالَ الشيءُ يطُول طُولاً بالضم، أي: امتدَّ. وهو لازم غير متعدٍّ. ووزنه «فَعُلَ يفعُلُ». وفي باب المغالبة: طاولَني فطُلته: كنتُ أطولَ منه في الطُّول والطَّول جميعاً.. وهو فعلٌ متعدٍّ، من باب قال، أي على وزن «فَعَلَ يفعُلُ».

ومن الواضح أنّ استعمال «طالَ الشيءَ يطالُه» بمعنى: أدركه وأصابه وناله لم يُؤثَر عن العرب، ولم ينته إلينا فيه شاهدٌ قطعيٌّ يؤيّده من كلامهم، أو من نصوص اللغويّين، ولاسيّما في المعاجم.

ولذلك كان من المناسب أن نبحث لهذا الاستعمال المعاصر عن وجهٍ من القياس جائزٍ مقبول. ولعلّ أظهرَ ما يلوح في هذا الباب التضمينُ. والتضمين في ضوء ما انتهى إلينا من كلام العرب، وكثرة وروده، أوسعُ ممّا

قيّده به بعضُ العلماء من الوقوف عند السماع، وحجْرِ القياس فيه، والناسُ في زماننا يميلون إليه ميلاً، وبعضُ العلماء، بل كثيرٌ منهم، يذهب فيه إلى القياس. وبه أخذ مجمع اللغة العربيّة في القاهرة ونصّ عليه[١]. فكأنّ المعاصرين هنا ضمَّنوا الفعلَ «طال» في استعمالهم معنى الفعل «نال ينال» تضميناً كان من أثره النحويّ التعديةُ، ومن أثره الصرفيّ بناء المضارع «يطال» على «يَفْعَل».

ولعلّ ممّا يسوّغ هذا البناءَ، ويدعو إلى التسمّح في استعماله، أنّ له دلالةً خاصّة تميّز هذا الاستعمالَ، وتدلّ على معناه. فإذا قيل: «طال الهمُّ يطول» كان الفعل لازماً دالاً على معنى الامتداد، ووزنه «فَعُل يفعُل». وإذا قيل: «طال زيدٌ خالداً يطُوله» كان الفعل متعدّياً دالًّا على المغالبة في الطول، ووزنه «فَعَل يفعُل». وإذا قيل كما يقول المعاصرون: «طاله الهمُّ يطاله» كان الفعل متعدّياً دالًّا على معنى: نال أو أصاب أو أدرك، وهو المعنى الطارئ الذي يريده المعاصرون، وكان وزنه «فَعَل يفعَل».

ولك أن تقدِّرَ في استعمال المعاصرين هذا وجهاً من الصلة بباب المغالبة مبنياً على المجاز. كأنّ في قول المعاصرين مثلاً: «طالَ الهمُّ زيداً» ونحوه مغالبةً بين الهمّ وزيد، غلب فيها الهمُّ زيداً في الطَّول غلبةً كان من أثرها مجيءُ الفعل «طالَ» متعدّياً على وزن «فَعَلَ» مراعاة لمعنى المغالبة

(١) انظر: التضمين النحويّ في القرآن الكريم، د. محمد نديم فاضل، مكتبة دار الزمان - المدينة المنوّرة، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٨٩-١١٠؛ والغرض من قرارات المجمع والاحتجاج لها، أحمد الإسكندريّ، مجلة مجمع اللغة العربيّة الملكي - القاهرة، ١٩٣٤، ١/ ١٨٠-١٩٩؛ وكتاب الألفاظ والأساليب، مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، إعداد محمد شوقي أمين، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، ١٩٨٥، ٢/ ٥٥-٥٨؛ والنحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف - القاهرة، ط ٤، ١٩٧٣، ٢/ ٥٦٤-٥٩٥.

وسنن العربيّة في هذا الباب. على أنّه فارق سنّة هذا الباب في صيغة المضارع، إذ كان على وزن «يفعَل: يطال»، لا على وزن «يفعُل: يطُول» كما يقتضي الباب؛ لأنّه لم يوافق باب المغالبة موافقة مطابقة، إذ كان على وجه من المجاز لا الحقيقة، خلافاً لما عليه الباب في أصله.

ومن هنا يمكن تسويغ هذا الاستعمال المعاصر «طاله يطاله» بمعناه وبصيغتيه الماضي والمضارع والتسمّحُ فيه.

العضو د. عبد الناصر عسّاف

٤- قرار اللجنة:

١- جواز استعمال الفعل (طالَ) بمعنى أدرك ولحقَ كما في قولهم: (طال الخيرُ معظمَ المواطنين)، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

٢- جواز بناء المضارع على (يَفْعَل)، أي: (يَطال)، على التضمين، والأولى (يَطُول).

٥- قرار المجلس: الموافقة.

* * *

(١٩٧)
(طالما اجتهدتَ فسوف أكافئك)
(سوف أكافئك، إذ طالما اجتهدتَ)

١- المسألة:

يشيع لدى بعض الكتَّاب والمتكلمين عبارات مثل: (طالما اجتهدت فسوف أكافئك)، بتضمين (طالما) معنى الشرط.

٢- الاقتراح:

عدم جواز استعمال الفعل (طالما) بمعنى الشرط، والصواب أن يقال: (سوف أكافئك، إذ طالما اجتهدت)، أو (سوف أكافئك ما دمت اجتهدت).

٣- التعليل:

من المعروف أن (ما) في مثل هذه العبارات هي (ما) المصدرية على الأرجح، وهي تدخل على الأفعال: (طال، قلَّ، كثر، شدَّ) في مثل قولهم: (قلما يجود البخيل، وطالما نصحتك فلم تستمع إلي)، ويُسْبَك من (ما) المصدرية والفعل بعدها مصدر هو فاعل لهذه الأفعال فيصبح معنى قولنا: (قلما يجود البخيل) هو: قلَّ جود البخيل، ومعنى قولنا: (طالما نصحتك فلم تستمع إلي) هو: طال نصحي لك فلم تستمع إلي.

ولكن بعض المحدثين يضمنون هذا التركيب الخبري معنى الشرط، فيذهبون إلى أن قولهم: (طالما اجتهدت فسوف أكافئك) هو: إن اجتهدت فسوف أكافئك، أو: ما دمت مجتهداً فسوف أكافئك، وواضح هنا أنهم يحملون هذا التركيب على تركيب: (مادام الرئيس قد حضر فلنبدأ الجلسة) الذي أجازه مجمع القاهرة في أصول اللغة (٣/ ١٣٨) حيث حملت (ما) ثَمَّ على الشرطية الزمانية، والفرق واضح بين التركيبين، إذ إن (ما) هنا ليست ظرفية شرطية وليست مصدرية ظرفية؛ لأن تلك تسبق الفعل أما (ما) هنا - على اختلاف الرأي فيها - فقد لحقت الفعل ولم تسبقه، يضاف إلى ذلك أن صيغ الشرط في العربية كثيرة ومتعددة فليس من حاجة تضطرنا لمزيد منها لا يتفق وقواعد العربية.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

عدم جواز استعمال الفعل (طالما) بمعنى الشرط، والصواب أن يقال:

(سوف أكافئك، إذ طالما اجتهدت)، أو (سوف أكافئك مادمت اجتهدت).

٥- قرار المجلس: الموافقة.

* * *

(١٩٨)

عصَّبَ بمعنى انفعلَ مُغضَباً أو تغضَّبَ

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي، ولاسيما الشفهي منه الفعل (عصَّبَ) بمعنى: انفعلَ مُغضَباً في مثل قولهم: (عصَّب الأبُ على أبنائه).

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (عصَّبَ) بمعنى انفعلَ مُغضَباً أو تغضَّبَ، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

٣- التعليل: أ- في المعاجم القديمة:

- العين: «العَصيب: الشديد، (أمرٌ عصيبٌ). العَصَبة: ورثة الرجل عن كلالة من غير ولد ولا والد، وكل من لم يكن له فريضة مسماة فهو عَصَبة».
- لسان العرب: «الأعصاب: أطناب المفاصل [حبالها]. عَصَبَ الشيءَ عَصْباً: طواه ولواه وشدَّه، وعَصَبَ رأسَه وعَصّبَه تعصيباً: شدَّهُ، واسم ما شُدَّ به العِصابة، وتعصَّبَ: أي شدَّ العِصابةَ، وقد اعتصبَ بالتاج والعمامة. ويقال للرجل الذي سوَّده قومُه: قد عصَّبوه. وعصَّبَ القومَ: جوَّعهم. رجلٌ معصوبٌ: شديد. عَصَبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه. التعصُّب من العَصبيَّة، وهو أن يدعو الرجل إلى نصرة عَصَبته والتألُّب معهم، والمحاماة والمدافعة. العَصَبيّ: هو الذي يغضب لعَصَبته

ويحامي عنهم. العصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عَصَبته والتألُّب معهم ظالمين كانوا أو مظلومين. وفي الحديث: «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبيَّةً»».

- تاج العروس: «عصَّبهُ تعصيباً: شدَّهُ. العصَبَة عند الفقهاء: كل من لم يكن له فريضة مسماة فهو عَصَبةٌ إن بقي شيء بعد الفرائض أخذَ. العُصبة: الرجل الشديد المراس».

ب- في المعاجم المعاصرة:

- الوسيط: «العصَبية: سرعة الانفعال، حدة وخشونة. العَصَبيّ: سريع الانفعال (محدثة)».
- معجم العربية المعاصرة: «التَّعْصيب: توزيع الأعصاب في الجسم».

ج- في الصرف والدلالة:

الفعل (عَصَّبَ) على بناء (فَعَّلَ)، من الثلاثي (عَصَبَ)، ولم تورد له المعاجم القديمة والحديثة هذه الدلالة، وهي الانفعال والغضب، ولكن الفقهاء أعطوه دلالة إضافية، فبعد أن كان معناه الشدّ بالعصابة أو التسويد أو التجويع، صار له معنى (جعْل بعض الأقارب من العَصَبة من حيث التوريث). جاء في (روضة الطالبين وعمدة المفتين) للإمام النووي (ج٥/ ١٥): «فإن كان معهنَّ أو أسفل منهن عصَّبهنَّ في الباقي، للذكر مثل حظ الأنثيين» وجاء: «وإنما يعصِّبهنَّ إذا لم يكن لهن فرْضٌ كما ذكرنا، ولا يعصِّب ابن الابن من كان أسفل منه، بل يختص بالباقي». وجاء في (تهذيب الأسماء واللغات) للنووي أيضاً (ج١/ ١٢٩١): «فهو مقدَّم على من يسقط فرضه في حال التعصيب، وهي البنات وبنات الابن».

أما المحدَثون فهم، وإن لم يعطوا للفعل (عَصَّبَ) الدلالة الجديدة،

فإنهم أعطوا لمشتقاته (العصبية والعصبي) دلالة جديدة مغايرة قليلاً لما هو عند القدماء. فإذا كانت (العصبية) عند القدماء هي الدعوة إلى نصرة العَصَبة (الأقارب) والتألُّب معهم [أي الغضب لهم] فإنها عند المحدثين هي (سرعة الانفعال) الذي هو التأثر بالشيء انبساطاً وانقباضاً، كما في الوسيط، وإذا كان العصبي عند القدماء هو من يدعو إلى العصبية القبلية، فإنه عند المحدثين هو (سريع الانفعال) سواء أكان الغضب لجماعته أم لنفسه، أي إن التطور الدلالي قد أضاف إلى معاني العصبية والعصبي معنى السرعة في الغضب، ولكن ليس للأقارب فحسب بل وللنفْس أيضاً، وهذا نوع من توسيع الدلالة، وبتوسيع معنى العصبي والعصبية عند المحدثين يمكن أن تُطوَّر دلالة الفعل (عصَّب) لتصبح الانفعالَ بغَضَبٍ، وهي دلالة ليست ببعيدة عن معنى التعصُّب والعصبيّة والعصبيّ عند القدماء.

تبقى إشكالية أن الفعل (عَصَّبَ) صار لازماً بعد أن كان متعدياً في المعاجم، ولعل حقه أن يكون (تعصَّبَ) على بناء (تَفعَّلَ) الذي يعني اللزوم غالباً، ولكن هذه الإشكالية محلولة بأن بناء (فَعَّلَ) قد يأتي بمعنى (تَفعَّلَ) كما في قولهم: «فكَّرَ وتَفكَّر وولَّى وتولَّى» ولاحظنا كيف أن صاحب لسان العرب قد استعمل (عصَّبَ وتعصَّبَ) بمعنى واحد على اختلاف بناءيهما.

العضو د.ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (عصَّبَ) بمعنى انفعلَ مُغضَباً أو تغضَّبَ، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

٥- قرار المجلس: الموافقة.

* * *

الكتب والمجلات المهداة
إلى مكتبة مجمع اللغة العربية

أ. أنور درويش(*)

أ- الكتب العربية

- أثر المحتسب في الدراسات النحوية: حازم الحلي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران، ٢٠١٣.
- أعلام حماة من فجر الإسلام حتى أواخر القرن الرابع عشر الهجري: أحمد قدري الكيالي، عني به: عبد الرزاق الكيالي، وليد السراقبي، دار الإرشاد للنشر، دمشق؛ ٢٠١٨.
- أناشيد طفولة: شعر للأطفال: علي الرضا الحسيني، المؤلف، دمشق، ٢٠١٨.
- الإنسان البشع (مسرحية): علي الرضا الحسيني، المؤلف، دمشق، ٢٠١٨.
- بلا عنوان (شعر): علي الرضا الحسيني، المؤلف، دمشق، ٢٠١٨.
- ترنيمة الصباح: ديوان شعر: أُسيدة شهبندر، دمشق، ٢٠١٨.

(*) أمين المكتبة العربية في المجمع.

- الثوية بقيع الكوفة: صلاح مهدي الفرطوسي، العارف للمطبوعات، بيروت، العراق، ٢٠١٥.
- الحركة الأدبية في بلاد الشام: عبد النبي اصطيف، محمود الربداوي، وهب رومية وآخرون، دمشق عاصمة الثقافة العامة، دمشق، ٢٠١٨.
- خواطر الحسيني: علي الرضا الحسيني ، دمشق، ٢٠١٨.
- زين العابدين بن الحسين الشهير بالتونسي: علي الرضا الحسيني، دمشق، ٢٠١٨.
- عبقريات تونسية: علي رضا الحسيني، دمشق، ٢٠١٨.
- اللغة العربية بين التشدد والتيسير: ممدوح خسارة، وزارة الثقافة: الهيئة العامة للكتاب، دمشق ٢٠١٨،(قضايا لغوية؛ ١٠).
- مسرحيات أحمد أبي خليل القباني: تحقيق وتصحيح: محمد بري عواني، وزارة الثقافة: الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠١٨، (إحياء التراث العربي ونشره).
- معجم أعلام التعمية واستخراج المعمى في التراث العربي والإسلامي: يحيى مير علم، الوعي الإسلامي، الكويت، ٢٠١٨، (الوعي الإسلامي؛ ١٦٧).
- من أقوال سيدي الوالد زين العابدين التونسي: علي الرضا الحسيني، دمشق، ٢٠١٨.
- من ذكرياتي في المحاماة: علي الرضا الحسيني، دمشق، ٢٠١٨.
- النحو والصرف: وليد السراقبي، جامعة حماة: كلية الآداب، حماة، ٢٠١٨.

* * *

الفهارس العامة
للمجلد التسعين

أ- فهرس أسماء
كتّاب المقالات

د. إبراهيم عبد الله ١٢٣

د. أحمد قدور ٥٥، ٣١٧

د. ثائر زين الدين ٢٠٣

د. خالد عباس ٤٣٥

د. رضوان الداية ٤٩٩

د. سمير معلوف ٣٦٩

د. عباس الجراخ ٧٩

د. عبد الجبار الضحاك ١٦٥

د. عبد الناصر عساف ٥٣٧

د. عبد النبي اصطيف ١٠٧، ٥٢٧

د. عبير عبد الستار ٤٣٥

د. عمر شابسيغ	١١٣
أ. عيسى فتوح	٥٢١
د. لبانة مشوح	٣٤٥
د. مازن المبارك	١٣٥، ٤٦٧
د. محمد موعد	١٩٧
د. محمود السيد	٩، ٢١١، ٤٧٩
د. مروان المحاسني	١٨٧
د. مكي الحسني	١٠٥، ٤٩١
د. ممدوح خسارة	٣٥، ٢٩٩
د. يحيى مير علم	٤٠٥

* * *

ب – فهرس عناوين المقالات

اتحاد المجامع ومؤتمرات التعريب ٤٦٧
أخلاقيات البيولوجيا والإعلان العالمي بشأن الجينوم البشري وحقوق الإنسان ١٦٥
أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق في مطلع عام (١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م) ٢٧٥
الإدراج بين الساكن والمتحرك ٥٥
الترجمة وواقع المصطلح اللساني العربي ٣٤٥
التطور اللغوي في العربية المعاصرة ٥٣٧
الحركة وخصائص التلفظ ٣١٧
الدكتور ممدوح خسارة وعنايته بالعربية الراهنة ٥٢٧
الدلالة التلميحية للإطناب دراسة تطبيقية في التعبير القرآني ٤٣٥
الرسالة البدع في التعبير عن المتكلم المفرد بصيغة الجمع ٤٩٩
القلب والدماغ ١١٣
تكملة مادة لغوية درس، عمل، جَبَه، شبك ٣٥
تكملة مادة لغوية دَفَع، شَحَن، وَلَد ٢٩٩
جهود مجمع اللغة العربية بدمشق في علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ٤٠٥
رضي عنه وعليه ١٠٥
شحادة الخوري: رائد العمل العام ١٠٧

شعر ابن القيسراني جمع وتحقيق ودراسة د. عادل جابر صالح محمد ٧٩
عبد المعين الملوحي المجمعي المعطاء ٥٢١
قراءة نقدية في بحوث مؤتمر مجمعي ج٢ ٩
الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع ٢٧٣، ٥٧٧
كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني ١٨٧
كلمة لجنة التمكين للغة العربية ٢١١
كلمة وزارة التعليم العالي ١٩٧
كلمة وزارة الثقافة ٢٠٣
ما هو جوابك؟ من هو زيد؟ ١٢٣
ما ولا النافيتان ٤٩١
محطات مضيئة في مسيرة العربية والتعريب ١٣٥
من جماليات الكلام ٣٦٩
من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب ٢٥٣، ٥٥٩
ويغيب نجم ٤٧٩

* * *

تنضيد وإخراج: عمار البخاري